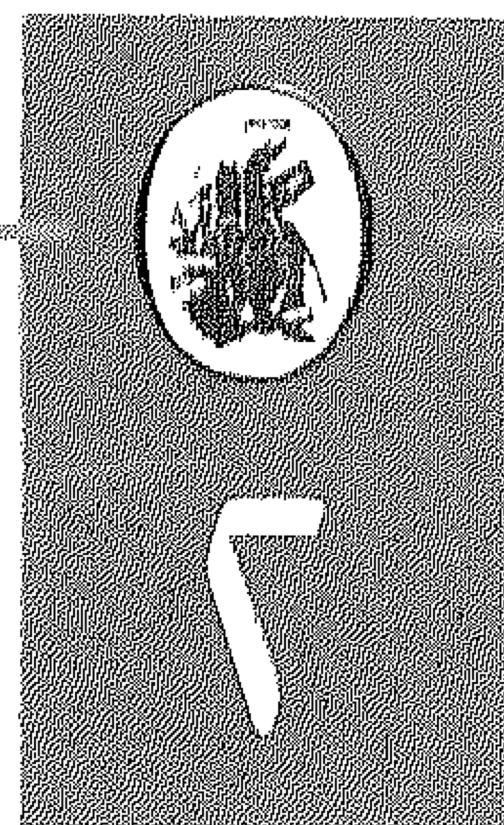
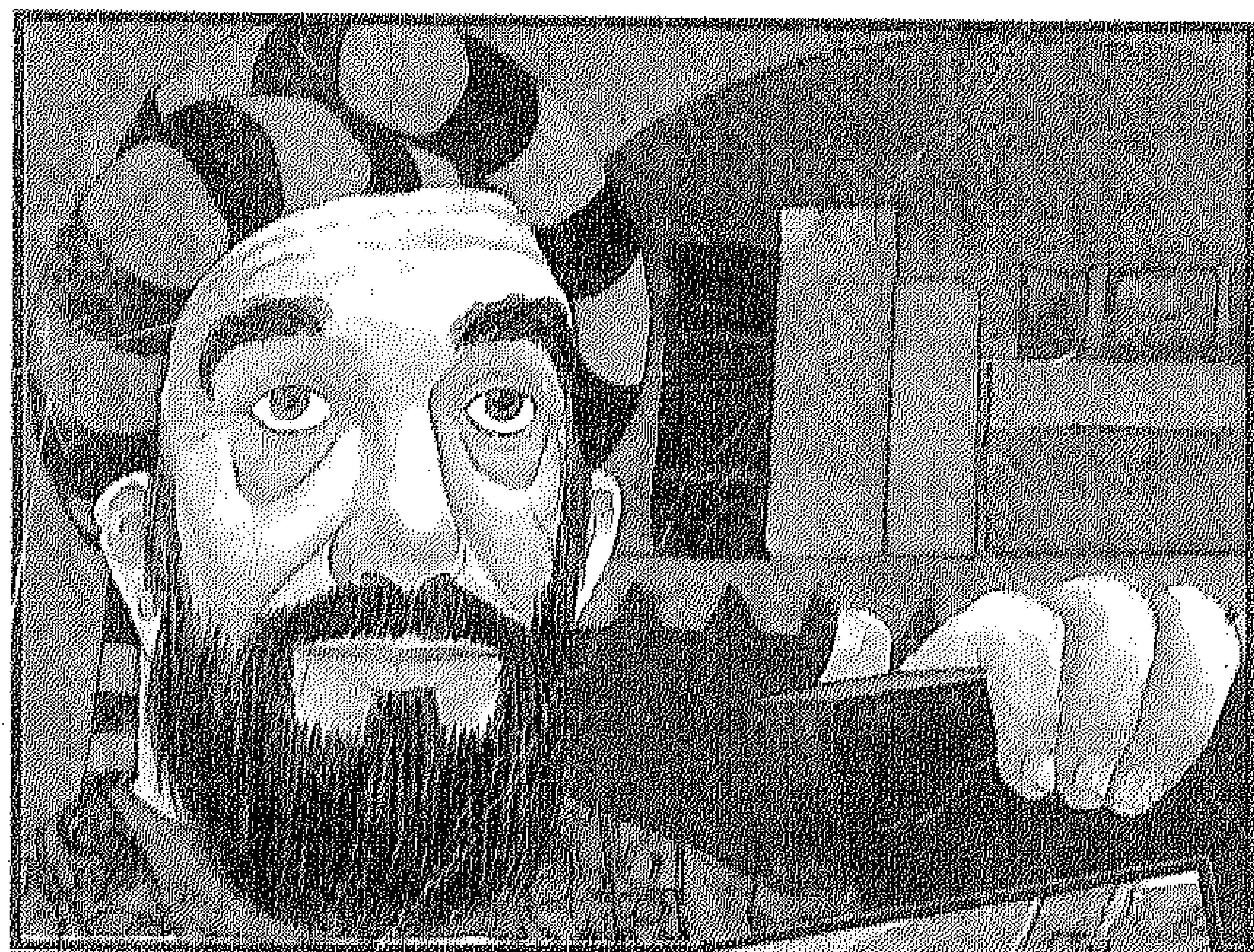


علماء العرب



٢

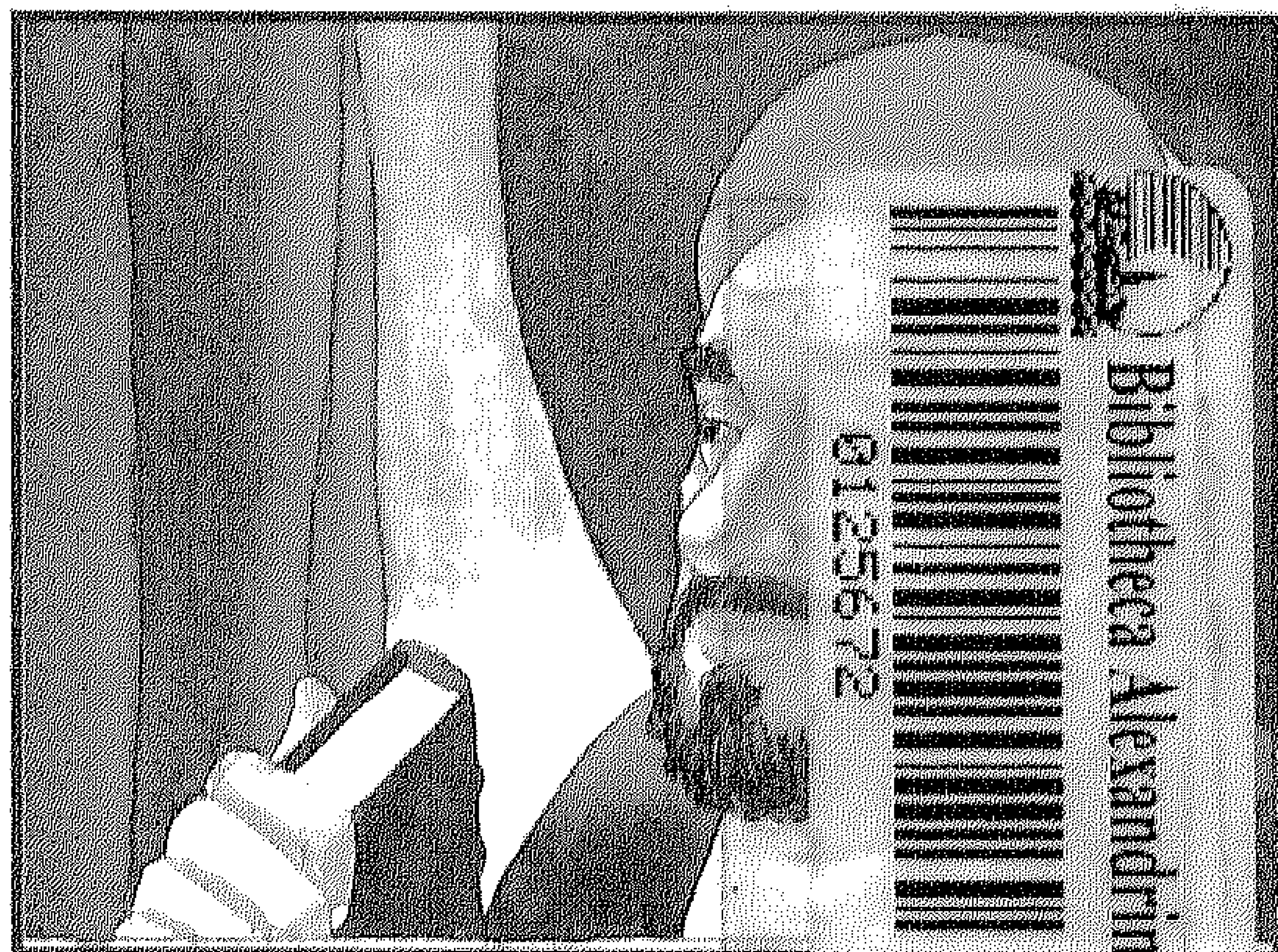




ابن الأثير
ابن بطوطة
الإدريسي
الجبرتي

إعداد: راجي عنايت
رسوم: هبة عنايت





علماء العَرب

للفتيان والفتيات

ابن الأثير ● ابن بطوطة ● الإدريسي ● الجبرتي

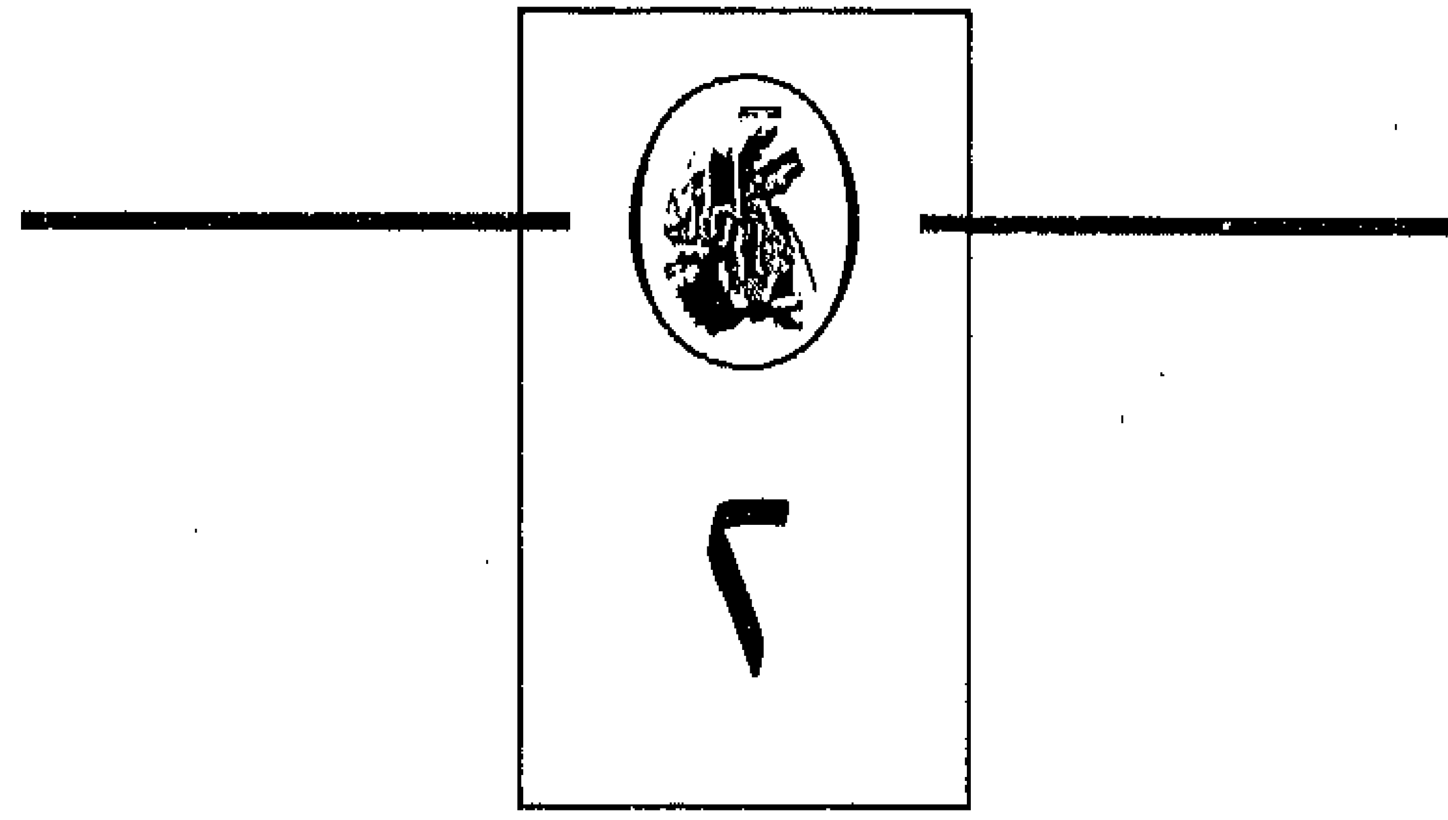
الطبعة الأولى
1995

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، شارع برلين
بناية برج الكارلتون
ت: 807900/1 ص.ب.: 11-5460
تلكس: LE/DIRKAY 40067 برقيًا: موكيالي



دار الفارس للنشر والتوزيع
عمان، الشميساني، شارع عبد الحميد شومان
عمارة بترا سنتر، فوق (مطعم بيتزاهت)
ت.: 605432 فاكس: 685501
ص.ب.: 9157 عمان 11191



ابن الأثير
ابن بطوطة
الإدريسي
الجبرتي

إعـــداد : راجـــي عنـــايــت
رســـوم : هـبــة عنـــايــت



ابنُ الأثير

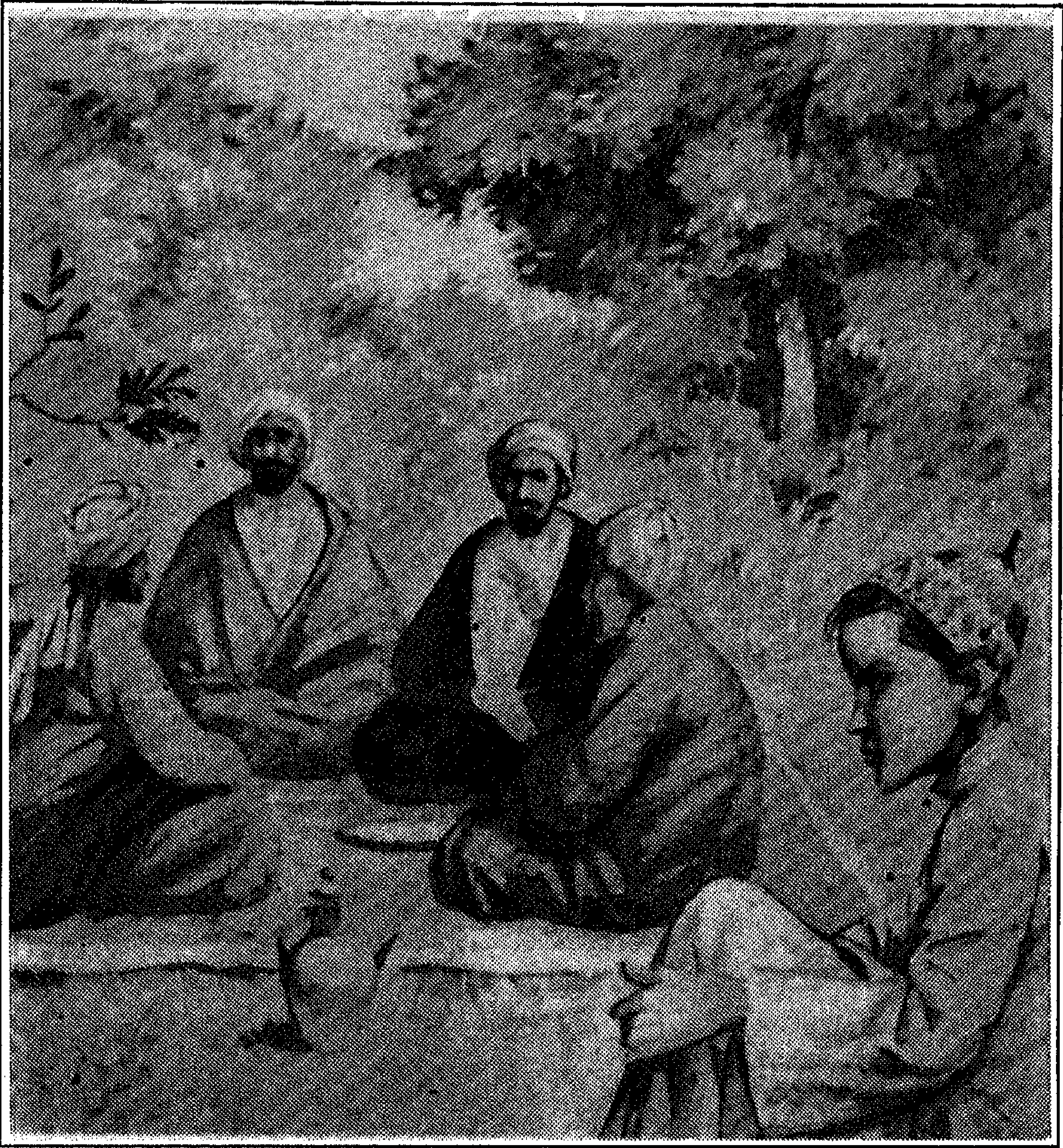
المؤرخ الإسلامي العالمي



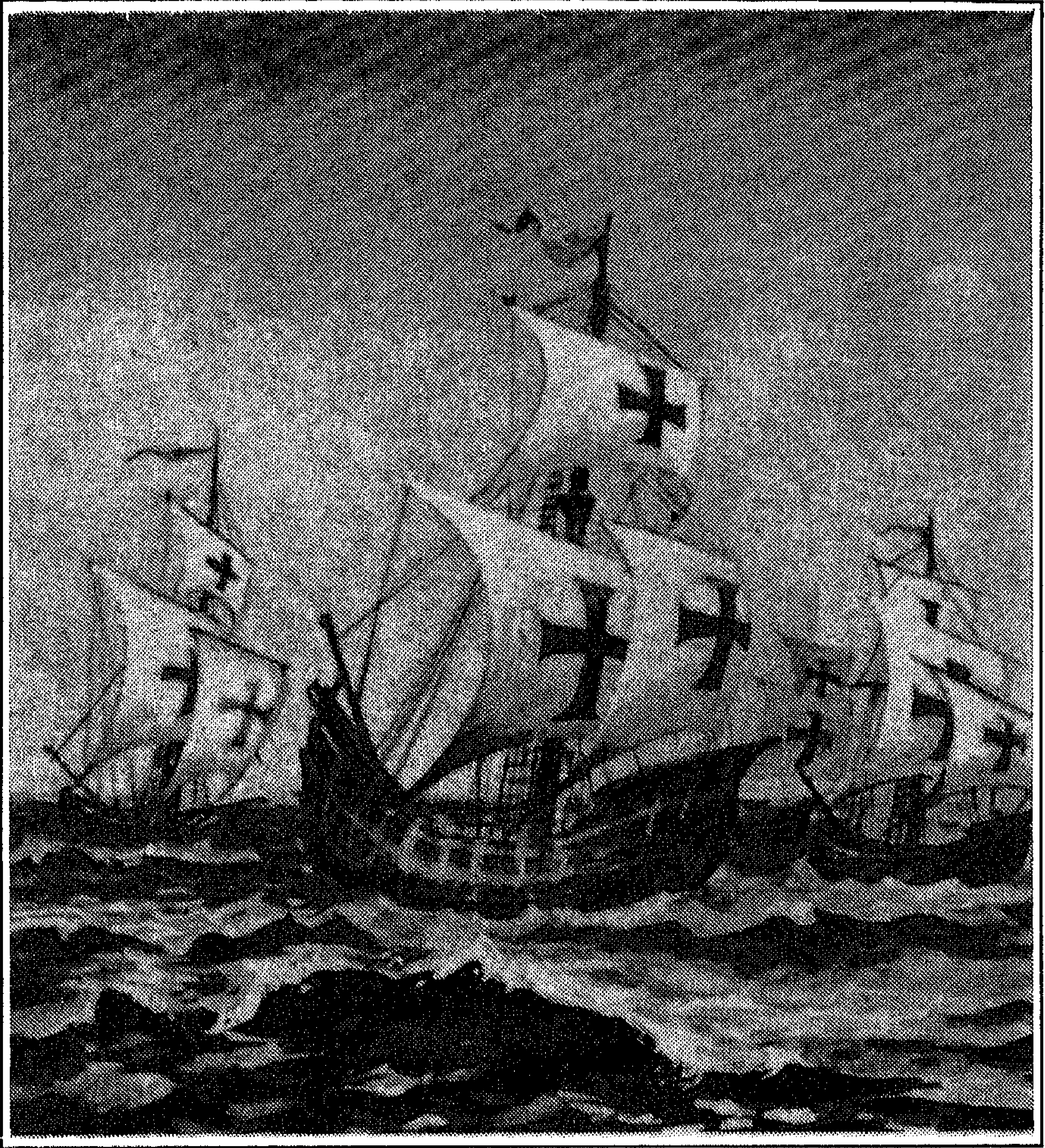
هُوَ عز الدين

أبو الحسَن عليُّ بنُ

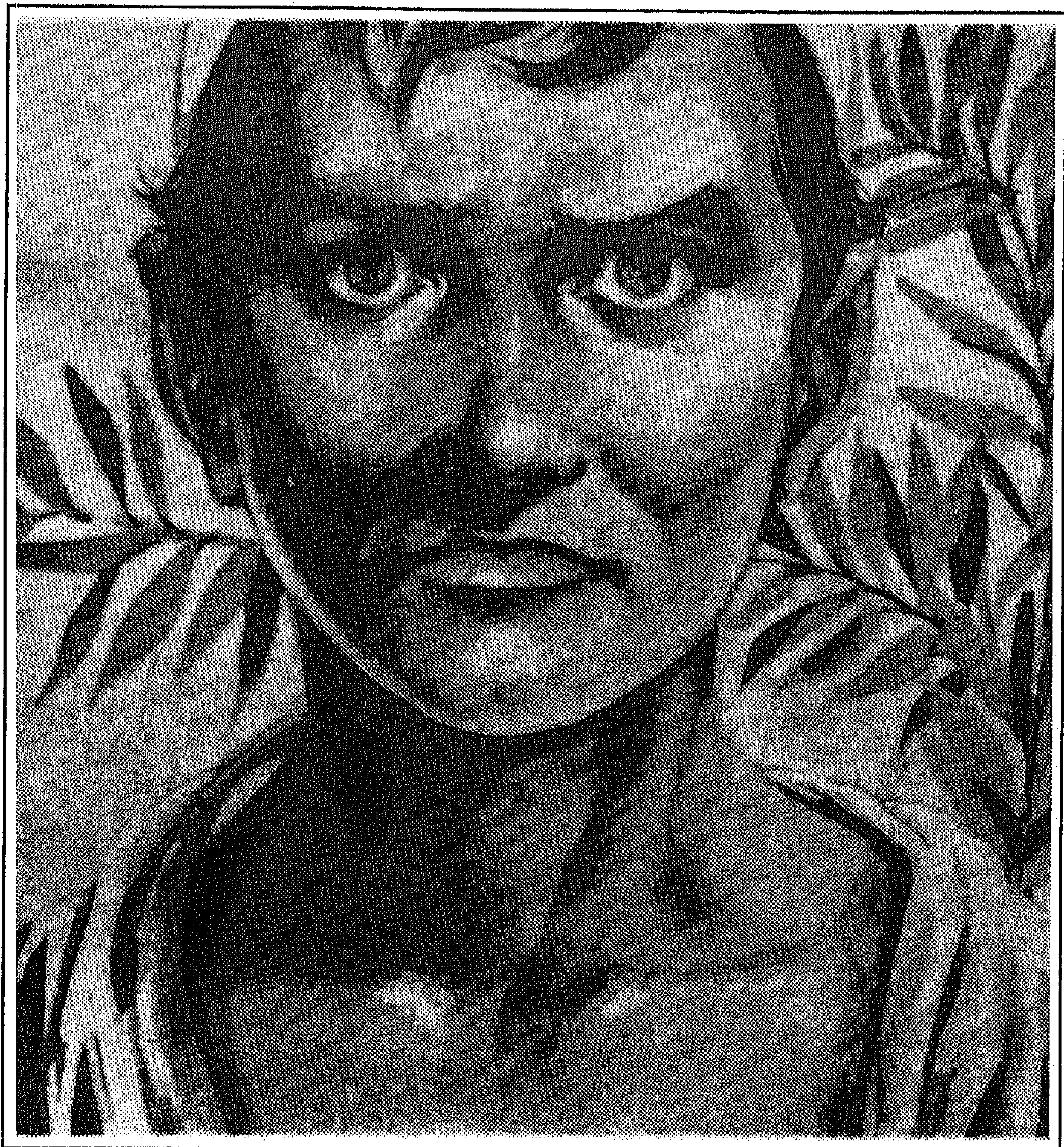
محمد بنِ عبدِ الكريمِ الشَّيْبانيّ



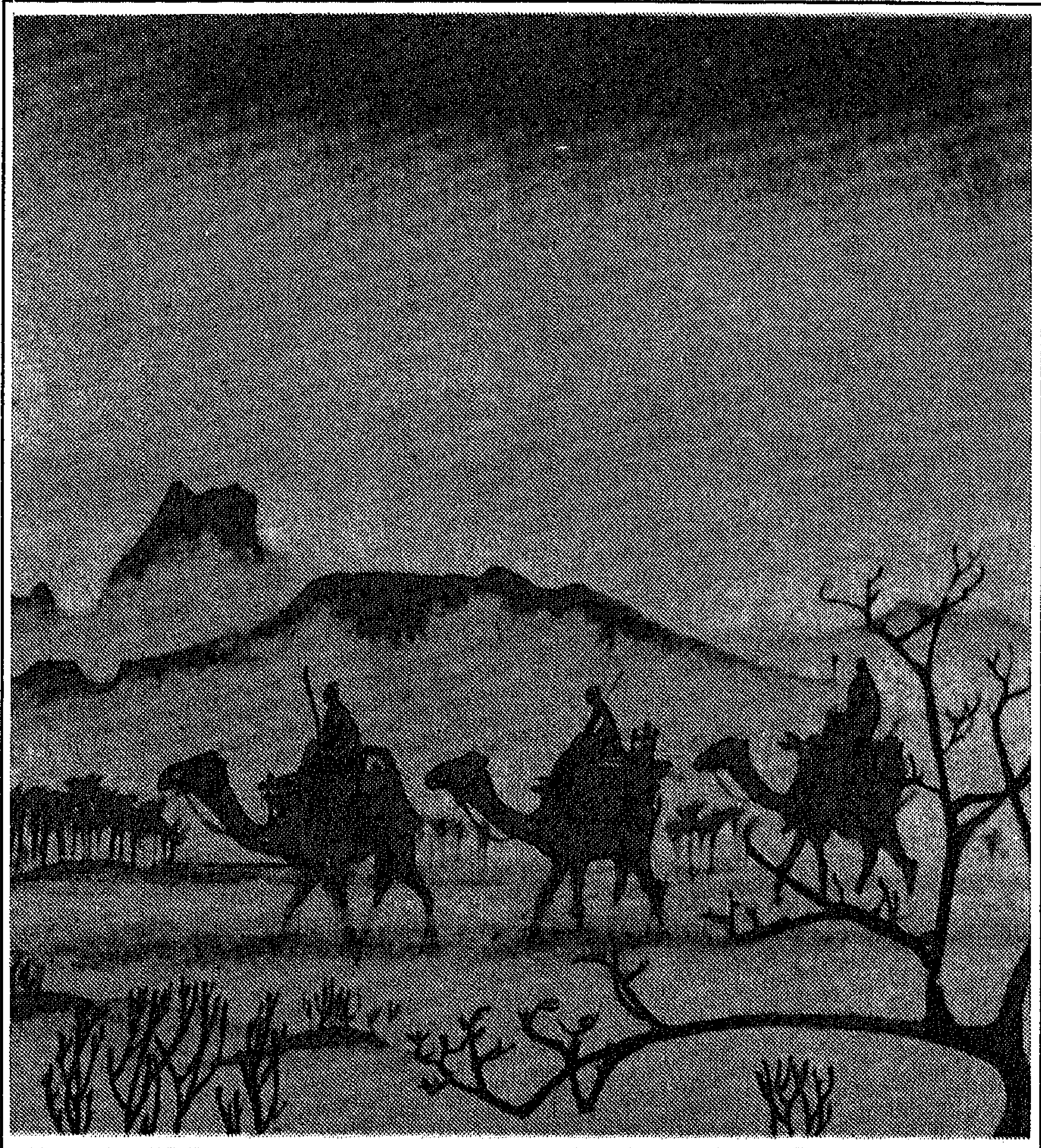
عندما كان ابن الأثير فتى صغيراً، كان يستمعُ إلى الحديثِ الذي يدورُ بين أبيه وضيوفِه في البستانِ الذي يملكونه قربَ الْمَوْصِل. كان الأبُ الذي يعملُ في التجارة، يحكي لصَحْبِه خبرَ استيلاءِ الصليبيين على مراكبِ تجارتِه التي كانت قادمةً من مصرَ إلى الشام.



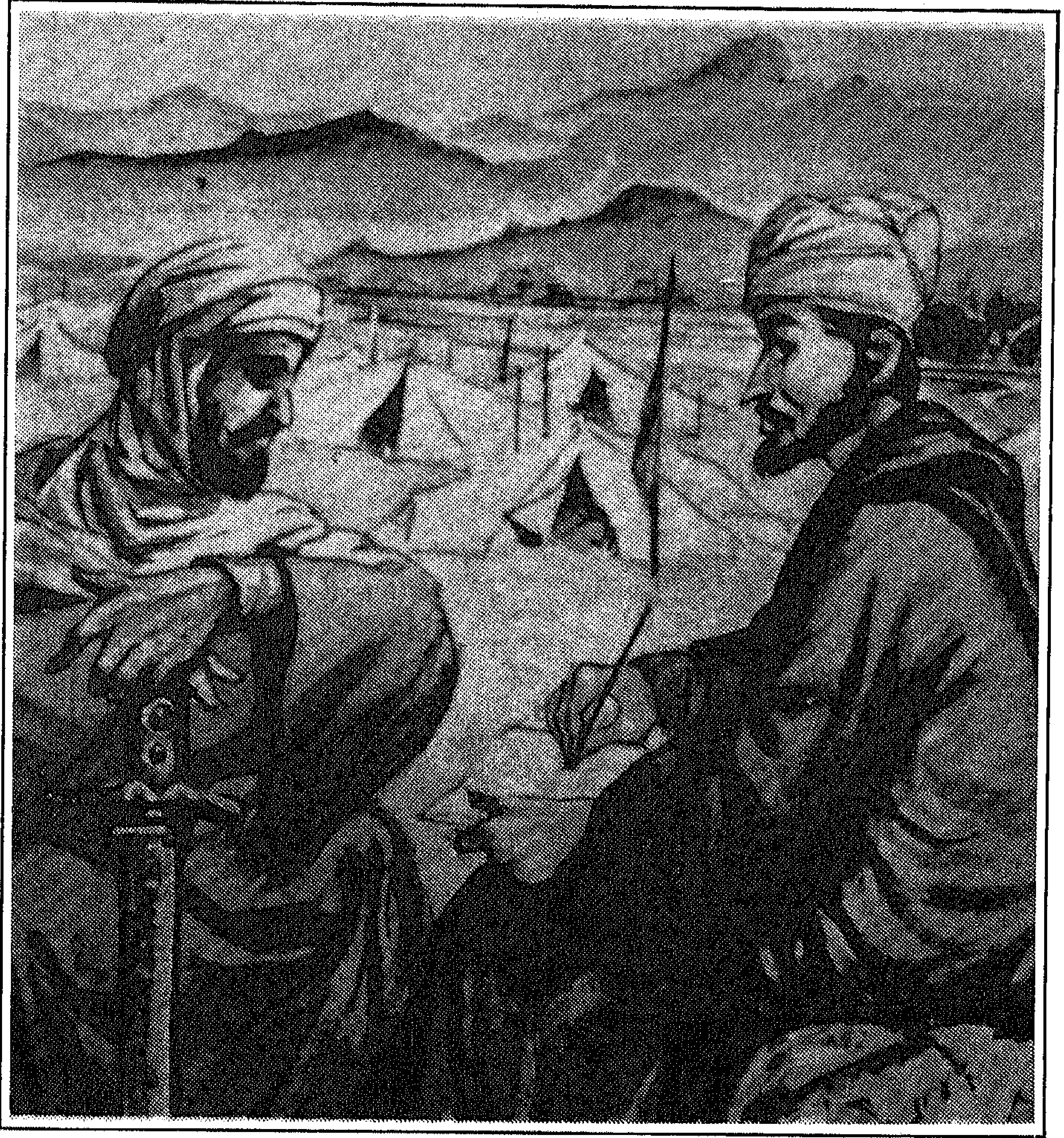
طال النِّقاشُ بين الحضور، وتحدَّثوا في غضبٍ عن دخولِ الصليبيين إلى الشام، وعن تفككِ الحكّامِ المسلمين واختلافِهم، مما سهَّلَ للصليبيين أن يَنتصروا انتصاراً كاسحاً. ثم تكلّموا عن محاولاتِ بَني زنكي، حكّامِ الشام، لتحريرِ أرضِ المسلمين.



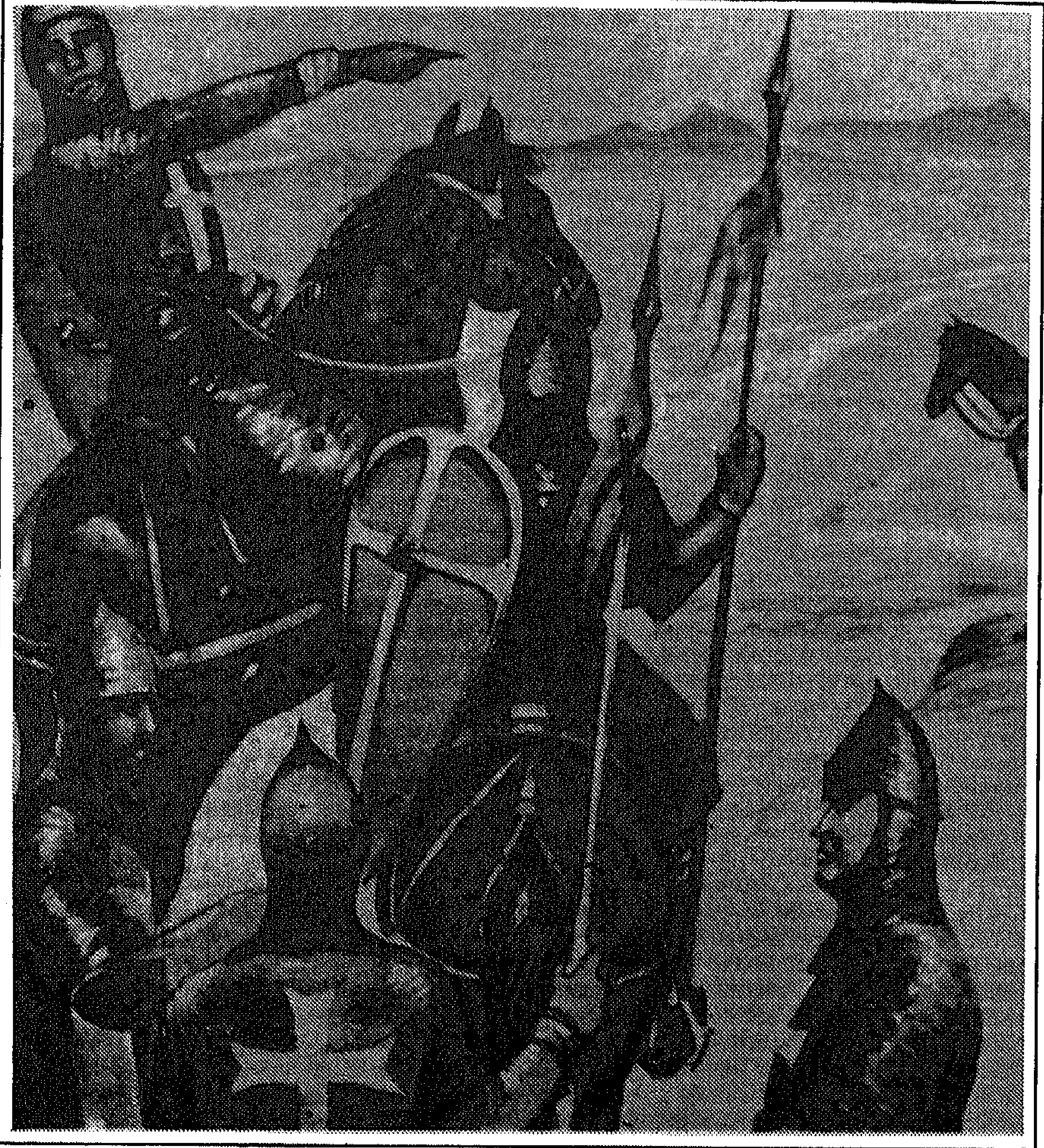
وما إن يَختلي الصبيّ ابنُ الأثير بنفسِه، ويتذكَّرُ ما سمعَه في مجلسِ أبيه عن هزيمةِ المسلمين، حتى ينقبضَ صدرُه، ويتمنّى أن يتَّحدَ العربُ وتتفقَ كلمةُ المسلمين، لطردِ هؤلاء الغُزاةِ من الأرضِ التي احتلُّوها.



في عام ٥٧٠ هجرية، تصلُ إلى ابنِ الأثيرِ أخبارُ الحملةِ الصليبيةِ الثالثة، ويسمعُ لأولِ مرةٍ عن القائدِ الإسلاميِّ صلاحِ الدينِ الأيوبيّ الذي يتصدّى بشجاعةٍ للصليبيين، فيقررُ السفرَ إلى الشام، حتى يشهدَ بنفسِه معاركَ التحرير.



في الشامِ يستطيعُ ابنُ الأثيرِ أن يحصُلَ على الإذنِ بحضورِ المعاركِ التي يَشُنُّها صلاحُ الدينِ الأيوبيّ على الصليبيين، ولم يكتفِ ابنُ الأثير بتدوينِ أخبارِ جيوشِ المسلمين، بل حَرَصَ على معرفةِ أخبارِ الصليبيين التي لا يعرفُها إلاَّ الخَواصّ.



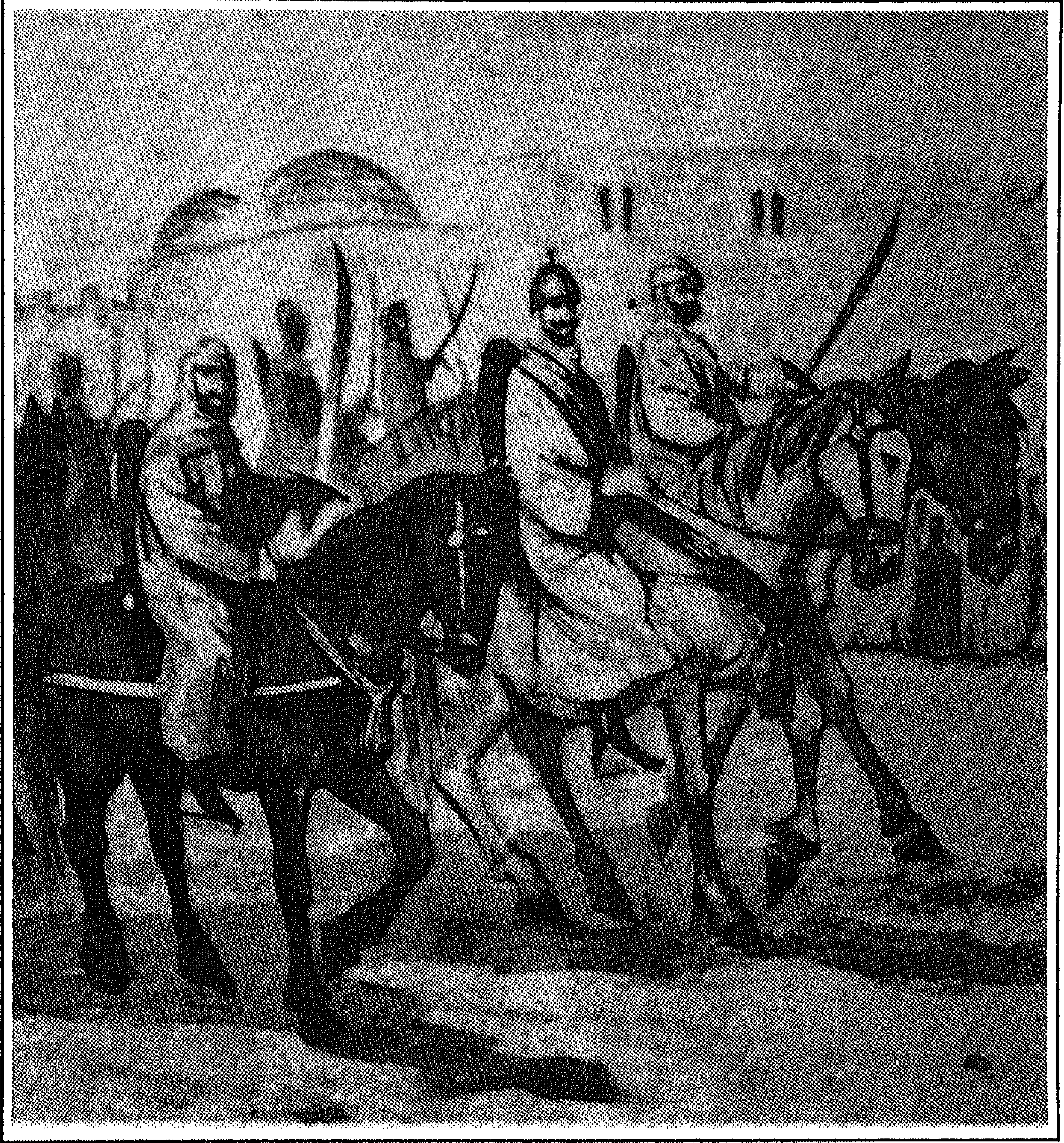
وفي عام ٥٨٣ هجرية، يصلُ إلى عِلمِ الصليبيين أنّ صلاحَ الدين يَنوي تحريرَ بيتِ المقدسِ من أيديهم، فيحشدُ الصّليبيون قواتِهم، ويُنظّمونها أفضلَ تنظيم معتمدين على خِبْراتِ الحربِ التي تَعلّموها من معاركهِم.



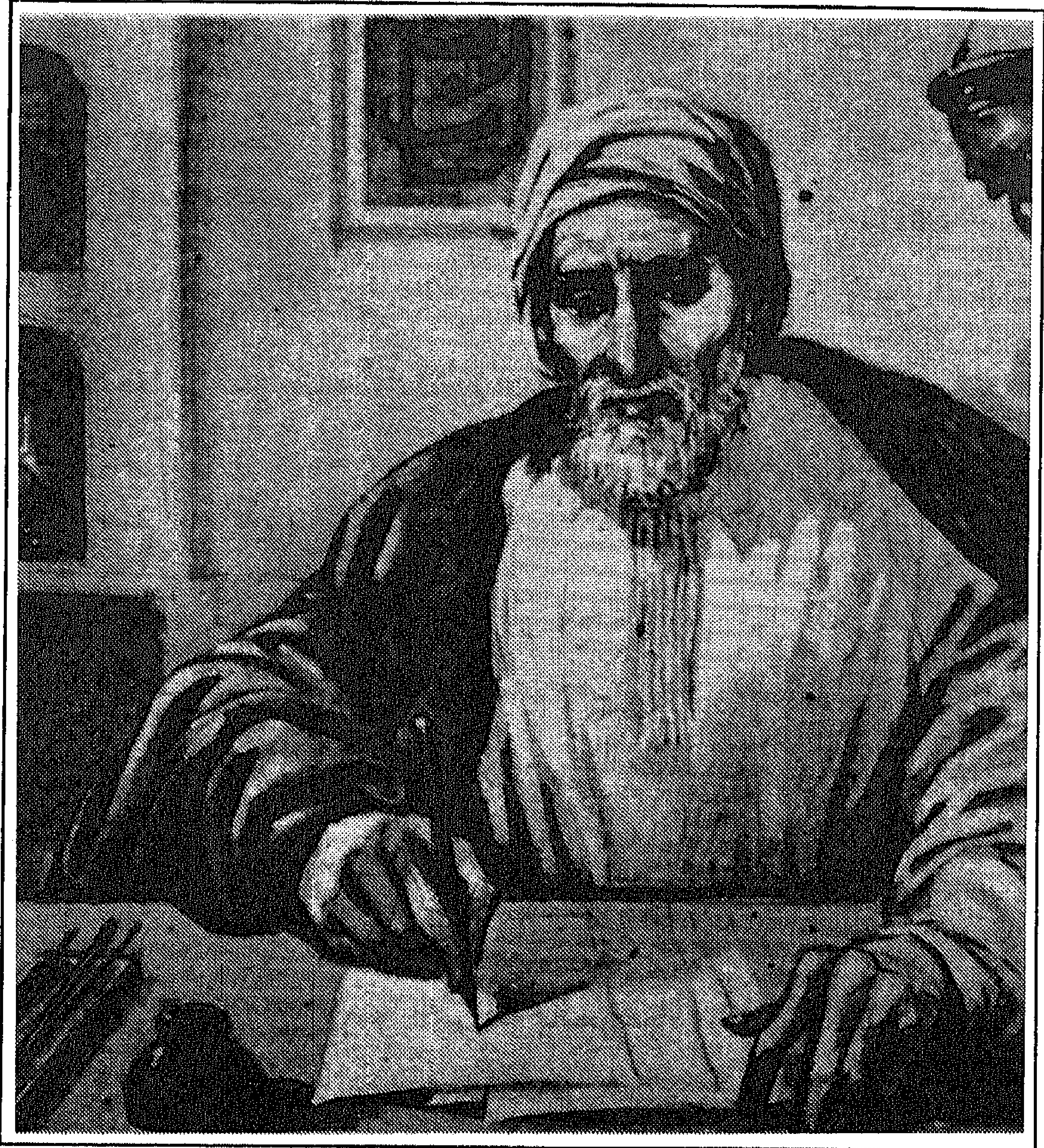
وفي الجانبِ الآخر، كان صلاحُ الدينِ الأيوبي يضعُ خِططَه، ويوزِّعُ قُواتِه، ويستثيرُ هِمَمَ رجالِه، لتحريرِ المدينةِ المقدسةِ من يدِ الأعداء. وكان ابنُ الأثيرِ يشاهدُ ما يَجري وقد غَلَبَه الحَماس.



تبدأُ المعركةُ الكُبرى لتحريرِ بيتِ المقدس، وتخوضُ قواتُ المسلمين بقيادةِ صلاحِ الدينِ أعنفَ معركةٍ ضدَّ أعنفِ مقاومة. تتقدمُ قواتُ صلاحِ الدين، بينما يسعى ابنُ الأثيرِ بين الصفوف، يختزنُ في ذاكرتِه أدقَّ التفاصيل.



تَنْجلي المعركةُ عن انتصارِ صلاحِ الدين الأيوبي. فيدخلُ في موكبٍ عظيمٍ إلى مدينةِ بيتِ المقدس التي حرَّرَها. أمّا الجيوشُ الصليبية، فتتراجعُ هاربةً من أرضِ المعركة، تَجمعُ الجَرحى وتَلُمُّ أشْلاءَ القَتلى.



يفرحُ ابنُ الأثيرِ بهذا النصرِ الكبيرِ الذي طالما حلُمَ به، ويسجِّلُ أحداثَ المعركةِ بكلِّ حيادٍ وصدق، ويدوّن في مذكراتِه: «مَكْرُمةُ فتحِ بيتِ المقدس، لم يفعلْها بعدَ عُمر ابنِ الخطّاب، غيرُ صَلاحِ الدين».

بيتُ علمٍ وثقافة:

هو عزُّ الدين أبو الحسنِ عليُّ بنُ محمدِ بنِ عبدِ الكريم بنِ عبدِ الواحدِ الشّيباني، المعروفُ باسمِ «ابنِ الأثير الجزري»، المؤرخُ العالِم، وأشهرُ مَنْ ظهرَ من المؤرّخين المسلمين في القرونِ الهجريةِ السبعةِ الأولى.

ولدَ بجزيرةِ ابنِ عُمر، ناحيةَ الموصل عام ١١٦٠ م (٥٥٥ هـ)، في أسرةٍ من الأُسرِ العريقةِ بالموصل. أُسرةٌ عربيةُ الأصل، تنتسبُ إلى بَني شَيْبان، التي تمتدُّ في نسبِها إلى بني بكرِ بنِ وائلِ العربية.

وكما نشأَ ابنُ الأثير في أسرةٍ اشتُهرت بالعلمِ والثقافة، فقد عُرفتْ كذلك بالثَّراءِ والمكانةِ المرموقة، إذ كانت تمتلك العقارات، والأراضي الواسعة. وكان والدُ ابنِ الأثيرِ على جانبٍ كبيرٍ من الثراء، يملكُ عدةَ بساتينَ بقريةٍ تسمّى (العقيمة)، كذلك كان يملكُ قريةً في جنوبيّ الموصل. وإلى جانبِ وظائفهِ الحكوميةِ في جزيرةِ ابنِ عمر التابعة للموصل، كرئيسٍ لديوانها، وكنائبٍ لوزيرِ الموصلِ فيها، كان والدُ ابنِ الأثيرِ يعملُ في التجارة.

كان عزُّ الدين هو الأخُ الأوسطُ بين أبناءِ الأسرة، وقد اتَّجه أخواه، مجدُ الدين وضياءُ الدين، نفسَ الاتجاهِ الذي سلكَه والدُهما، فَعَمِلا في الوظائفِ الحكومية، بعكسِ ابن الأثير الذي آثرَ أن يختارَ لحياتِه طريقاً آخر.

وأُسرةُ ابنِ الأثير كانت لها مكانةٌ اجتماعيةٌ مرموقةٌ في الموصل، عندما انتقلت إليها من جزيرةِ ابنِ عمر. وكان يُنظرُ إليها باعتبارِها من الأُسرِ الموصليّة الكبيرة، ذاتِ المكانةِ والصّلاتِ الوطيدة بالحكّامِ والملوك. وفي الموصلِ كان بيتُ والدِ مؤرِّخنا، أشبهَ بالمنتدى الذي يلتقِي فيه كبارُ رجالِ المدينةِ من الأصدقاءِ والعلماءِ والأدباءِ وكبارِ الموظفين.

كان ابنُ الأثير يحضرُ مجالسَ أبيه، ويستمعُ إليه مُعْجَباً، وهو يتحدثُ إلى ضيوفِه عن ذكرياتِه عن ملوكِ الموصل الأوائل، وتواريخِهم وأعمالِهم العامة، ومسارِ حياتِهم الخاصة... كان ابن الأثير يستمعُ إلى ما يدورُ في مجلسِ أبيه، ويَخْتزنُ كلَّ ما تلتقطُه أُذُنُه من معلوماتٍ ومعارف، ثم ينصرفُ بعدَ ذلك ليدوِّنَها في أوراقِه حتى لا ينساها... وهكذا تكونت لديه بذرةُ المؤرخِ العالم.

وإذا كان ابنُ الأثير قد اختار، بعكس أخويه، أن يتفرغَ لعلمِ التاريخ، مبتعداً بنفسِه عن مشاكلِ الالتحاقِ بالوظائفِ الحكوميةِ والمناصبِ الرسمية، فقد كان لأخويه رغمَ هذا مكانةٌ ثقافيةٌ كلٌّ في تخصصِه. فالأخُ الأكبرُ مَجدُ الدين، كان قد تخصصَ في العلومِ الدينيةِ واللغوية، والأخ الأصغر ضياءُ الدين، كان قد اختارَ العلومَ الأدبية، وقد اشتهرَ كلٌّ في مَيدانِه شهرةً كبيرةً في عصرِه.

كانت هذه هي الأسرةُ التي نشأَ فيها ابنُ الأثير، وعاشَ بينها. وكانت لهذه النشأةِ آثارٌ كبيرةٌ على حياتِه بعد ذلك... ولكنَّ هذا لا يمكنُ أن ينسينا الأثرَ المهمَّ لعصرِه عليه... بكلِّ ما كان يَجري في ذلك العصرِ من أحداثٍ مهمّة، أثّرت تأثيراً كبيراً في الدولةِ الإسلاميةِ كلِّها.

عصرُ الصراعاتِ والتمزّق:

عاش ابنُ الأثيرِ فترةً تمتدُّ إلى ثَلاثةِ أرباعِ القرن، عاصرَ فيها الأحداثَ المهمةَ التي جَرت في العالم الإسلامي، مَشْرقِه ومَغربه.

في المشرقِ الإسلامي، كانت الصراعاتُ على أشَدِّها، بين الشعوبِ المختلفةِ التي تعيشُ في أقاليمِه، كالسّلاجقة، والخُوارِزْميين، والغُور، والغُزّ والدّز، والكرج. وقد بدأت هذه الصراعاتُ قبلَ مولدِ ابنِ الأثير بفترة، ثم استمرّت طَوالَ حياتِه.

كان الخوارزميون قد قَضَوْا على الممالِكِ الأخرى القويةِ حولَهم، وفي عهدِ علاءِ الدين خُوارزم شاه، كانت الأقاليمُ الواقعةُ شرقيَّ العراقِ تابعةً له تقريباً، مثلُ فارسَ وخُراسان وما وراءَ النهر. ورغمَ هذا فقد كان علاءُ الدّين محاطاً بالأعداءِ، يتربّصُ به الملوكُ والأمراءُ الذين سَلَبَهم ممالكَهم واماراتِهم.

وقد ظهرَ أثَرُ هذه العَدَاواتِ بوضوح عندما زحفَ التتار من ناحيةِ الصينِ غرباً. فاستفادَ التتارُ من تخاصُمِ الحكامِ المسلمين وتنافُرِهم، ولم يَجِدوا من يقفُ في وجهِ زحفِهم السريع.

أما في الجانبِ الغربيِّ من العالَمِ الإسلامي، في شَماليّ

أفريقيا والأندلس، فقد جَرت أحداثٌ لا تَقِلُّ في أهميتِها عما جَرَى في المشرق الإسلامي. كانت الحروبُ مشتعلةً بين المسلمين، المرابطِين والموحِّدين وبني مَرين وبني حَفْص. هذا بالإضافةِ إلى الغاراتِ التي قام بها المسيحيون على الساحلِ الافريقي.

وفي الأندلس، كانت المنافساتُ والصرّاعات بين المسلمين تُمزِّقُهم، مما أتاحَ للإسبانِ استردادَ أراضي الأندلس، حتى لم يبقَ للمسلمين منها، في عصرِ ابنِ الأثير، غيرُ بعضِ المدن.

وبين المشرقِ والمغرب، في الشامِ ومصر، كان الصراعُ على أشدِّه بين المسلمين والصليبيين. وقد وُلد ابنُ الأثير بعدَ دخولِ الصليبيين الشامَ واستقرارِهم فيها بخمسةٍ وستين عاماً. كان يسمعُ عنهم في صِغرِه، ثم أخذَ يعرفُ الكثيرَ عنهم كلّما تقدّمَ به العُمر. حتى جاءَ الوقتُ الذي خرجَ فيه إلى ميادينِ القتال، ليشاهدَ بنفسِه المعاركَ التي تَدورُ بين جيشِ صلاحِ الدينِ الأيوبي وبين الصليبيين، ثم بينهم وبين خلفاءِ صلاحِ الدين من الأيوبيين.

ومن الأحداثِ المهمةِ التي عاشَها ابنُ الأثير، وكان في وسطِ دوامتِها، سقوطُ الدولةِ الزِّنكية، التي أسَّسها عمادُ الدين زنكي عام ١١٢٧ م، وكانت تضمُّ الموصلَ إلى جانبِ جزءٍ من الجزيرة، والشام، ثم مصرَ كلَّها، سقوطُها على يدِ صلاحِ الدين الأيوبي بعد وفاةِ نورِ الدين بنِ علاءِ الدين. كما عاصرَ ابنُ الأثير الحروبَ التي قامت بين الأيوبيين بعضهم بعضاً، بعدَ وفاةِ صلاح الدين الأيوبي.

هكذا عاشَ ابنُ الأثير، وسطَ هذه الدوامةِ من الخلافاتِ والحروب بين الحكامِ المسلمين، ثم حروبِهم فُرادَى مع التتارِ من

ناحية، والصليبيين من ناحيةٍ أخرى. وقد تركَ هذا لدى ابنِ الأثيرِ شعوراً بالمرارةِ والحزنِ على الدولةِ الإسلاميةِ الكبرى. ومن هنا جاء نقدُه للملوكِ المسلمين، وتعليقاتُه اللاذعةُ على تصرفاتِهم.

دراسةٌ متواصلة:

قضى ابنُ الأثير طفولتَه وصباه في الجزيرة، قضاها كما يقضيها أبناءُ الأُسرِ البارزةِ هناك. وقد أتاحَ والدُه له ولأخوتِه حياةً سهلةً ميسورة، كما أتاحَ لهم فرصَ التعليم، حين ألحقَهم بادىء ذي بدءٍ بأحدِ مكاتبِ الجزيرة، كما كانت تقضي تقاليدُ ذلك العصرِ في تعليمِ الصبيان. والمكاتبُ هي حَلَقاتُ الدراسةِ الأولى التي كان الصغارُ يتلقَّون فيها مبادىءَ القراءةِ والكتابةِ ويحفظون القرآنَ الكريم.

وعندما انتهى ابنُ الأثيرِ من دراستِه الأولى، التحقَ بمدرسةٍ من مدارسِ جزيرةِ ابنِ عُمر، ثم انتقلَ إلى الموصل، يُحصِّلُ العلمَ على أيدي شيوخِها. وظلَّ ابنُ الأثيرِ يترددُ بين الجزيرةِ والموصل، حتى استقرَّ في نهايةِ الأمرِ بالموصل، فأقامَ بها إقامةً دائمة.

كانت الموصلُ في ذلك الوقت، تجمعُ العديدَ من الأسرِ العلميةِ الشهيرة، في كلِّ أسرةٍ منها شيوخٌ علماءُ يتخصصون في مختلفِ فروعِ العلم، من فقهٍ وحديثٍ وتفسيرٍ وأدبٍ ورياضيّات. وإلى جانبِ هؤلاء الشيوخِ المعلِّمين، كانت هناك المعاهدُ العلميةُ التي أنشأَها ملوكُ بني زِنْكي في الموصل. ولا ريبَ أن هذا الجوَّ العلميَّ قد حَفَزَ ابنَ الأثيرِ على الدرسِ والاطّلاعِ والتحصيل.

لم تقتصرْ دراسةُ ابنِ الأثيرِ على ما وجدَه من مصادرِ المعرفةِ في الموصل، بل كان ينتهزُ فرصةَ خروجِه إلى الحج، ليجتمعَ بشيوخِ بغداد، ويسمعَ منهم ويحفظَ عنهم، ويسجلَ ما أفادَه من معلوماتٍ ومعارفَ تفيدُه في دراستِه. كذلك كان يسعى إلى الشامِ ليجتمعَ بشيوخِهَا وعلمائِها.

هكذا، استطاعَ ابنُ الأثيرِ أن يستوعبَ الكثيرَ من المعارفِ في مختلِفِ الفروع، فدرسَ الحسابَ واللغةَ والحديثَ وغيرَها من العلومِ كالأصولِ والفرائضِ والمنطق. ومع هذا التنوعِ في العلومِ التي درسَها ابنُ الأثير، كان يهتمُّ بنوعين من الثقافة: الثقافةِ الدينية، واختارَ منها علمَ «الحديث»، وتخصصَ فيه حتى أصبحَ إماماً في حفظِ الأحاديثِ الشريفة، ومعرفةِ كلِّ ما يتعلقُ بها، ثم الثقافةِ الأدبية، واختارَ منها «التاريخ»، وتخصصَ فيه حتى أصبحَ حافظاً للتواريخِ القديمةِ والحديثة، وخبيراً بأنسابِ العربِ وأحداثِهم وأخبارِهم.

ومع مُضيِّ ابنِ الأثير في دراستِه، أحسَّ بانجذابٍ أكثرَ إلى علمِ التاريخ، وهو يقولُ في هذا: «أما بعدُ، فإني لم أزلْ محبّاً لمطالعةِ كتبِ التاريخِ ومعرفةِ ما فيها، مائلاً إلى المعارِف والآدابِ والتجاربِ المُودَعةِ في مطاويها».

وبالإضافةِ إلى هذا، كانت قراءاتُ ابنِ الأثيرِ الأدبية، نثراً وشعراً، كثيرةً وعميقة، جَعلت منه أديباً يُحْسنُ تذوّقَ العملِ الأدبي. وكان في كتاباتِه التاريخية، يسجلُ رأيَه النقديّ في كتاباتِ من يتكلمُ عنهم، سواء كانوا من الناثرين أو الشعراء.

مكانةٌ عالية في الموصل والشام:

دخلَ ابنُ الأثير طورَ الرجولة، واستطاعَ أن يُبَوّىءَ نَفْسَه مكانةً علميةً واجتماعيةً متميزةً بين معاصريه، سواء في الموصلِ أو الشام، أو في غيرِهما من البلادِ الإسلاميةِ العربية. وقد اكتسبَ ابنُ الأثير مكانتَه هذه، بالإضافةِ إلى علمِه، من انتسابِه إلى أسرتِه، ومن تكوينِه الشخصي، وليس عن طريقِ الوظائفِ الحكوميةِ التي يتولاها، أو المناصبِ الكبرى التي تُسندُ إليه.

فالثابتُ من دراسةِ تاريخِ ابنِ الأثير، أنه لم يَشْغَلْ وظيفةً رسميةً طوالَ حياتِه، وهو يوردُ في كتاباتِه ما يفيدُ تعلقَه بالعملِ العلمي، ثم كراهيتَه للوظائفِ الكبرى، وكان يشيرُ إلى ما ينالُ كبارَ الموظفين من اضطهادٍ على أيدي الملوكِ الذين يعملون في خدمتِهم. وكُلُّ ما يُعرفُ عن صلةِ ابنِ الأثيرِ بالأعمالِ المتصلةِ بالملوك، ما يقالُ من أنه كان يقومُ بالسّفارةِ بين ملوكِ الموصل، وبين حكامِ بغدادَ والشام.

كان بيتُ ابنِ الأثير عبارةً عن مَجْمعٍ لِخِيرةِ رجالِ الموصلِ وأفضلِهم، بالإضافةِ إلى غيرِهم من العلماءِ الذين يزورون الموصل. كان الجمعُ الذي يحتشدُ في بيتِ ابنِ الأثير يضمُّ الأدباءَ والشعراءَ والعلماءَ والفقهاءَ والرجالَ الصالحين. وكانت تدورُ في ندوتِه الأحاديثُ التاريخيةُ والسياسيةُ والأدبيةُ والدينية.

وقد انصبَّ اهتمامُ ابنِ الأثير الأكبر، في حديثِه مع زوارِ الموصلِ من الشَّخصيَّاتِ التي استضافَها في ندوتِه، على أحوالِ بلادِهم وأخبارِها. وكان يعتمدُ عليهم كمصادرَ مهمةٍ لتدوين أخبارِ

بلادِهم، يستخلصُ منهم تفاصيلَ ما يجري وما يحدث، ويضاهِي ويقارنُ بين مختلف الأقوالِ ليخرجَ في النهايةِ بالحقيقةِ التاريخيةِ الثابتة.

وفي الشام، كانت لابنِ الأثير نفسُ المكانةِ التي حظيَ بها في الموصل. فقد تردَّدَ عليها أكثرُ من مرةٍ منذ عام ١١٨٨ م (٥٨٤ هـ)، وحتى عام ١٢٣٠ م (٦٢٨ هـ). وكان سفرُه إلى الشامِ على أيامِ الأيوبيين، ونتيجةً لهذه الأسفارِ العديدة، استطاعَ أن يعقِدَ الصداقاتِ العميقةَ مع علماءِ الشامِ ورجالِها البارزين من أبناءِ الأسرةِ الأيوبية، وكبارِ موظفي حكومتِهم، فنال في الشامِ شهرةً عريضة، واشتُهرَ في الوسطِ العلميِّ كمحدثٍ ومؤرّخ.

وكان ابنُ الأثيرِ ينتهزُ فرصةَ وجودِه بالشامِ أيام صلاحِ الدينِ الأيوبي، ليخرجَ معه في غزواتِه لقتالِ الصليبيين، لا كمحارب، وإنَّما كمشاهدٍ ومُراقب. وقد أفادته رفقتُه لصلاحِ الدين، فَيسَّرت له وصفَ المعاركِ كما شاهدَهَا، وهكذا دوَّنَها في مرجعِه التاريخيِّ المعروفِ: «الكامل». وقد استوقفته بعضُ تصرفاتِ صلاحِ الدين الحربيةِ الخاطِئة، فَنقَدَها.

بين اليُسْرِ والعُسْر:

والمعلوماتُ عن حياةِ ابنِ الأثير الخاصةِ محدودة. قد نعرفُ مُجملَها، ولا نصلُ إلى تفاصيلها. فنحن نعرفُ أنه حجَّ إلى بيتِ الله أكثرَ من مرة. كانت رحلةُ الحجِّ الأولى عام ١١٧٧ م (٥٧٣ هـ). وكانت رحلتُه الثانيةُ إلى الأراضي المقدسة، في مقتبلِ عمرِه أيضاً، عام ١١٨٠ م (٥٧٦ هـ). أما الرحلةُ الثالثةُ إلى أراضِ

الحجاز، فقد جاءت في وقتٍ متأخرٍ من حياتِه، وقبلَ وفاتِه بعشرةِ أعوامٍ تقريباً. وكان ذلك في عام ١٢٢٣ م (٦٢٠ هـ). ويَذكرُ في هذه المرة، أن حاكمَ اليمنِ وصلَ مع عسكرِه إلى مكة، فنهبَها العسكرُ في يومِ وصولِهم.

وكان ابنُ الأثير يعيشُ حياةَ رَفَاهيةٍ منذ طفولتِه، وقد سَبَقَ أن أشرنا إلى ثراءِ والدِه وامتلاكِه البساتينَ والقرى في الموصل. ومن الواضحِ أن ابنَ الأثيرِ بقي يعيشُ حياةَ الثَّراءِ التي عَرَفَها في طفولتِهِ. فقد كان يقتني الجواري تَشبُّهاً بالأُسرِ الارستقراطيةِ بالموصلِ، وكان يشتريهنَّ من مختلفِ الجنسيات. اشترى جاريةً من الأَسرى الصليبياتِ عندما كان بالشام، كذلك يُحكَى أنه اشترى إحدى جوارِي الملكِ محمود الزنكي. غيرَ ان اهتمامَ ابنِ الأثيرِ بالجواري، كان يختلفُ عن نوعِ اهتمامِ أبناءِ الأُسرِ الثريةِ بهن، فقد كان يستقِي من الجواري الكثيرَ من المعلوماتِ التاريخية، والأخبارِ الخاصةِ ببلادِهن التي أَتَيْنَ منها.

لكن يبدو أن ابن الأثيرِ قد واجهتْه بعضُ المضايقات، والظروفِ الماليةِ القاسية، في أواخرِ حياتِه. فهو يقولُ في مقدِّمةِ كتابِه الشهير «الكامل»، إنه بعدَ أن جَمَعَ مادةَ الكتاب، أرجأَ إخراجَه، برغمِ إلحاحِ الأصدقاءِ عليه، لأن «العزمَ على إتمامِه فاتر، والعجزَ ظاهر، للاشتغالِ بما لا بدَّ منه لعدمِ المُعينِ والمُظاهِر، ولهمومٍ تَوالت، ونوائبَ تتابعت».

حَدَثان خَطيران

كما سبقَ أن قلنا، انفردَ ابنُ الأثيرِ كمؤرخ، بمعاصرتِه

لحادثين خطيرين حَدَثا في المنطقةِ التي يعيشُ فيها والمناطقِ المجاورةِ لها، هما: الحروبُ الصليبية، والغزوُ التتري.

ورغمَ أنه قد ظهرَ قبلَ ابنِ الأثير العديدُ من المؤرخين الذين تناولوا الحروبَ الصليبيةَ في كتاباتِهم، إلاَّ أن ابنَ الأثيرِ يُعتبرُ المؤرخَ الجامعَ للحروبِ الصليبية.

لم يعاصرِ ابنُ الأثيرِ الغارةَ الصليبيةَ منذ بدايتِها، وإنما عاصرَها بعدَ خمسٍ وستين سنة من استقرارِ الصليبيين في الشام، فهو قد وُلدَ عام ٥٥٥ هـ كما قلنا من قبل، بينما دخلَ الصليبيون الشامَ لأولِ مرةٍ في عام ٤٩١ هـ، وكانت معرفتُه بأخبارِ الغارةِ الصليبية ترجعُ إلى أيامِ طفولتِه، سَمِعَ بها من مجالسِ والدِه الخاصّة، عندما كان يُحدِّثُ أصحابَه عن ذكرياتِه بالنسبةِ لبني زنكي، وسياستِهم وحروبِهم ضدّ الصليبيين.

ثم أخذت معلوماتُه عن الحَمَلاتِ الصليبيةِ تزداد بمشاهداتِه حين شبَّ، وبعدَ أن سافرَ إلى الشامِ، حيث الصراعُ الحقيقيّ بين المسلمين والصليبيين، وحضرَ بعضَ المعاركِ التي قادَها ضدَّهم صلاحُ الدين الأيوبي. وقد استعانَ ابنُ الأثيرِ في تأريخِ الفترةِ التي لم يعاصرْها بالمصادرِ السابقة، ثم اعتمدَ فيما عدا ذلك على مشاهداتِه، وعلى معاصريه في الشامِ ممن استقى منهم معلوماتِه.

وقد وضعَ ابنُ الأثير تاريخَه للحملات الصليبيةِ بحيث يمكنُ تقسيمُه إلى أربعِ مراحل، تتميز كلُّ مرحلةٍ منها عن الأخرى، بالوضعِ الخاصِّ للمسلمين بالنسبةِ للصليبيين.

ففي المرحلةِ الأولى، يبدأُ دخولُ الصليبيين إلى الشام، من عام ١٠٩٧ م (٤٩١ هـ) وحتى عام ١١٢٦ م (٥٢٠ هـ). وهي مرحلةُ تَفوُّقِ جيوشِ الصليبيين، وهزيمةِ جيوشِ المسلمين. والسببُ في ذلك، كما قلنا، تفكُّكُ قوى المسلمين نتيجةً لخلافاتِهم، مما أتاحَ للصليبيين انتصاراً شاملاً عليهم. فاستولَوْا على الشام كلِّه ما عدا مدينةَ (عسقلان). وكذلك على الكثيرِ من البلادِ الداخليةِ في الجزيرة، ووصلوا إلى العريشِ على حدودِ مصر.

والمرحلةُ الثانية، وتبدأُ عام ١١٢٧ م (٥٢١ هـ)، وتنتهي في عام ١١٧٣ م (٥٦٩ هـ)، وفيها كانت الحملةُ الصليبيةُ الثانية. ومع هذا فقد كانت هذه المرحلة، مرحلةَ انتصارٍ للمسلمين، وضُعْفٍ لنفوذِ وقوى الصليبيين. وقد كانت اليَقَظةُ الإسلاميةُ في هذه المرحلة، على يد عمادِ الدين زنكي وابنِه نورِ الدين محمود. فقد استردَّ كلٌّ منهما كثيراً من البلادِ التي كانت في أيدي الصليبيين، وأهمُّها، مدينةُ (الرّها) التي كانت أولَ إمارةٍ صليبيةٍ أسسَها الصليبيون في الشام. كذلك استولى نورُ الدين محمودٌ على كلٍّ من دمشقَ ومصر، وبذلك منعَ سقوطَهما في أيدِي الصليبيين، لِمَا كانتا عليه من ضُعفٍ شديد.

أما المرحلةُ الثالثة، فتبدأُ عام ١١٧٤ م (٥٧٠ هـ) وتنتهي في عام ١١٩٣ م (٥٨٩ هـ)، وفي أثنائِها حدثت الحملةُ الصليبيةُ الثالثة. كان زعيمُ هذه المرحلةِ بلا جدالٍ صلاحَ الدين الأيوبي، وهكذا كانت مرحلةَ انتصارٍ للمسلمين، فقد استردَّ صلاحُ الدين من الصليبيين الكثيرَ من بلادِ الساحلِ التي كانت في أيديهم، كما استردَّ

بيتَ المقدسِ في عام ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ).

هنا، يظهرُ انفعالٌ حماسيٌّ في كتاباتِ ابنِ الأثير. يصفُ المعركةَ التي دَارت بين الطرفين، والتي أظهرَ كلٌّ منهما فيها أروعَ ما لَديه من فنونِ الحرب، والحماسةِ والصبرِ والقتال، والاستهانةِ بالحياة. وهو يصفُ حماسةَ الصليبيين، وتجمّعَهم من كلِّ مكانٍ لحربِ صلاحِ الدين، كذلك يصفُ حماسةَ المسلمين، التي تُنهي القتَال بسقوطِ بيت المقدس في أيديهم. وفي هذا يقولُ ابنُ الأثير: «... فعاد الإسلامُ هناك غضّاً طرياً، وهذه المكرمةُ من فتحِ بيت المقدس لم يفعلْها بعدَ عمرَ بنِ الخطاب، رضيَ الله عنه، غيرُ صلاحِ الدين، وكفاه ذلك فخراً وشَرفاً».

والمرحلةُ الرابعة، هي مرحلةُ خلفاءِ صلاحِ الدين الأيوبي، ما بين ١١٩٣ م (٥٩٠ هـ)، و١٢٣٠ م (٦٢٨ هـ). وهذه المرحلةُ تشبه، إلى حدٍّ بعيد، المرحلةَ الأولى، مرحلةَ انتصارِ الصليبيين وتفكّكِ المسلمين. فقد انشغلَ خلفاءُ صلاحِ الدين الأيوبي بالمنافساتِ التي بينهم، وبمطامعِهم في التوسع، فانقسمت الدولةُ الأيوبيةُ الموحَّدةُ إلى ممالكَ وإمارات، فانتهزَ الصليبيون الفرصة، وبدأُوا يستردّون كثيراً من البلادِ التي انتزعَها منهم صلاحُ الدين الأيوبي، ومن بينها مدينةُ بيتِ المقدس.

وهنا، ينفعلُ ابنُ الأثيرِ أيضاً، ويَسْخَطُ على موقفِ الحكامِ المسلمين في مواجهةِ هذا الخَطر، وفي هذا يقول: «... ولما استطالَ الفَرنْج ـ خَذَلَهم الله تعالى ـ بما يَمْلِكون من بلادِ الإسلام، واتّفقَ لهم اشتغالُ عسكرِ الإسلامِ وملوكِه بقتالِ بعضِهم بعضاً،

فتفرقت حينئذ بالمسلمين الآراء. واختلفت الأهواء، وتمزَّقت الأحوال».

غزوةُ التتار الدموية:

أمّا الغزوُ التتاري، فقد عاصره ابنُ الأثيرِ منذ بدايتِه عام ١٢١٩ م (٦١٦ هـ)، وقد توفي ابنُ الأثيرِ وما زالَ التتارُ يُحاربون البلادَ الإسلامية، يستولون على بعضِها، ويدمّرون بعضَها الآخر، حتى سقَطت بغدادُ في أيديهم عام ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ)، فكان في ذلك القضاءُ على الخلافةِ العباسية.

وتسجيلُ ابنِ الأثيرِ لتاريخِ الغزوِ التتاري لا يقلُّ رَوعةً عن تسجيلِه لتاريخِ الحروبِ الصليبية. وقد بَلَغت دقةُ هذا التسجيل حداً أثارَ إعجابَ معاصريه من المؤرخين.

كان الغزوُ التتاري صدمةً عنيفةً لابنِ الأثير، لما رآه من الفظائعِ التي ارتكبَها التتارُ من قتلٍ وتخريبٍ وتدميرٍ ونهْبٍ. وقد أسمى غزوة التتارِ في كتاباته «الحادثةَ العظمى والمصيبةَ الكبرى». وقد ترددَ ابنُ الأثيرِ طويلاً في تسجيلِ أحداثِ الغزوِ التتاري، استنكاراً لموقفِ الحكامِ المسلمين المتخاذلين، لكنه لم يجدْ بعدَ ذلك مَنَاصاً من تسجيلِ ذلك الحدثِ الخطير، وفي هذا يقول: «لقد بَقِيتُ عِدةَ سنينَ مُعْرِضاً عن ذكرِ هذه الحادثةِ استعظاماً لها، كارِهاً لذكرِها، فأنا أُقدّمُ إليه رِجلاً وأؤخرُ أخرى، فمن الذي يَسْهُلُ عليه أن يكتبَ نَعْيَ الإسلامِ والمسلمين، ومن الذي يَهُونُ عليه ذلك.. فيا ليت أمِّي لم تلدْني، ويا ليتني متُّ قبلَ هذا وكنت نَسْياً منسياً».

وفي كتاباتِه، يلخصُ ابنُ الأثير خبرَ خروجِ التتار من بلادِهم، ثم انتشارِهم في بلادِ الإسلام، وما ارتكبوه من الفظائع، وذلك قبلَ أن يذكرَ أخبارَهم متصلةً على مدى السنين. ومن هولِ الفظائعِ والجرائمِ التي ارتكبَها التتار، خشيَ ابنُ الأثيرِ أن يتّهمَه السلفُ بالمبالغةِ والاختلاقِ في وصفِه لوقائعِهم، فيقول: «وقد جَرى لهؤلاءِ التتار ما لم يُسمعْ بمثلِه من قديمِ الزمانِ وحديثِهِ، طائفةٌ تخرجُ من حدودِ الصين، لا تنقضِي عليهم سنةٌ حتى يصلَ بعضُهم إلى بلادِ ارمينيةَ من هذه الناحية، ويجاوزون العراقَ من ناحيةَ هَمَذان، وتالله لا أشكُّ أن يجيءَ بعدَنا، إذا بَعُدَ به العهد، ويرى هنا هذه الحادثةَ مسطورة، ينكرُها ويستبعدُها، والحقُّ بيدِه».

وكان مما يثيرُ غضبَ ابنِ الأثيرِ وحزنَه، أنه بينما كانت المصائبُ تتوالَى على العالمِ الإسلامي، التتارُ من ناحية، والصليبيون من ناحيةٍ أخرى، كان حكامُ الشرقِ والشام ومصر، متهالكين على ملذّاتِهم، مُنشغلين بخلافاتهم، وكأنَّ الأمرَ لا يَعْنيهم. وهو يُحمِّلُ السلطانَ علاءَ الدين خوارزم شاه، مسؤوليةَ نجاحِ زحفِ التتار عند أولِ خروجِهم من بلادِهم، لسوءِ سياستِه، وطمعِه في ممالكِ الملوكِ المسلمين المجاورين له.

كما أشار ابنُ الأثير إلى ما شاعَ في ذلك الوقت، من أن الخليفةَ العباسيَّ الناصرَ لدينِ الله، هو الذي استدعى التتار لمحاربةِ السلطانِ علاءِ الدين خوارزم شاه، الذي كان يطلبُ منه الاعترافَ به سلطاناً، وأن يُخطبَ له على منابرِ بغداد. وفي هذا يقول ابنُ الأثيرِ عن الخليفةِ العباسي: «وهو الذي أَطمعَ التتارَ في البلادِ

وأرسلَهم في ذلك، فهو الطامةُ الكبرى التي يصغُرُ عندَها كلُّ ذنبٍ عظيم».

وقد دَوَّنَ ابنُ الأثير أخبارَ الغزو التتاري، بوعْيٍ وفَهمٍ لتحرّكِهم، وسببِ انتشارِهم السريعِ في البلاد، وتنبّهَ إلى خطةِ التتار، عندما قسموا جيشَهم الكبيرَ إلى قسمين، قسمٍ خُصّصَ لفتحِ بلادِ تركستان وإقليمِ ما وراءَ النهر، وقسمٍ آخرَ خصصَ لفتحِ خُراسانَ والعراقَ غرباً.

وكان ابنُ الأثيرِ في كتاباته، يصفُ عملياتِ التتار الحربية، كما يصفُ قدرتَهم على تذليلِ الصعابِ في انتقالِهم من مكانٍ إلى مكان، ومقدرتِهم على حصارِ المدنِ المحصّنةِ حتى تسقطَ في أيديهم، كما يذكرُ استماتةَ المسلمين في الدفاعِ عن مدنهم. ومن هذا ما ذكرَه عما حدثَ للتتار عندما أرادوا أن يَعْبُروا نهرَ جَيْحُون من سَمَرْقَند إلى الضّفةِ الأخرى. لمَّا لم يَجدوا سُفناً يَعبُرون عليها: «. . . فَعلوا من الخشبِ مثلَ الأحواضِ الكبار، وألبسوها جلودَ البقَر، حتى لا يدخلَها الماء، ويضعوا فيها سِلاحَهم وأمتعتَهم، وألقوا الخيلَ في الماء وأَمسكوا أذنابَها، وتلك الحياضُ من الخشبِ مشدودةٌ إليهم، فكان الفرسُ يجذبُ الرّجل، والرجلُ يجذبُ الحوضَ المملوءَ من السلاحِ وغيرِه، فَعَبَرُوا كلُّهم دفعةً واحدة».

وقد اعتمدَ ابنُ الأثير في وصفِه للزحفِ التتاري، على المعاصرين من شهودِ العِيان، وعلى الرسائلِ التي تصلُ من البلادِ المغزوَّةِ إلى الموصل، ومنها مكاتباتُ التجارِ إلى عملائِهم أو أصدقائِهم فيها. كان يتلقّى شهاداتِ أبناءِ البلادِ التي يغزوها التتار،

والذين يَفِرّون من وجهِ الغُزاة، ويَصِلون إلى الموصل حيث يَلْتَقون به.

أخلاق كريمة:

ويتفقُ جميعُ الذين كَتبوا عن ابنِ الأثير، على أنه كان يتحلَّى بالأخلاقِ الفاصلة، والصفاتِ الحَميدة. فيقول معاصرُه المؤرخُ ابنُ خِلّكان، إنه عندما وجدَه في حَلَبَ كان «رجلاً مُكَمَّلاً في الفضائلِ وكَرَمِ الأخلاقِ وكثرةِ التواضع».

وكان ابنُ الأثير يكرهُ البُخلَ والبُخلاء، فيذكرُ عن منصور بنِ مروان ـ وكان صاحبَ ديارِ بكر، فأُقصيَ عن مُلْكِه وحُبسَ في بيتِ يهوديٍّ حتى مات فيه ـ إنه كان «شديدَ البخلِ، وله في البخلِ حكاياتٌ عجيبة». ثم يعلّقُ على ذلك بقوله: «فَتَعْساً لطالبِ الدنيا المُعرضِ عن الآخرة، أَلاَ ينظرُ إلى فِعلها بأبنائِها، بينما هذا منصورٌ ملكٌ من بيتِ مَلك آل أمرُه، إلى أن ماتَ في بيتِ يهوديّ؟.. نسأل الله تعالى أن يحسنَ أعمالَنا، ويُصْلحَ عاقبةَ أمرِنا في الدنيا والآخرةِ بمنِّه وكرمِهِ».

وقد كان ابنُ الأثير كريماً، من كرمِه أنه جعلَ بيتَه مأوىً للطلبة، فكان يُنْفقُ عليهم طولَ مدةِ إقامتِهم في بيتِه، ومع هذا فقد تعرّضَ ابنُ الأثيرِ لحملةٍ على أخلاقِه، واتهم بالتّبديد، وخيانةِ العهدِ على يدِ أحدِ المؤرّخين ويسمَّى القِفْطيّ.

لقد رأينا في سيرةِ ياقوت الحموي، أنه وهو يموتُ في الشام، أوصى بمكتبتِه الكبيرةِ وَقفاً على أحدِ المساجدِ في بغداد،

وعرفنا أنَّ أمْرَ تنفيذِ الوصيةِ أُوكِلَ إلى ابنِ الأثير. وكان اختيارُ ابنِ الأثيرِ لهذه المهمة، وايثارُه بتنفيذِ الوصية، سبباً في غيظِ القفطيّ وسُخطِه على ابنِ الأثير، فراحَ في تأريخِه لابنِ الأثير يَكيلُ له الاتّهام، قائلاً إنه لم يُنفّذ الوصية، بل تصرفَ في الكتب، ففرقَ بعضَها على أصحابِه.

غيرَ أن المؤرخين المعاصرين لابن الأثير لا يتّفقون مع القفطيّ في اتهاماتِه، فابنُ خِلّكان يقول إن ابنَ الأثيرِ سَلَّمَ المكتبةَ كاملةً إلى الوقف. ويمكنُ تفسيرُ هجومِ القفطيّ على ابنِ الأثير، بأنهما كانا على صلةٍ بحاكمِ حَلبَ طِفْرِيل. أما علاقةُ ابنِ الأثيرِ به فقد كانت علاقةَ صدَاقة، ولكنّ صلتَه بالقفطي كانت إلى جانبِ هذا صلةَ عَمل، حيث كان القفطيّ يعملُ رئيساً لديوانِ حلب. وكان طفريل أكثرَ ميلاً إلى ابنِ الأثير، كثيرَ الاقبالِ عليه، حَسَنَ الاعتقادِ به، ذلك لأنّ ابنَ الأثيرِ كان مُشتهَراً بالصَّلاحِ والتقوى، مما حبَّبَ طفريل فيه، وجعلَه يميزُه عن غيرِه من أصحابه.

ولعلَّ هذا هو الذي أوغرَ صدرَ القفطي على ابنِ الأثير، فناصبَه العَداءَ غَيْرةً وحسداً، ومن هنا كان اتّهامُه بتبديدِ الأمانةِ التي أُوكِلت إليه. كما أنه مما أثارَ حفيظةَ القفطي، أنَّ ياقوتَ الحموي أوصى بأن يقومَ ابنُ الأثيرِ بتنفيذِ وصيتِه، رغمَ الصلةِ الوثيقةِ التي كانت بين القفطي وياقوت الحمويّ. ولعلَّ هذا هو السببُ في أنَّ القفطي عندما كتبَ تاريخَ ياقوت الحموي، تحاملَ عليه هو أيضاً، وطعَنَهُ في خُلقِه، وصغّرَ شأنَه. هذا مع أن باقِي المؤرخين قد امتدحوا خُلقَ ياقوت الحموي، وقيلَ في ذلك: «إنَّ الناسَ كانوا

عُقَيْبَ وفاتِه يُثْنُون عليه، ويَذْكرون فضلَه وأدبَه».



وقبلَ وفاةِ ابنِ الأثير بسنتين، انتقلَ من الشام، عائداً إلى مسقِطِ رأسِه في الموصل، وبقيَ بها حتى أدْركته الوفاة في عام ١٢٣٢ م (٦٣٠ هـ)، بعد حياةٍ حافلةٍ بالعلم والعملِ والإنتاج. وفقدَ العالَمُ الإسلاميُّ بموتِه، أشهرَ من ظَهَرَ من المؤرخين المسلمين في القرونِ السبعةِ الهجريةِ الأولى، بعد ابنِ جَرِير الطبريّ.

وقد ظلَّ ابنُ الأثيرِ طيلةَ القرونِ التي تَلَت وفاتَه، وحتى اليوم، أي عَلى مَدَى سبعةِ قرونٍ ونصف تقريباً، مِلْءَ سمعِ وبصر المؤرخين والباحثين، وسيظلّ كذلك، ما بقي الاهتمامُ بالمؤرخين الإسلاميين الكبارِ في الشرقِ والغرب.

أعمالُه:

يقولُ ابنُ قُتَيْبة: «من أرادَ أن يكونَ عالماً فليطلبْ فناً واحداً، ومن أرادَ أن يكون أديباً، فَلْيتَّسِعْ في العلوم..»، وتخصُّصُ ابنِ الأثيرِ في التاريخ، لا يجعلُه مؤرخاً وحسب كغيرِه من المؤرخين، وإنما يجعلُه عالماً في التاريخ.

فابنُ الأثيرِ يمتازُ بميزةٍ لا نجدُها إلاَّ في قلةٍ قليلةٍ من المؤرخين الأُصَلاءِ السابقين عليه واللاّحقين له، وهي أنه لم يكن مجردَ مسجِّلِ أخبارٍ وأحداث، وإنما كان ناقداً ممتازاً، نَقَدَ أصحابَ مصادرِه، وناقشَ كثيراً من أخبارِهم، ونقد الشخصياتِ البارزةَ التي وَرَدت في الأخبار، كذلك انفعلَ مع الأحداثِ المهمة الخَطيرة، وأبرزَ انفعالاتِه بالنقدِ والتعليقِ والابتهالاتِ والدّعاء.

وقد قَدَّمَ لنا ابنُ الأثير بنفسِه مفهومَه للتاريخ، في مقدمةِ كتابِه «الكامل في التاريخ»، وذلك في ردِّه على الْمُنكِرين لفائدةِ التاريخ، والطاعنين فيه، فيقول: «... ولقد رأيت جماعةً ممن يَدَّعي المعرفَةَ والدّراية، ويظنُّ في نفسِهِ التبحّرَ في العلمِ والرواية، يحتقرُ التواريخَ ويزدريها، ويَعْرِضُ عنها ويُلْغيها، ظناً منه أن غايةَ فائدتِها

إنما هو القصصُ والأخبار، ونهايةُ معرفتِها الأحاديثُ والأَسمار، وهذه حالةُ مَن اقتصرَ على القِشرِ دونَ اللُّبِّ نظرُه. ومن رزقَه الله طبعاً سَليماً، وهداه صراطاً مستقيماً، علمَ أن فوائدَها كثيرة، ومنافعَها الدنيويةَ والأُخْرَويةَ جمةٌ غزيرة، وها نحن نذكرُ شيئاً مما ظهرَ لنا فيه».

ثم يذكرُ ابنُ الأثير فوائدَ علمِ التاريخ من الناحيةِ الدنيوية، من حيث حبُّ الإنسانِ للبقاء، ومن حيثُ استفادةُ المعاصرين من قراءةِ تاريخِ السابقين. كما أن الملوكَ والحكامَ إذا ما قرأُوا التاريخ، ورأَوْا ما جَرى لكلِّ طاغيةٍ من قبْلِهم، وما ألَمَّ به من سوءِ العاقبة، ارتدعوا، وراعوا الله في أعمالِهم ودنياهم. والتاريخُ في نظرِ ابنِ الأثير، وسيلةٌ لتراكمِ الخبرةِ بالحياةِ على مدَى الأجيال.

ثم يتطرقُ إلى الفوائِدِ الأخروية، التي تتصلُ بالحياةِ الأخرى، فيقولُ ابنُ الأثيرِ إنَّ العاقلَ إذا قرأَ التاريخ، ورأى تقلّبَ الدنيا، وعدمَ ثباتِها على حالٍ لأحدٍ من الخَلْق، زَهِدَ فيها وحَرَصَ على أن يكونَ في خُلقِه مُؤهَّلاً للآخرة، كما أن أصحابَ المُصابِ إذا رَأَوا ما جَرى لِمن قَبْلَهم، ولم يسلمْ منه نبيٌّ أو رسول، خفَّ في نظرِهم مُصابُهم.

مَنهجُه التاريخي:

ابنُ الأثيرِ من المؤرّخين الأُصلاء، ودليلُ هذا، أنه يَربطُ الأحداثَ المتقاربةَ والمتشابهةَ بعضَها ببعض، ويعللُ أسبابَها ونتائجَها، مثلُ ربطِه بين غاراتِ المسيحيين على المسلمين في الغرب، وغَزوِ الصَّليبيينَ للشَّام، وكذلك ربطِه بين التصرفاتِ السيئةِ

للخوارزميين وبين هزائمهم المتتاليةِ على يدِ التتار، وفي هذا يقولُ روزنثال أحدُ المؤرخين: «وقد بذلَ ابنُ الأثيرِ جُهدَه لمراعاةِ توازنٍ معقولٍ بين الأحداثِ في كافةِ أنحاءِ العالمِ الإسلامي.. أضفْ إلى ذلك أنه حاولَ إنصافَ الأحداثِ العجيبة، وتراجمِ الشخصياتِ البارزة، دونَ أن يبالغَ فيها. وعندما يقتربُ من عصرِه، يحاولُ تفصيلَ الأحداثِ التاريخية، ولكنْ دون إخلال، كما يُظْهِرُ لَمَحاتٍ من البصيرةِ التاريخيةِ الحقّة، فهو، مثلاً، يعتبرُ استيلاءَ الصليبيين على انطاكيةَ عام ١٠٩٨ م (٤٩١ هـ)، جزءاً من هجومِ ذي ثلاثِ شُعبٍ يَشُنُّه العالَمُ المسيحيُّ على العالَمِ الإسلامي، من إسبانيا وصقلية وقلبِ الإسلام».

ويدللُ روزنثال على بصيرةِ ابنِ الأثير التاريخيةِ فيقول: «ففيما يختصُّ بالحروبِ الصليبية، فابنُ الأثيرِ رَبَطَ بين الغزو الصليبيِّ للشام وبين استيلاءِ الإسبانِ المسيحيين على طُليطلة، واستيلاءِ المسيحيين على صقليةَ من المسلمين».

وقد أدى تفكيرُ ابنِ الأثير التاريخيُّ الواعِي إلى تفهمِه للأحداثِ وتعليلِها ونقدِها والتعليقِ عليها، وهو في كتاباتِه لا يكتفِي بالنقدِ التاريخي، بل يتجاوزُه إلى النقدِ السياسيّ والحربي. ومن مآثرِ ابنِ الأثير التاريخيةِ حَيْدَتُه في روايةِ الأحداث، حتى التي له صلةٌ وثيقةٌ بأصحابِها. ورغمَ أنه عاشَ هو وأسرتُه في ظلِّ الدولةِ الزّنكيّة، ورعايتها، فلم يمنعْه فضلُ الزنكيين عليه وعلى أسرتِه، من أن يدوّنَ تاريخَهم تدويناً أميناً، فمدحَ من كان أهلاً للمدح، وذمَّ من استحق الذم.

ولابن الأثيرِ خصائصُ مميَّزةٌ تُبْرِزُه كمؤرخٍ عظيم، منها اختيارُه لمصادرِه. . . فقد كان يتخيَّرُ المصادرَ الموثوقَ فيها، ولكن هذا لم يمنعْه كلّما لَزِمَ الأمرُ أن ينتقدَ مصدرَه حينما يعثرُ على خطأ في نصٍّ أوردَه. فمعْ تقديرِه الكبيرِ للطَّبري، لم يَحُلْ هذا دونَ أن ينتقدَه بشدةٍ عندما وجدَ بعضَ الأخطاءِ الواضحةِ في الأخبارِ التي أوردَها.

وقد تميَّزَ ابنُ الأثيرِ كمؤرخ، بتلخيصِ الخبرِ الذي ينقلُه من مصدرِه، فيحذفُ منه المعلوماتِ التي يرى أنها غيرُ ضروريةٍ بحسبِ تقديرِه، ويكتفِي باستخلاصِ المعلوماتِ الأساسيةِ التي يبني عليها خَبَرَه. وقد التزمَ هذا في مؤلفاتِه كُلِّها.

مؤلفاتُ ابنِ الأثير:

مؤلفاتُ ابنِ الأثير المعروفةُ كلُّها هي في التاريخ، وهي «الكاملُ في التاريخ»، و«التاريخُ الباهر»، و«أسدُ الغابةِ في معرفةِ الصَّحابة»، وأخيراً «اللُّبابُ في تهذيبِ الأنساب». وهذه الكتبُ الأربعةُ تستوعبُ الأنواعَ الأربعةَ للكتابةِ التاريخيةِ المعروفةِ قبلَ عصرِ ابنِ الأثير. التاريخُ العام يمثلُه كتابُ «الكامل في التاريخ»، وتاريخُ الدولِ والأُسرِ يمثلُه كتاب «التاريخ الباهر»، والتراجمُ الشخصيةُ يمثلُه كتابُ «أسد الغابة»، وتاريخُ الأنسابِ يمثلُه كتابُ «اللّباب في تهذيب الانساب».

الكاملُ في التاريخ:

في مقدِّمةِ هذا الكتاب، يوضِّحُ ابنُ الأثير عِشقَه للتاريخ،

وحبّه للاطلاعِ على المراجعِ التاريخية، ثم اكتشافَه لأربعةِ عيوبٍ فيها، مثلِ الطولِ المملِّ أو الاختصارِ المُخِلّ، ومثلِ الانشغالِ بصغائرِ الأمورِ دونَ الأحداثِ المهمة، ومثلِ اكتفاءِ المؤرخِ بكتابةِ تاريخِ زمانِه يضيفُه إلى مَن سبقوه إلى كتابةِ مرحلةٍ سابقة، دون أن يكونَ له جُهْدٌ في النظرِ إلى التاريخِ ككلّ، ومثل اقتصارِ المؤرّخِ الشرقيِّ على الكتابةِ عن الشرقِ ونفس الشيءِ بالنسبةِ للمؤرخِ الغربي، وهكذا يصعبُ على الدارسِ أن يُلمَّ في نظرةٍ شاملةٍ بتطورِ التاريخِ الشامل.

وكتابُ «الكامل في التاريخ»، باعتبارِه تأريخاً للعالَمِ الإسلامي، قد التزمَ فيه ابنُ الأثيرِ مَنهجاً خاصاً في تدوينِ الخبرِ وايرادِه، تخلّصَ فيه من العيوبِ التي وقعَ فيها مَن سبقوه من المؤرخين، وقد جَمَعَ فيه على حدِّ قوله «أخبارَ ملوكِ الشرقِ والغربِ وما بينهما»، وسَرَدَ فيه «الحوادثَ الكائناتِ من أولِ الزمانِ متتابعةً، يتلُو بعضُها بَعضاً إلى وقتِنا هذا». ومعنى هذا أنَّ الكتابَ يُغطِّي فترةً زمنيةً من التاريخِ الإسلامي، طولُها أكثرُ من ستةِ قرونٍ وربعِ القرن.

وقد استعملَ ابنُ الأثير، كمصادرَ لكتابِه هذا، كلَّ أنواعِ المصادرِ التي أُتيحت له: كالمصنَّفات، والوثائق، والنقوش، والآثار، والرسائلِ الشّخصية، والمعاصرين ممّن اتَّصلَ بهم، ومشاهداتِه هو بطبيعةِ الحال. وقد تخيَّرَ ابنُ الأثيرِ الموثوقَ فيه من المصادر، ومن بينها كتاباتُ الطّبري، والهَمَذاني، ومِسْكَوَيْه، وابنِ الجَوزي وهلالِ الصابي، وغيرِهم ممّن سبقَه من المؤرّخين.

التاريخُ الباهر:

والاسمُ الكاملُ للكتاب هو «التاريخُ الباهرُ في الدولةِ الأَتابكيّة»، والمقصودُ بالدولةِ الأتابكية، الدولةُ التي أسسها عمادُ الدين زنكي في الموصل، وقد أُطلقَ لفظُ (أتابَك) التركيُّ على عمادِ الدين بعد أن وَلِيَ أمرَ الموصل، ومعناه الوالدُ الكبير.

ويتضمَّن الكتابُ تاريخَ مُلوكِ الموصل، منذ أن أَسَّسَ عمادُ الدينِ دولتَه حتى وليِّ الملك القاهرُ مَسعود. وقد أظهرَ ابنُ الأثيرِ في مقدمتِه، علاقةَ أُسرتِه الوثيقةَ بملوكِ الموصل، وأشادَ بعدلِهم، وبجهادِهم ضدَّ الصليبيين.

وقد تجنَّبَ ابنُ الأثير، في هذا الكتابِ التوسعَ في أخبارِ الصراعِ بين الزّنكيين وبين صلاحِ الدين الأيوبي وخلفائِه، ذلك لأنَّ أخبارَ الصراعِ تُظهِرُ ضعفَ الزنكيين وهزائمَهم. وقد استفادَ من مادةِ هذا الكتابِ العديدُ من المؤرخين القدامى.

أسدُ الغابة:

واسمُه الكاملُ «أسدُ الغابة في معرفة الصحابة». وهو عن الصحابةِ الذين أسلموا رجالاً ونساءً في عهدِ النبي عليه الصلاةُ والسلام. ويرى ابنُ الأثيرِ أنَّ معرفةَ تاريخِ الصحابةِ ضروريةٌ للمسلمين، لأن «السُّنَةَ التي عليها مَدَارُ تفصيلِ الأَحكامِ ومعرفة الحلالِ والحرامِ إلى غيرِ ذلك من أمورِ الدين، إنما ثبتت بعد معرفةِ رجالِ أسانيدِها ورُواتِها. وأولُهم أصحابُ الرسولِ صلى الله عليه وسلم».

اللبابُ في تهذيبِ الأنساب:

وقد اقتصرَ فيه ابنُ الأثير على جُهدِ تصويبِ وتصحيحِ ما ورد في كتابِ «الأنساب» للسَّمْعَاني، ثم أضافَ إلى ذلك بعضَ الأنسابِ التي أغفلَها السَّمْعَاني.

ابن بطوطة

«الرحّالة الأمين»



هُوَ شمس الدين محمّد
ابن عبدالله
ابن محمّد بن إبراهيم
اللواتي الطنجي



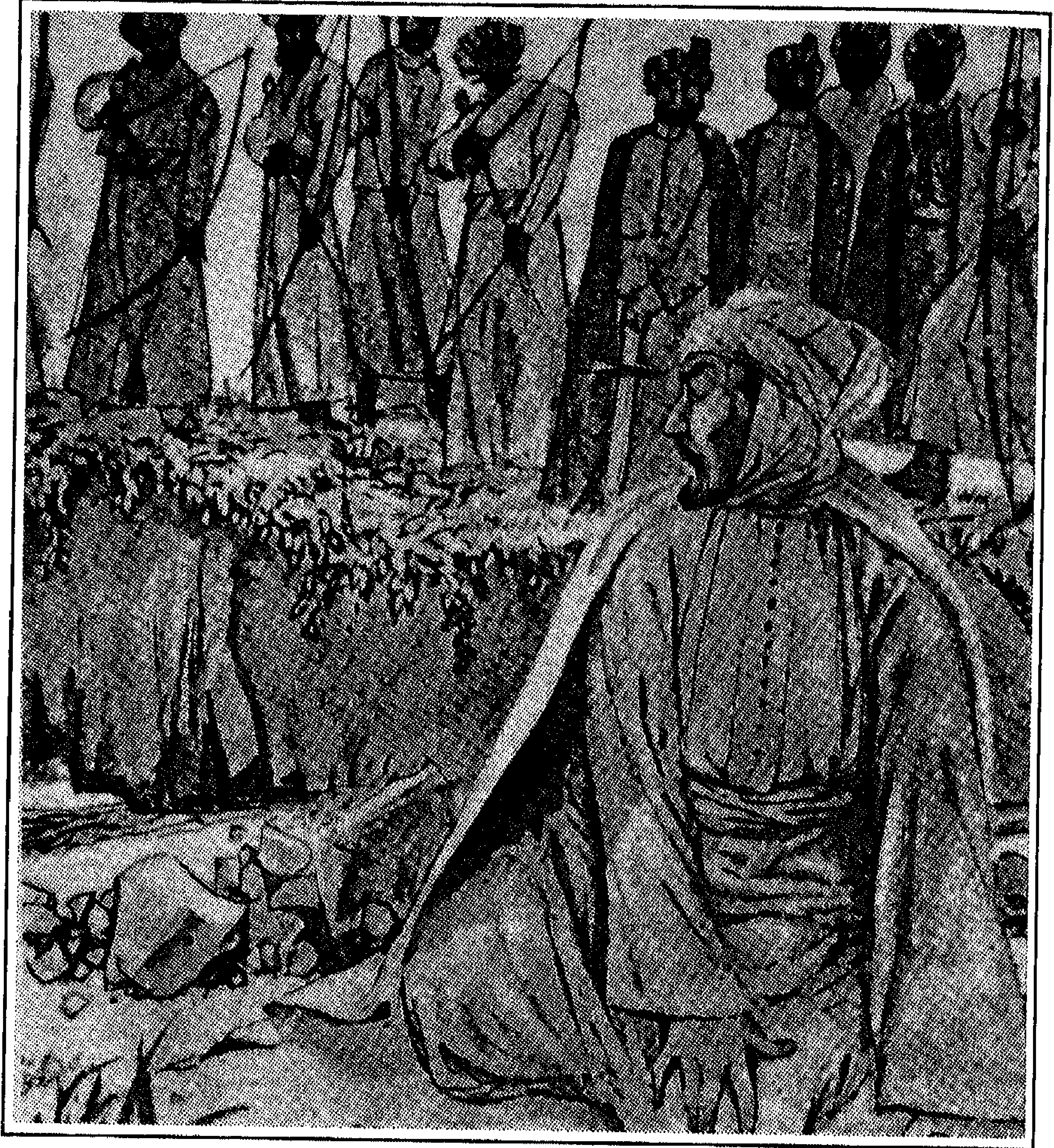
وصلَ ابنُ بطّوطة، في رِحلاتِه البعيدةِ إلى الهند، وأقامَ بها فترةً من الزمان. وذاتَ يوم، استدعاه سلطانُ الهند، وقال له: إنّما بعثتُ إليك لتتوجّه عني رسولاً إلى ملكِ الصّين، فإني أعلمُ حبَّك للأَسفارِ والتجْوال».



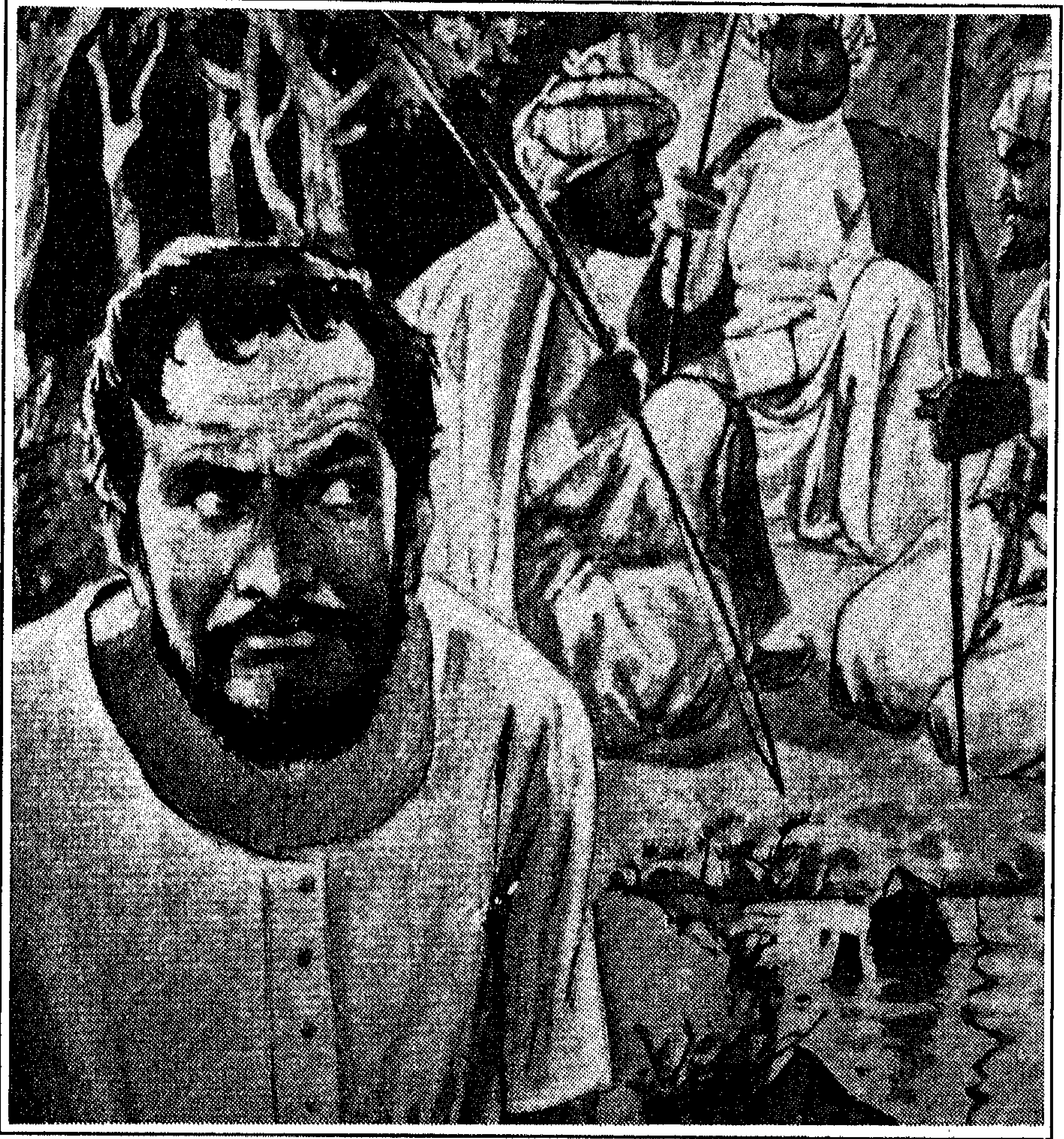
وافقَ ابنُ بطّوطة، فخرجَ الموكبُ من عاصمةِ الهند، يضُمُّ مائةَ فرس، ومائةَ مَمْلوك، ومائةَ جارية، وما لا حصرَ له من الهدايا القيّمة. مضى الركبُ في حمايةِ ألفِ فارسٍ من فُرسانِ السّلطان، يَحرُسونه بعضَ الطريق.



راحَ الركْبُ يتحرّك من مدينةٍ إلى أخرى، وبعدَ عدةِ أيام، توقفَ الجميعُ للراحة، دخلَ ابن بطّوطَةَ بستاناً قريباً، يستظلُّ بأشجارِه من قَيظِ الحر، ففوجىءَ بجمعٍ من أعداءِ السلطانِ يهاجمون المكان، مما اضْطَرَّه إلى الفِرَارِ بحصانِه. حتى وصلَ إلى خندقٍ كبير، فاختفى داخِلَه.



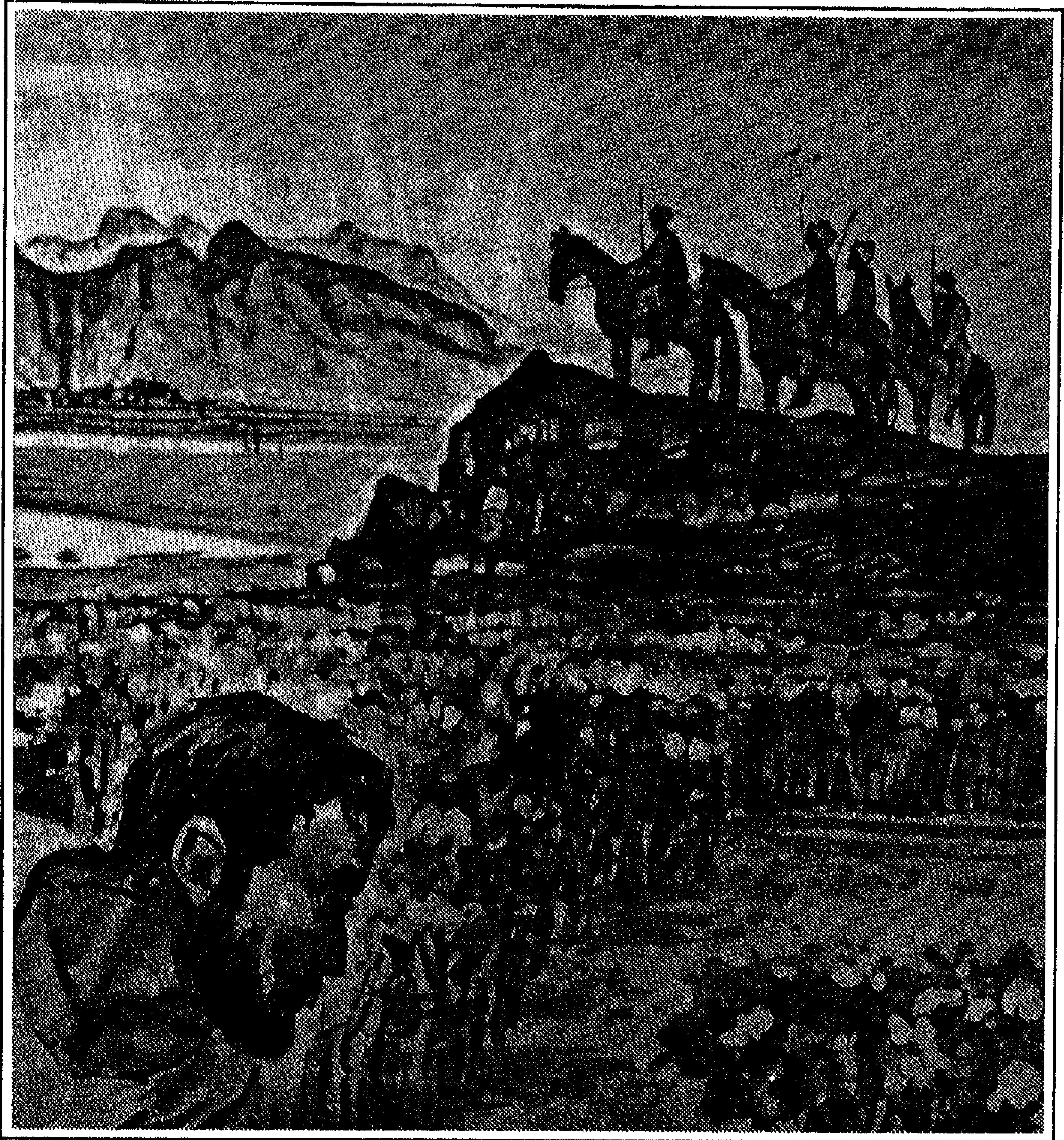
عندما أحسَّ بانصرافِ الأعداء، تحرَّك ابنُ بطّوطةَ من مكانِه، يبحثُ عن صحبِه، بين النباتاتِ والأشجار. فأبصر أربعين فارساً من الأعداءِ بأيديهم السِّهامُ والأقواسُ يُحيطونَ به. خافَ أن يُصيبوه، فسلَّمَ نفسه، مرجِّحاً أنهم لا يَقتلونَ مَن يسلِّمُ نفسه.



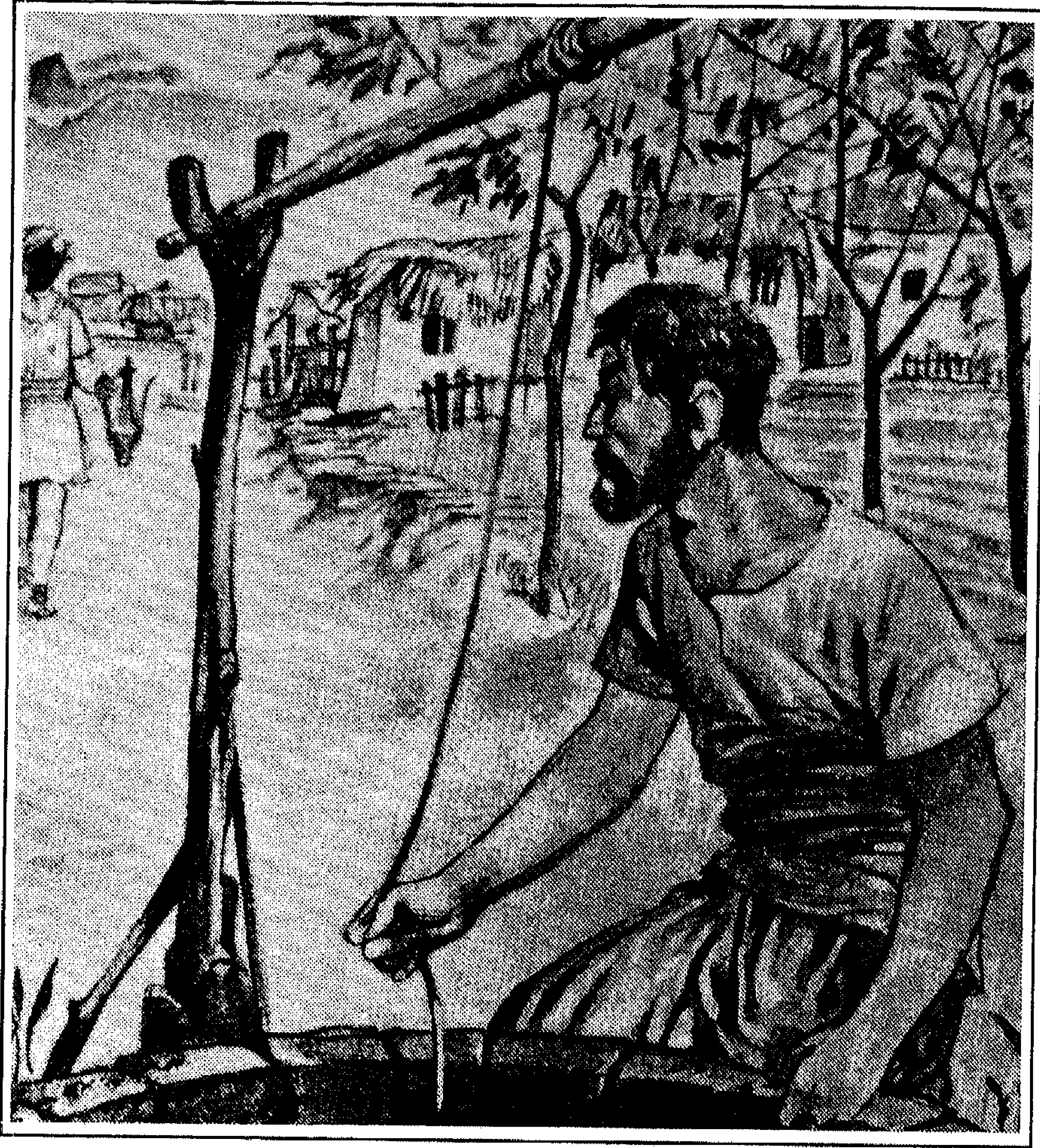
قبضَ الأعداءُ على ابنِ بطّوطة، وسلبوه ما كان معه من مال، وما كان عليه من مَلابس، وتركوه بما يستُره من ملبسٍ في حراسةِ ثلاثةٍ منهم، إلى جوارِ حوضِ ماءٍ بين تلك الأشجار. وفهِمَ من حركاتِهِم ونظراتِهِم أنهم مُوكّلون بقتلِه.



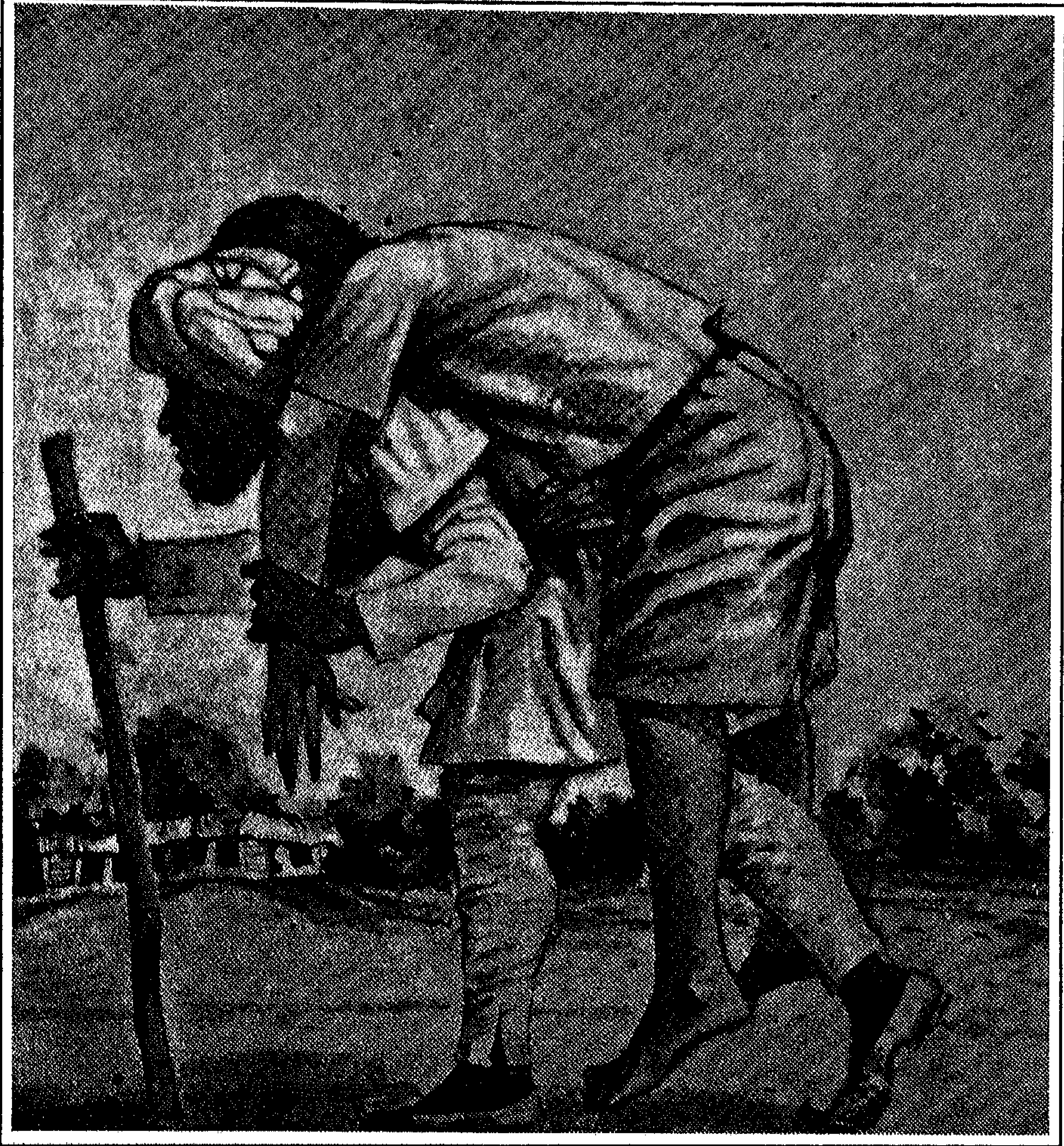
كان أحدُ هؤلاء الثلاثة، شاباً حسنَ الوجه، أشفقَ على ابن بطّوطة. سأله: أتريدُ أن أُسرّحَك؟، أجابَ ابنُ بطوطة ونفْسُه عامرةٌ بالأمل: نعم. فأشارَ إليه الشابُّ أن ينصرفَ في هدوء. أسرعَ ابنُ بطّوطة، فاختفى في حقلٍ من حقولِ قصبِ السكر، إلى أن غابت الشمس. فسلكَ طريقاً يتجنَّبُ به الأعداء.



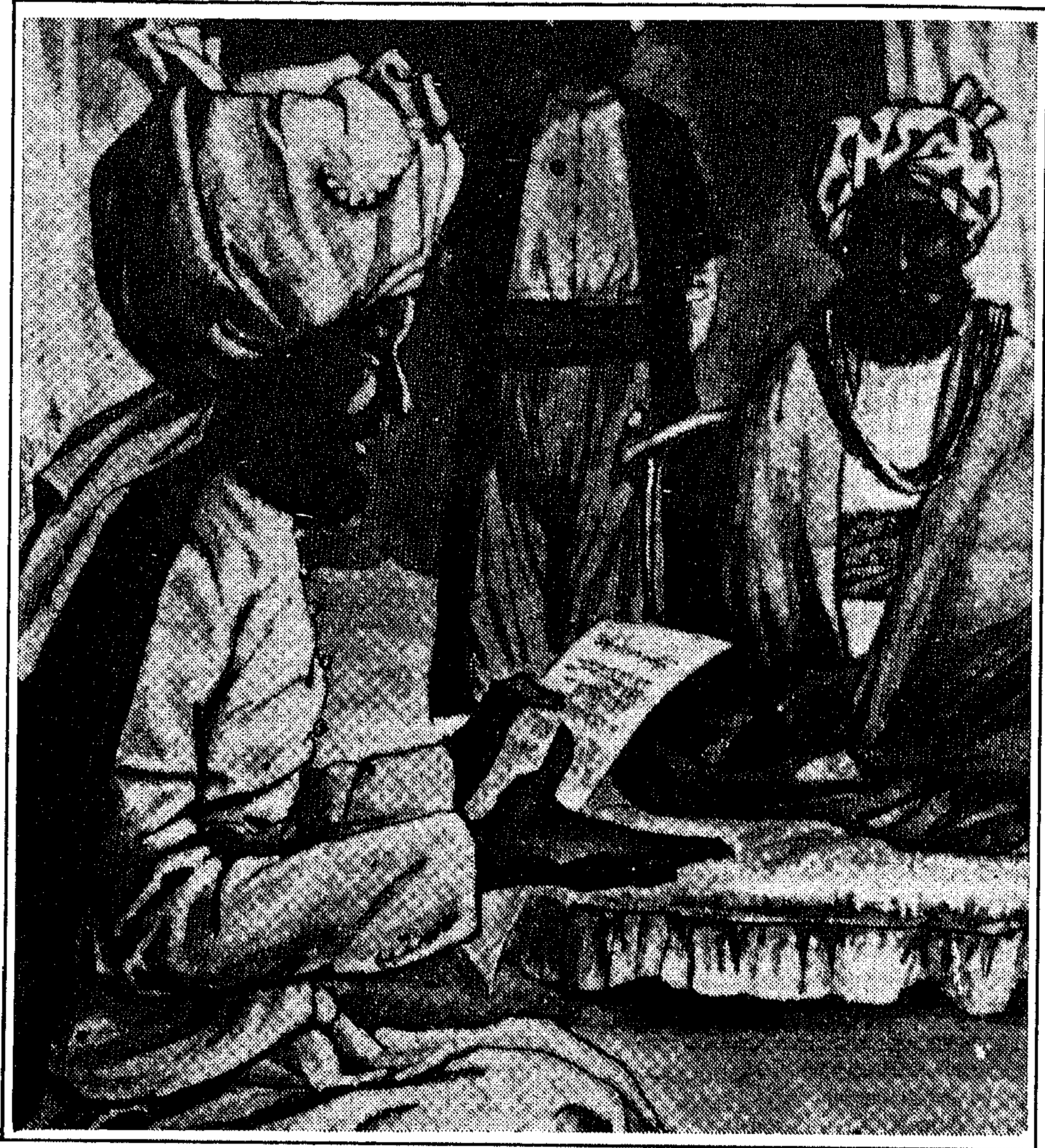
صَعِدَ الجبالَ وهبَط، واجتازَ السهول، يقتاتُ مما يَنبُتُ في الأرض، حتى وصلَ إلى بئر، فشرب، ورقدَ يستريح. حتى إذا مضَى بعضُ الوقت أفاقَ على مَقْدَمِ جمعٍ من فرسانِ الأعداءِ المدرّعين. فاختفى داخلَ حقلِ قُطنٍ قريب، وبقيَ في مكانِه يرقبُهم، وهم يشربون، ويغسِلون ثيابَهم، حتى انصرفوا، فواصلَ رِحلتَه.



في اليومِ الثامنِ لهروبِه، اشتدَّ به العَطَش، وعندما عَثَرَ على بئرٍ مهجورة، وجدَ أن حبلَها قصير لا يُدركُ الماء. وبينما هو يفكرُ في وسيلةٍ يَستقِي بها، أقبلَ عليه رجلٌ أسودُ اللونِ بيدِه إبريقٌ وعُكَّازٌ وقال مبادراً: سلامٌ عليكم. فانشرحَ قلبُ ابنِ بطّوطة أخيراً للقائِه برجلٍ مُسْلمٍ من أنصارِ السّلطان.



تكفَّلَ الرجلُ بابن بطّوطة. فسقاه وأطعمَه، وعَرَضَ عليه أن يصحبَه إلى قريةٍ عامرةٍ يسكنُها المسلمون رعايا السّلطان. حاولَ ابنُ بطّوطة أن يتبعَه، غير أنه أحسَّ بفتورٍ في أعضائِه، وسقطَ من فرطِ الإعياءِ مَغْشِيّاً عليه. حملَه الرجلُ على كاهلِه وسارَ به. وعندما أفاقَ ابنُ بطّوطة، لم يجدْ أثراً للرجل، ووجدَ نفسَه في وَسَطِ القريةِ التي وعدهُ بها.



سارعَ الناسُ فحملوه إلى بيتِ الحاكِم، فعالَجه وأطعمه وكساه، وجهزَه للسفرِ في حمايةِ من رجالِه، حتى لَحِقَ بموكبِ الصّين، ففرحوا به أشدَّ الفرح، وأرسلوا إلى السلطانِ يُبلّغونه الخَبَر. كانوا قد تَشاءموا من الرِحلة، وفكّروا في العودةِ إلى العاصمةِ، فأخذ يُحمّسُهم، ويَبُثُّ الأملَ في نفوسِهِم، حتى نجحَ في قصدِه، وواصلَ الركبُ طريقَه إلى الصين.

بدايةٌ مبكّرة

هو شمسُ الدينِ محمدُ بنُ عبدِالله بنِ محمد بنِ إبراهيم اللواتي الطَّنْجي... الذي عَرَفَه العالَمُ باسمِ «ابن بطّوطة». أكثرُ الرَّحالةِ العربِ شهرةً. وأبعدُهم انطلاقاً في رحلاتِه، زارَ أغلبَ بلادِ العالمِ القديم، على مدَى ما يَقرُبُ من ثلاثين عاماً. وعادَ إلى بلاَدِهِ ليسجِّلَ ملاحظاتِهِ على تلك الرِّحْلات، التي أفادَتْ علمَ الجغرافية، بما جاءَ فيها عن أوصافِ البيئةِ الطبيعيةِ والتّضاريس، والجغرافية البشريّة، والسكّان، والعادات والتقاليد.

وُلِدَ ابنُ بطُّوطةَ بمدينة «طَنجة» في الطرفِ الشماليّ من الساحلِ الأفريقيّ المطلّ على المحيطِ الأطلسيّ، على الضَّفّةِ الجنوبيةِ لمضيقِ جبلِ طارق، الذي يفصِلُ بين القارّتين الأفريقيةِ والأوروبية. كانت ولادتُهُ في ٢٤ شباط (فبراير) عام ١٣٠٤ م (١٧ رجب ٧٠٣ هـ)، من أُسرةٍ معروفةٍ بالعلمِ والتديّنِ والإفتاء، تنسبُ إلى قبيلةٍ تعرفُ باسمِ «لِوَاتة»، أصلُها من (بُرْقة) إحدَى ولاياتِ ليبيا، وإن انتشرتْ على طولِ الساحلِ الأفريقي، من ليبيا إلى المحيطِ الأطلسيّ. وقد تولّى الكثيرُ من أفرادِ أُسرةِ ابن بطّوطة

منصبَ القَضاء، واشتُهِرَ من بينِهم ابنُ عمٍّ له، عملَ قاضياً بالأندلسِ العربيةِ الإسلاميّة.

تعلَّمَ ابنُ بطّوطةَ كما يتعلمُ أبناءُ الأُسرةِ الكبيرة، علومَ الدين والفقهِ واللّغةِ وحَفِظَ القُرآن. وكانوا يُعِدّونه بذلك لمنصبِ القضاءِ جَرْياً على تقاليدِ الأُسرة. إلا أنَّ القدَرَ كان يرسُمُ له غيرَ ذلك المستقبل.

بدأَ تاريخُ ابنِ بطّوطَة الحقيقي، عندما بلغَ الحاديةَ والعشرينَ مِنْ عُمْرِه، وتكشَّفت طبيعتُه عن حبٍّ لا يقاوَمُ للسفرِ والتَّرحال. وكانت البدايةُ عندَمَا اتخذَ قرارَه بالحجِّ إلى بيتِ الله، وزيارةِ قبرِ الرسولِ عليه الصلاةُ والسلام. كان الحجُّ من مدينةٍ في أقصَى الغربِ كطنجةَ في ذلك الوقت، مخاطرةً حافلةً بالمشاقِّ والمغامرات. غيرَ أنَّ هذه المشاقّ، كانت عندَ ابنِ بطوطة حافزاً قوياً للتَّرحال، تَحدوه سِيرُ كبارِ الرَّحالةِ العربِ الذين سَبَقوه أو عاصروه.

فقد ظلَّ العربُ منذ فجرِ الإسلامِ وحتى القرنِ الخامسَ عشرَ الميلاديّ، هم الطليعةُ في ميدانِ الرحلاتِ والاكتشافات، إلى حينِ أن انطلقت من أوروبا حركةُ الاستكشافاتِ الحديثةُ على يدِ هنري الملاّح، وبارتولوميودياز، وفاسْكو دي جاما، وكولومبس، وماجِلان.

وقد توسَّعَ العربُ في رِحلاتِهِم، حين اتَّسعت رُقعةُ الإسلام، وتشعّبت سُلطةُ الخِلافةِ بين الملوكِ والأمراء، وحين استقلَّ بعضُهم بحكمِ ما وُلّيَ من البلاد، انصرفت عنايةُ الخلفاءِ حينئذٍ إلى توثيقِ

روابطِ المودّةِ بين أولئك الأمراءِ لِيقْدِرُوا على صدِّ غاراتِ مَن يناوئُهم من الأعداء، وقمْعِ ما يحدثُ من الفتنِ والاضطرابات داخلَ البلاد، وكانت أداةَ الخلفاءِ في الاتصال بهؤلاء الملوكِ والأمراء، الرحالةُ العَرَبُ الذين ذَاعَ صيتُهُم على مَدَى القرون. من أمثالِ ابنِ خُرْدَاذْبه واليَعقوبيّ وقُدَامة والبَلخّي وابنِ حَوقَل.

غيرَ أن الرحالةَ العربَ تجاوزوا هذه المهمةِ بعد ذلك، فلم يقتصرْ سفرُهم على البلادِ الإسلاميةِ وحدَها. وامتدَّ نشاطُهم إلى الممالكِ الأجنبيةِ المتاخمة، فجابوا أقطارَ الأرضِ شَمالاً إلى بلادِ الفِرَاء، وطلبوا المعادنَ في الجنوبِ حتى مقاطعاتِ النُّوبة، ووصلوا غرباً إلى جبلِ طارق، وارتحلوا إلى أقصَى الشرقِ طلباً للحريرِ والعاجِ والتّوابل. إلى جانبِ هذه الأغراضِ التجارية، أسفرت تلك الرِحلاتُ عن عددٍ من المراجعِ الجغرافيةِ المهمة، مثل معجمِ البلدانِ لياقوت الروميّ، وعجائبِ البلدان لأبي دُلَفِ بنِ مُهَلهَلِ الشاعر، ومروجِ الذهبِ للمسعودي، والمسالكِ والممالكِ لأبي عبيد البكرِي الأندلسي، ورحلةِ ابن جُبير، والمغرب لأبي سعيدٍ المغربي.

وقد بَلغت رحلاتُ العربِ أوجَها في القرنِ الرابعَ عَشَر الميلاديّ، ذلك القرنُ الذي وُلِدَ وعاش فيه ابن بطّوطة. ففي ذلك القرنِ ارتحلَ ابنُ جابرٍ والبَلَويّ ومحمدُ بنُ قُو سلطان مالي، وقد قامَ الأخيرُ برحلة جريئةٍ في خضمِّ المحيطِ الأطلسيّ.

وهكذا.. شبَّ ابنُ بطّوطةَ ليسمعَ ويطالعَ عن هذه الرحلاتِ العجيبة، وتنمو داخلَه رغبةٌ قوية، في اقتفاءِ أثرِ من سبقوه من

الرَّحالة العرب. . وكانت البدايةُ المبكرةُ عندما اتخذَ قرارَ الحجِّ إلى بيت الله.

كان قرارُ الارتحالِ هذا شاقاً على أهلِه، كما كان شاقّاً عليه نفسِه. فقد كان ابنُ بطوطةَ يعيشُ بين أهلِه وذويه في بَسْطةٍ من العيشِ، حياةً مستقرةً مُطْمئنّة. وكان هو بصفةٍ خاصة، يتميزُ برقّةِ العاطفةِ والتقوَى والتعلقِ بالوالدين، وفي هذا يقول «فحَزَمت أمرِي على هجرِ الأحبابِ من الإناثِ والذّكور، وفارقت وطني مفارقةَ الطيورِ للوُكور، وكان والداي بقيدِ الحياةِ فتحمّلت لبعدِهما وَصَبا، كما لقيا من الفِراقِ نَصَباً».

مِن طنجةَ إلى مصر

بدأ ابنُ بَطّوطةَ رحلتَه الأولى بالخروجِ من طنجَة وحيداً بلا رفيقٍ يؤنسُ وَحْدَتَه في شهرِ حزيران (يونيو) عام ١٣٢٥ م (رجب ٧٢٥ هـ)، قاصداً الحج. وكان أولُ وصولِه إلى مدينة (تِلمسان)، حيثُ التقى برسولين لملكِ تونسَ يتهيآن للعودةِ إلى بلدِهما، فآثرَ صُحبتَهُما. وفي الطريقِ يُتَوَفّى أحدُ الرسولين، قبل أن يَصِلوا إلى مدينةِ (الجزائر)، فتنقبضُ نفسُ ابنِ بطّوطة لهذه البدايةِ المحزنة، غير أن عزمَه الأكيدَ على مواصلةِ الرحلة، دفعَه إلى مواصلةِ السير. حتى إنه عندما مرضَ مرضاً شديداً قبل الوصولِ إلى تونس، وأصابَه الدُّوارُ من فرطِ الحُمّى، رَفَضَ التخلفَ عن الركْب، وطلبَ إلى أصحابِه أن يربِطُوه إلى سرجِ الحصانِ بشالِ عمامتِهِ حتى لا يسقطَ أثناءَ عَدْوِ الحِصَانِ السّريع، الذي يُضطرون إليه خوفاً من لحَاقِ العِصَاباتِ المتربصةِ بالطريق.

وتونسُ هي أولُ البلادِ التي يذكرُ ابنُ بطوطةَ عنها شيئاً في رِحلتِه، مدنِها وأهلِها، وقد وصلها في عهدِ السلطانِ أبي يحيى الحَفْصي. بقي ابنُ بطّوطةَ في تونسَ حتى تهيأ ركبُ الحجِّ

التونسي، فانضمَّ إليه، وقد اختارَه الركبُ رغمَ صِغَرِ سنِّه قاضياً له.

ويصفُ ابنُ بطوطةَ رحلتَه من تونسَ إلى الإسكندرية، فيقول إنّهم وَصَلوا إلى مدينةِ (سُوسَة)، ثم (صُفَاقِس)، فمدينةِ (قابس)، التي اضطُرَّ الركبُ إلى الإقامةِ بها عَشَرةَ أيام نتيجةً لهطولِ الأمطارِ الغزيرة. وما أن اعتدلَ الجوّ، حتى واصلوا السفرَ إلى مدينةِ (طَرَابُلس) بصحبةِ مائةِ فارسٍ أو أكثرَ لحمايةِ الركبِ من هَجَمات عِصَابات اللّصوص. وبعدَ مُغَامراتٍ متواصلةٍ مع هذه العصابات، يصلُ الركبُ إلى مدينةِ (الإسكندرية)، فيصفُها قائلاً: «هي الثغرُ المَحروس، والقُطْرُ المأنوس، العجيبةُ الشّأْن، الأصيلةُ البُنيان، بها ما شِئت من تحسين وتحصين، ومآثرِ دُنيا ودين».

ويروحُ ابنُ بطّوطةَ يصفُ معالمَ المدينة، فيتحدثُ عن ابوابِها الأربعة، وعن المنار، وعمودِ السَّواري، وعن عُلمائِها، ويلتقطُ الحكاياتِ من أفواهِ أهلِها، ليسجّلَها حكايةً وراءَ الأخرى. ثم يخرجُ من الإسكندريةِ صَوْبَ (دَمَنْهُور)، ثم (فوة) من مدن دَلْتا النيل، ويتحدثُ عن زاويةٍ لشيخٍ صالحٍ اسمُهُ أبو عبدِالله المُرشِدي، ويذكرُ حُلماً رآه أثناءَ مبيتِهِ بالزاوية، فيقول: «رأيت ليلتي تلك، كأني على جناحِ طائرٍ عظيمٍ يطيرُ بين سَمْتَ القِبْلة، يَتَيامَنُ ثم يُشرّق، ثم يذهبُ في ناحيةِ الجنوب، ثم يُبعِدُ الطَّيرانَ في ناحيةَ الشرقِ، وينزلُ في أرضٍ مُظلِمةٍ خضراء، ويتركُني بها»، يَقُصُّ ابنُ بطّوطة هذه الرؤيا على الشيخِ طالباً تفسيرهَا، فيقول: «سوف تَحِجُّ وتزورُ النبيّ، وتجولُ في بلادِ اليمنِ والعراقِ وبلادِ التّرك وبلادِ الهند، وتبقَى بها مدةً طويلةً، وستلقَى أخِي دَلْشادَ الهندي، ويخلّصُكَ من

شدةٍ تقعُ فيها». ويعقّبُ ابنُ بطّوطةَ على هذا التفسيرِ قائلاً: «ومنذُ فارقتُه لم ألقَ في أسفارِي إلاَّ خيراً، وظَهرت عليّ بركاتُه». وقد ذَكَرْنا هذه الواقعةَ لندلّلَ على مدَى عِشقِ ابنِ بطوطةَ للتَّرحال. ذلك العشقُ الذي غَلَبَ عليه ساعاتِ نهارِه وليلِه.

قبلَ أن يصلَ ابنُ بطّوطةَ إلى القاهرة، يقومُ بجولةٍ واسعةٍ في مدنِ الدَّلتا، فيمرُّ على (أبيار) ثمَّ (المحلَّة الكُبرى)، ويصعَدُ شمالاً إلى (بلطيم) على ساحلِ البحرِ الأبيضِ المتوسّط، ومنها يسافرُ إلى (دُمْيَاط). ويقولُ في وصفِ هذه المدينة: «... وغنمُها سائمةٌ هَمَلٌ بالليلِ والنَّهار، ولهذا يقالُ في دمياط: سورُها حَلْوَى، وكلابُها أغنام».

يهبطُ ابنُ بطّوطة على فَرعِ دُمياطَ بالنيل، مَارّاً على (فارسكور)، ثم (سَمَنُود) حتى يصلَ إلى القاهرة، التي تَبْهرَهُ باتساعِها وحضارتِها وتعدُّدِ سكانِها فيقول: «وهي أمُّ البلاد، وقرارُ فِرْعون ذي الأوتادِ، ذاتُ الأقاليم العريضة، والبلادِ الأريضة، المتناهيةُ في كثرةِ العَمَارة، المتباهيَةُ في الحسنِ والنَّضارة.. تَمُوجُ موجَ البحرِ بسكانِها، وتكادُ تضِيقُ بهم على سَعَة مَكَانِها.. ويقال إن بمصرَ من السّقّائين على الجِمَالِ إثنيْ عشرَ ألفَ سَقَّاء، وإن بها ثلاثين ألفَ مُكَارٍ (سائق حمار)، وإنَّ بنيلِها من المراكبِ ستةَ وثلاَثِينَ ألفاً للسلطانِ والرّعِيّة».

بعد هذا الوصف، يتكلمُ بالتفصيلِ عن مَسَاجِدِ القاهرةِ ومدارسِها ومستشفياتِها، ثم يصفُ مقابرِ القاهرةِ ومقاماتِ شيوخِها، ويتطرقُ إلى وصفِ النيلِ وأهرامات الجيزَةِ. يغادِرُ ابنُ بطّوطة

القاهرة، إلى الجنوبِ ماراً بِمُدنِ الصعيد، مدينةً مدينَة، متحدثاً عن كُلٍّ منها بإسهاب، مستعرضاً أهمَّ معالِمها وأشهرَ مَن بها من الناس، حتى يصل إلى مدينةِ (أدْفو)، فيرتحلُ عبرَ الصحراءِ الشرقية، متّجهاً إلى البحرِ الأحمر، مستهدفاً الإبحارَ من هناك إلى (جُدّة). لكنّه ما يكادُ يَصِلُ إلى مدينَةِ (عَيْذاب)، حتى يجدَ أنَّ قبائِلَ «البُجَاة» الإفريقيةَ قد تمرَّدت على الأتراك، وقطَعت الطريقَ على الحِجَاز، فيعودَ مرةً ثانيةً إلى القاهرة، ليقيمَ بها ليلةً واحدة، يخرجُ بعدَها إلى الشام، مُنتوياً السفرَ إلى بيتِ الله عن طريقِها.

رِحلةُ الشام

يصلُ ابنُ بطّوطةَ إلى الشام، وفي انتظارِ خُرُوجِ الركبِ إلى الحِجَاز، يقومُ بجولةٍ واسعةٍ يزورُ فيها أغلبَ مدنِ الشام «فلسطين - الأردن - لبنان - سوريا». (يزورُ بيتَ المقدس)، ويصفُ المسجدَ الأقصى وقُبَّةَ الصّخرةِ وبعضَ المشاهدِ المباركةِ بالقدسِ الشّريف. ثم يزورُ (الرّملة)، و(عَسْقلان)، و(صُور)، و(صيدا)، وبيروت)، و(طرابُلس)، على شاطِىء البحرِ الأبيضِ، حتى يصلَ إلى مدينةِ (أنطاكية) و(حلب)، شمالاً.

بعد هذه الجولةِ يصِلُ ابنُ بطّوطةَ إلى (دمشق)، وفي هذا يقول: «ودمشقُ هي التي تَفْضُلُ جميعَ البلادِ حُسناً وتتقدمُها جمَالاً. وكُل وصفٍ وإن طالَ فهو قاصرٌ عن محاسنِها». ويصفُ جامعَ دمشقَ المعروفَ بالجامعِ الأمويِّ فيقول: «وهو أعظمُ مساجدِ الدّنيا احتفالاً، وأتقنُها صِناعة، وأبدعُها حُسناً وبهجةً وكمالاً، ولا يُعلَمُ له نظير، ولا يوجدُ له شَبيه.. ولهذا المسجدِ حَلَقَاتُ التدريسِ في فنونِ العِلم.. وقُرّاءُ القُرآن، يقرءون بالأصواتِ الحسنةِ صباحاً ومَسَاء.. ومعلّمُ الخَطِّ غيرُ معلِّم القرآن، يعلّمُهم بكتبِ

الأشعارِ وسواها، فينصرفُ الصبيُّ من التعليمِ إلى التكتيب».

وفي دمشقَ يحضرُ ابنُ بطوطةَ انتشارَ وباءِ الطّاعون، فيقول: «شاهدت أيامَ الطاعون الأعظمِ بدمشقَ في أواخِرِ شهرِ ربيعِ الثاني سنةَ تسعٍ وأربعين». ويَحكِي أنه في تلك الأيام، وبعدَ انتشارِ الوَبَاء، أمرَ كبيرُ الأمراءِ نائبُ السلطان، أن يصومَ الناسُ ثلاثةَ أيام: «فصَامَ الناسُ ثلاثةَ أيامٍ متواليةٍ كان آخرَها يومُ الخميس، ثم اجتمعَ الأمراءُ والشرفاءُ والقضاةُ والفقهاءُ وسائرُ الطبقاتِ على اختلافِها في الجامع، حتى غَصَّ بهم، وباتُوا ليلةَ الجمعةِ به، بين مصلٍّ وذاكرٍ وَدَاع، ثم صَلّوا الصبحَ وخَرَجوا جميعاً على أقدامِهِم وبأيديهم المصاحف، والأمراءُ حُفاة، وخرجَ جميعُ أهلِ البلادِ ذُكُوراً وإناثاً، صِغَاراً وكباراً، وخَرَجَ اليهودُ بتوراتِهِم، والنصارَى بإنجيلِهِم، ومَعَهم النساءُ والوِلْدان، وجميعُهم باكون متضرّعون متوسّلون إلى الله بكتبِهِ وأنبيائه». ويقول ابنّ بطوطة إنَّ الله خفَّفَ عنهم انتشارَ الوباء، فانخفضَ عددُ ضحاياه في اليومِ الواحدِ إلى ألفين، بينما كان في مصرَ يصلُ إلى أربعةٍ وعشرين ألفاً في اليوم. وابنُ بطوطة في هذه القصة، يكشفُ عن الترابطِ الذي كان قائماً بين الأديان، وعن مظهرٍ من مظاهرِ الوحدةِ الاجتماعيةِ بين المسلمين والنصارَى واليهود.

وقد ذَكَرَ ابنُ بطّوطَة في حديثِهِ عن دمشقَ قصةً طريفة، تدُلُّ على المستوى الرفيعِ الذي بَلَغته فيها العواطفُ الاجتماعيةُ الخيّرةُ بين الناس، قال: «مررت يوماً ببعضِ أزقّة دمشق، فرأيت مَملوكاً صغيراً قد سَقَطت من يدِه صَفحةٌ من الفَخّارِ الصينيّ، وهم يُسمّونه

الصَّحن، فتكسّرت، واجتمعَ عليه الناس، فقال له بعضُهم: اجمعْ شُقفَها واحملْها إلى صاحبِ أوقافِ الأواني، جمعَ الغُلامُ الشُّقَف، وذهبَ معه الرجلُ إلى صاحبِ الوقف، فلما رأى هذا الصَّحنَ المكسور، دفعَ للخادمِ مالاً يكفِيه لشراءِ غيره»، وفي هذا يقولُ ابنُ بطّوطة: «وهذا مِن أحسنِ الأعمال، فإنَّ سيدَ الغُلامِ لا بدَّ له أن يضربَه على كسرِ الصّحنِ أو يَنهرَه».

ومن أمثلةِ التعاطفِ الاجتماعي بدمشقَ التي يَحكِي عنها ابنُ بطوطة، ما شاهدَه في ليالِي رمضان، فيقول: «ومن فضائِلِ أهلِ دمشق، أنه لا يُفطرُ أحدٌ منهم في ليالي رمضانَ وحدَه، فمنَ كان من الأمراءِ والقضاةِ والكبراء، فإنه يدعُو أصحابَه والفقراءَ يُفْطِرُون عندَه، ومن كانَ من التجارِ وكبارِ السُّوقةِ صَنعَ مثلَ ذلكَ، ومن كان من الضُّعفاءِ والبادية، فإنهم يجتَمِعُون كلَّ ليلةٍ في دارِ أحدِهم أو في مسجدِ، ويأتي كلّ واحدٍ بما عنده، فيُفطرون جميعاً».

في غَمْرَةِ هذا التطلعِ والحرصِ على التسجيل، لا ينسى ابنُ بطوطةَ غايتَه الأُولى، وهيَ الحَجُّ إلى بيتِ الله، فينضمُّ إلى الركبِ الحجازيّ، مسافراً مع طائفةٍ من العربِ تدعى «العَجَارِمَة»، يستعرضُ ابنُ بطوطةَ رحلتَه إلى الحجازِ عبر مدنِ الشام، حتى يصلَ إلى مدينةِ (مَعَان) وهي آخرُ بلادِ الشام، لينطلقَ منها إلى الصحراءِ التي يصفُها بأنَ «داخلَها مَفقود، وخارجَها مولود»، حتى يصلَ إلى مدينةِ (تبوك)، حيث جرت المعركةُ الشهيرةُ أيامَ فجرِ الدعوة، ويصفُ بعضَ عاداتِ أهلِ الشامِ من الحجّاجِ، عند وصولِهم إلى هذه المدينةِ فيقول: «إذا وصَلوا منزلَ تَبوكَ، أخذوا

أسلحتَهم وجرَّدوا سيوفَهم، وحملوا على المنزل، وضربوا النخيلَ بسيوفِهم، وهم يقولون: هكذا دخَلَها رسولُ الله». ثم يستطردُ في وصفِ الطقوسِ، فيقول إنهم بعد ذلك يتّجهُون إلى العَينِ التي توضّأ منها الرسول، فينْهَلُون من مائِها، ويُقيمون أربعةَ أيامٍ للراحةِ وإرواءِ الجِمال، استعداداً للرحلةِ الشاقةِ عبر الصحراء.

من الحجازِ إلى العراقِ وفارس

أخيراً، يصلُ ابنُ بطوطةَ إلى غايتِه. فيدخُلُ الحرمَ الشريفَ بالمدينة، بعدَ معاناةٍ ومشقّة، فيعمُّه السرورُ بهذه النعمة العظمى، والاستبشارِ بهذه المِنّة الكبرى، وفي غمرةِ هذا السرور، لا ينسَى ابن بطوطةَ هوايتَه الأولى، فيروحُ يصفُ بشكلٍ علميٍّ دقيقٍ معالمَ المسجدِ الشريف، ويتابعُ تاريخَ بناءِ المسجدِ الكريمِ خُطوةً بِخُطوة، ذاكراً تفاصيلَ الحياةِ داخلَ المسجد، خطيبَه وإمامَه وخُدّامَه والمؤذِّنين له.

ثم ينصرفُ مع الجمعِ إلى (مكّة)، فتبلغُ سعادتُه غايتَها ويقول في هذا: «دخلْنا البيتَ الحرامَ الشريف، الذي مَن دخله كان آمِناً، من بابِ بني شَيْبة، وشاهدنا الكعبةَ الشريفة، وهي كالعروسِ تُجْلى على مِنَصَّةِ الجَلال، وتَرفُلُ في برودِ الجمال، محفوفةً بوفودِ الرّحمن، مُوصلةً إلى جِنَانِ الرّضوان».

فإذا كان كانون الأول (يناير) عام ١٣٢٥ م (ذو الحِجّة ٧٢٦ هـ)، وقد أدى ابنُ بطوطةَ حِجّتَه الأولى، خرجَ مع أميرِ الحجِّ العراقيِّ قاصداً بغداد، في رحلةٍ جديدةٍ إلى العراقِ وفارس. يسيرُ

الركبُ ماراً بمدينةِ (القادِسيَّة)، حيث كانت الموقعةُ التي قَضَى فيها سعدُ بنُ أبِي وقَّاص على جيشِ فارس، ثم بمدينةِ (مَشْهَد)، بالنَّجَف، وهو يصفُ فيها قبرَ الإمامِ عليٍّ رضِيَ الله عَنْهُ ومسجدَه، ويعجَبُ لما يراه من الفخامةِ ومظاهِرِ البَذْخ. ثم يتحرّكُ الركبُ إلى بَغداد، إلا أنّ ابنَ بطوطةَ ينسلخُ عنه ويتوجَّهُ إلى البَصرة، في رفقةِ جمعٍ من عربِ خُفَاجَة، سكانِ تلك المِنْطَقَة، وفي نيتِهِ القيامُ بزيارةٍ قصيرةٍ إلى بلادِ فارس.

ومن البصرةِ التي يصفُها بقوله: «إحدَى أُمّهاتِ العراق، الشهيرةُ الذكرِ في الآفاقِ الفسيحةُ الأرجاء.. ذاتُ البساتينِ الكثيرة، والفواكِه الأثيرة»، يبدأُ ابنُ بطوطَة رحلتَه إلى بلادِ فارس، مارّاً بمدينة (الأُبلَّة). وفي مدينةِ (عَبّدان) على الخليجِ العربي، يسمعُ أنَّ عابداً كبيرَ القدرِ يأتِي البحرَ مرةً في الشهرِ فيصطادُ ما يكفِيه طوالَ الشهر، ويختفِي فلا يَرَاه الناسُ إلا بعدَ شَهرٍ كامل. ولما كان ابنُ بطوطة حريصاً في رحلتِهِ على مقابلةِ الزّهّادِ الصالحين، فقد أخذَ يتتبعُ أخبارَ ذلك العابد، حتى عَثَرَ عليه يصلّي في مسجدٍ خرِبٍ متهدّم. وعندما فرغ من الصَّلاة، سلّمَ على ابنِ بطّوطة وقال له: «بَلَّغَك الله مُرادَكَ في الدّنيا والآخرة. ويعقّبُ ابنُ بطوطة على هذا قائلاً: «وبُلّغتُ بحمدِ الله مُرَادِي من الدنيا، وهو السياحةُ في الأرض، وبَلَغْتُ في هذا ما لمْ يبلُغْه غَيري، فيما أعلمُه، وبقيت الأُخرى، والرجاءُ قويٌّ في رحمةِ الله وتجاوزِه، وبلوغِ المرادِ من دخولِ الجَنّة».

يغادرُ ابنُ بطوطة مدينةَ عَبّدَان، فيخترقُ الصّحارَى والسهولَ

حتى يصلَ إلى مدينةِ تسمَّى (تُسْتُر) التي تبدأُ عندَها المناطقُ الجبلية. . فيظهرُ الجانبُ الشاقُّ من الرِحلةِ صعوداً أو هبوطاً، حتى يصلَ الركبُ إلى الأرضِ السهلةِ قَبل دخولِ مدينَةِ (أصفَهان). ويتحسّرُ ابنُ بطوطة على ماضِي أصفهان، فقد كانت المدينةُ «من كبارِ المدنِ وحِسَانِها إلا أنّها قد خَرِبت بسببِ الفتنةِ التي قامت بين أهلِ السنّةِ والروافضِ من الكفّار».

من أصفهانَ ينتقلُ ابنُ بطوطةَ إلى مدينةِ (شيرَاز)، ويصفُها بقولِه: «ليس في المشرقِ بلدةٌ تُدانِي دمشقَ في حُسن أسواقِها وبساتينِها وأنهارِها وحسنِ صورةِ ساكنيها إلا شيرَاز». ويصفُ أهلَ شِيرَازَ بأنَّهم أصحابُ دينٍ وعَفَاف، وخصوصاً النّساء، فهنَّ يَخرُجْن متبرقعاتٍ لا يظهرُ منهن شيء. وفي معرضِ الحديثِ عن صلاحِ نِسَاءِ شيرازَ يقولُ ابنُ بطوطة: «ومن غريبِ حالهِن أنهن يجتمعن لسَماعِ الواعِظِ في كلّ يومِ اثنين وخميسٍ وجُمعةٍ بالجامعِ الأعظم، فربما اجتمعَ الألفُ والألفان، بأيدِيهن المراوحُ يُروِّحن بها على أنفسهِن من شدّةِ الحرّ».

واصلَ ابنُ بطوطة رحلتَه في بلادِ فارس، فغادر شيرازَ إلى (كازَرُون)، ومِنها إلى مدينَةِ (الزّيدين)، حتى خرجَ من بلادِ فارس ووصلَ إلى (الكُوفة) بالعراق. ومنها إلى (كَرْبَلاء) التي استُشْهِدَ فيها الحسينُ بنُ عليّ عليهما السلام ومنها إلى (بغداد).

وأكثرُ ما يسترعِي نظرَ ابنِ بطّوطَةَ في بغدادَ بعد أن يسترضَ جسورَها ومساجدَها، ما شاهدَه من أمرِ حَمّاماتِها، فيصفُ في إسهابِ بناءَ هذه الحمّامات، وجدرانَها المطلية بالقارِ الأسودِ حتى

منتصفِها وبالجيرِ الأبيضِ حتى سقفِها. ويصفُ أماكنَ الاستحمام دَاخلَ هذه الحمّامات، في كلِّ مكانٍ منها حوضٌ من الرُّخامِ فيه أنبوبان، أحدهُما يجرِي فيه الماءُ الحارُّ والآخر الماءُ البارد.

ويجتذبُ انتباهَ ابنِ بطوطةَ في بغداد، مشهدُ موكبِ السلطانِ في خروجِهِ من قصرِه وسفرِه. فيصفُ تجمّعَ الأمراءِ كلُّ واحدٍ بعسكرِه وطبولِه وأعلامِه، كلٌّ في مكانٍ معلوم، ثمَ مَقْدِمَ السُّلطان وما يصاحبُه من عزفِ الموسيقى بالآلاتِ الموسيقيةِ والطبول. ثم ما يجرِي بعد ذلك من تقدمِ الأمراءِ واحداً واحداً لتحيةِ السلطان. وكيف يتضمّنُ موكبُ السلطان بخلافِ الحُجَّابِ والحراس، حَوَالى مائةٍ من أهلِ الطربِ يَرْتدُون أحسنَ الثياب، يُغنّون عَشَرةً في كلِّ مرة، مع فاصلٍ من العزفِ على الطبولِ والنّايات، بين أدوارِ الغِناء.

وفي بغدادَ يلتقي ابنُ بطوطة بالسّلطان، فيسألُه عن بلادِه ورحلاتِه، ويأمرُ بمالٍ يكفي سفرَه إلى الحجازِ ليؤدِي حِجّتَه الثانيةَ لِبيتِ الله الحرام. ثم يكتشفُ ابنُ بطوطةَ أنه قد بقيَ على موعدِ الحجِّ أكثرُ من شهرين، فيدفعُه حبُّه للتّرحال، وشوقُه إلى رؤيةِ الأماكنِ الجديدةِ إلى التفكيرِ في زيارةِ شمالي العراق، فيسرعُ بالسفرِ راجياً أن يشاهدَ أكبَرَ قَدْرٍ من المدنِ قبلَ أن يَحِلَّ موعدُ الحج.

يزورُ مدينةَ (سامُرّاء) وقد لفّها الخَرَاب، ويمرُّ على (تكْريت) وحصنِها الشهيرِ على نهرِ دجلة. ثم يمرُّ بعد ذلك على موضعٍ عُرِفَ في ذلك الحين باسمِ (القيَّارة) بالقربِ من دِجْلة، وفيه أرضٌ سودَاءُ بها عيونٌ ينبعُ منها «القار»، من مستخرجاتِ زيتِ البترول،

حتى يصلَ إلى (المَوْصِل).

يصفُ ابنُ بطوطةَ مدينةَ المَوْصِلِ فيقول: «مدينةٌ عتيقةٌ كثيرةُ الخِصْب، قلعتُها المعروفةُ بالحَدْباءِ عَظِيمةُ الشأن، شهيرةُ الامْتناع، عليها سورٌ مُحْكَمُ البناءِ مُشيَّدُ البروج، وتتصلُ بها دُورُ السّلطان.. وأهلُ الموصلِ لهم مكارمُ أخلاقٍ ولينُ كلامٍ وفضيلةٌ ومحبةٌ للغريب، واقبالٌ عليه».

لا يكتفي ابنُ بطوطةَ بالإقامةِ في الموصلِ، ولكنه يروحُ يستطلعُ المدنَ والمواقعَ من حولِها، فيزورُ مدينةَ (نِصِّيبين) التي يقولُ إن بها صناعةً لماءِ الوردِ لا نظيرَ لها، ثم يرحل إلى مدينة (سنجار) وأهلها من الأكراد. ويعود إلى الموصل بعد ذلك ليجدَ ركباً يتجه إلى بغداد، فينضمُّ إليهِ وما أن يصلَ بغدادَ حتى يجدَ الحجاجَ قد تأهبُوا للرحيل، فينضمُ إليهم. ويقولُ إنه طوالَ رحلتِهِ إلى مكة، عانى من مرض بأمعائِه، بقي معه بعد ذلك فترةٍ من الزمن.

رحلة اليمن

من مكةَ يسافرُ ابنُ بطوطة إلى (جدّة) معتزماً القيامَ برحلةٍ جديدة إلى اليمنِ وجنوبِ شبهِ الجزيرة العربيّة. تنطلقُ المركبُ في بحرٍ هادىء عند بداية الرحلة، ولكنْ فَجأةً تتغيرُ الريح، وتدخلُ الأمواجُ إلى داخل المركب، فيضطر الربانُ إلى الرسو في أقربِ موقعٍ من شاطىءِ البحرِ الأحمر، بين مدينةِ (سواكن) ومدينةِ (عيذاب). ويحكي ابنُ بطوطة عن مقامهم في ذلكَ المكانِ، ودهشتِه من توافرِ الأسماكِ فيه، فقد كان الناسُ يبسطونَ قطعةً من القماش في الماء، ثم يخرجونها عامرةً بالأسماكِ الطيبة، يطبخونها ويشوونها.

تسوءُ حالةُ البحر، فيضطر الركابُ إلى السفرِ براً إلى (سواكن)، ومنها يركبون البحرَ مرةً ثانيةً متجهينَ إلى اليمنِ. طوالَ الرحلةِ من (سواكِن) إلى اليمن، اقتصرَ السفرُ عَلَى ساعاتِ النهار، خوفاً من الارتطامِ بالشُّعَبِ المَرْجَانِيّةِ الضخمةِ التي يَزْخَرُ بها البحرُ الأحمر.

كان أولَ مدينةٍ يدخلُها في اليمن مدينةُ (زُبَيد)، ومنها يسافرُ

إلى (تَعَزّ) مقرِّ الحُكم، ويلتقِي فيها ابنُ بطّوطَةَ بسلطانِ اليمنِ، فيحكي عن ذلك اللّقاء: «سلّمنا عليه ورحّبَ بنا، وأقمنَا بدارِهِ في ضيافتِهِ ثلاثاً، فلما كان اليومُ الرابع، وفيه يجلسُ السلطانُ لعامّةِ الناس، دُخِلَ بي عليه، وكيفيةُ السَّلام، أن يَمَسَّ الإنسانُ الأرضَ بِسبَّابَتِه، ثم يرفعَها إلى رأسِه ويقول: أدامَ الله عزَّك». يُلقِي عليه السلطانُ العديدَ من الاسئلةِ عن مصرَ والعراقِ، فيسرِدُ له ابن بطوطةَ ما يرضيه من الأخبار.

ومن تَعزَّ يسافرُ ابنُ بطّوطةَ إلى (صَنْعاء)، ويصفُها قائلاً: «هي قاعدةُ البلادِ الأولى، مدينةٌ كبيرةٌ حَسَنةُ العِمَارَةِ، بناؤُها بالآجرِ والجِصّ، كثيرةُ الأشجارِ والفواكهِ والزَّرع، معتدلةُ الهواءِ طيّبَة الماء». ثم يسافرُ منها إلى (عَدَن)، ويقول عنها: «مدينةٌ كبيرةٌ، ولا زرعَ بها ولا شجرٌ ولا ماء، وبها صهاريجُ يجتمعُ فِيها الماءُ أيامَ المطر، وهي شديدةُ الحرّ».

وما أن يصلَ ابنُ بطوطَةَ إلى عدن، حتى تَستهويه زيارةُ الشاطىءِ الإفريقي، فَيعبُرُ البحرَ إلى مدينةِ (زَيْلع). ويتجهُ جنوباً حتى يصلَ إلى (مَقْدِيشُو)، ويصفُ أحوالَ ذلك الميناءِ الإفريقي، فيقول إنه من عادات أهلِ مَقْدِيشو متى وصلَ مركَبٌ إلى المرسى، إقبالُ شُبانِ المدينةِ في قواربَ صغيرة، وصعودُهم إلى سطحِ المركب، يحملُ كلٌّ منهم في يدِه طبقاً به طَعَام. يقدمُه إلى أحدِ التجارِ القادمين على المركَب، عارضاً استضافَته طوال مدة إقامَتِهِ بالمدينة. ويقولُ إنَّ هذا الشابَّ أو أهلَه، يكونون غالباً هم وسطاءِ التاجرِ فيما يبيع أو يَشترِي.

يمضِي ابنُ بطوطةَ بعد ذَلِكَ إلى (منْبَسَّة)، ثم إلى مدينةٍ تُدعَى (كَلَوَا)، ويصفُ هذهِ المدينةَ فَيقولُ: «ومدينةُ كَلوا من أحسنِ المدنِ وأَتْقنِهَا عِمَارة، وكلُّها بالخشب، والأمطارُ بها كثيرة. وهم أهلُ جهادٍ لأنهم في برٍّ واحدٍ متصلٍ مع كفَّارِ الزّنوج. والغالبُ عليهم الدِّينُ والصَّلاح، وهم شافعيّةُ المذهب». ويحكِي عن سلطانِهم أبي المظفّر حَسَن الذي كان يَغزو أرضَ الزنوج، ويعودُ بالغنائِم ليُنفقَها على شؤونِ الدين.

بعد هذا، يغادرُ ابنُ بطوطَةَ الشاطىءَ الإفريقيّ، متجهاً إلى جنوبيّ شبهِ الجزيرةِ العربيةِ مرةً ثانية، فيصلُ إلى مدينةِ (ظِفَار). ويتضررُ ابنُ بطّوطةَ من قذارَةِ المدينةِ ورائحتِها الكريهة، لكثرةِ ما يباعُ فيها ويؤكلُ من السّمك. ومما يثيرُ عَجَبَه، وما رآه في هذه المدينة من أنَّ الماشيةَ والدوابَ تتغذّى على السّمك، الأمرُ الذي لم يشهدْه في أيّ مكانٍ زارَه من قبلُ ولا من بعد. غير أنه يصفُ أهلَ المدينة فيقول: «هم أهلُ تواضعٍ وحُسْنِ أخلاقٍ وفضيلةٍ ومحبةٍ للغُرباء».

من ظِفار يركبُ ابنُ بطوطة البحرَ قاصداً (عُمَان) في مركَبٍ صغيرٍ، ثم يَمْضِي بعد ذلك إلى (مَسْقَط) و(البَحْرَين)، ومنها يعبرُ الخليجَ العربيَّ إلى (هُرْمُز). في هذه المدينةِ يصادفُ ابنُ بطوطة مشهداً عجيباً. فعند بابِ الجامع، الكائنِ في السّوقِ، رأسُ سمكةٍ هائلةٍ كأنه الجبلُ الصّغير، وكان الناسُ يَعبُرون من أحدِ عيني السمكة، ويخرجِون من عينِها الأخرى.

ومن هُرمز يسافرُ إلى مَدِينةِ (سِيرَاف) على الساحلِ الشرقيِّ

للخليج، وهو يصفُ صيدَ اللؤلؤِ بين سِيرافَ والبحرين. وكيفَ يَصنعُ الغَوّاصُ كِساءً لرأسِه من عَظْمِ السُّلحَفاة، كما يَسُدُّ أنفه بِمِشْبَكٍ مصنوعٍ من نفسِ العظم، ثم يربِطُ حبلاً في وسطِهِ ويغوص. والغواصونَ يتفاوتون في مقدرتِهِم على البقاءِ في الماء. فإذا وصلَ الواحدُ منهم إلى قاعِ البحر، بَحَثَ عن الأصدافِ التي بها اللآلىءُ بين الأحجار، فينتزعُها بقطعةِ حديدٍ معه، ثم يضعُها في كيسٍ معلّقٍ بعنقِه. وعندما يضيقُ نفسُه، يَهُزُّ الحبل، فيرفعُه الرجالُ إلى القارب.

وفي طريقِ العودةِ إلى مكة، يزورُ ابنُ بطوطة مدينةَ البحرين، ويصفُها بأنها مدينةٌ كبيرةٌ حَسَنَةٌ ذاتُ بساتين وأشجارٍ وأنهار، ماؤُها قَريب، يُحفَرُ بالأيدي في الأرض فيظهر، وبها حدائقُ النخيلِ والرُّمانِ ومزارعُ القُطن. وأخيراً يصلُ إلى مكة، فيؤدّي فريضةَ الحج. ويقول إنه في تلك السنةِ أدّى الفريضةَ الملكُ الناصرُ سُلطانُ مصر، وكانت آخرَ حِجَّةٍ له.

في بلادِ الروم

ما إن تَنتهي مناسكُ الحجّ حتى يفكّرَ ابنُ بطّوطةَ في رحلتِهِ التالية.. إلى أين؟.. فَيَقرُّ رأيُه على الصعودِ شمالاً إلى بلادِ الروم، وهو الاسمُ الذي كان يطلقُ على تركيّا وما يُحيطُ بها من الأقاليم.

يسافرُ إلى جُدّة، ومنها يعبُرُ البحر. حتى يصلَ إلى صعيدِ مصر، ومنها إلى الشام، حتى يصلَ إلى أولِ بلادِ الروم. وهو يصفُ أهلَ هذه البلاد فيقول: «أجملُ الناسِ صُوراً، وأنظفُهم ملابس، وأطيبُهم مطاعم، وأكثرُ خلقِ الله شَفقة، ولذلك يقال: البَرَكةُ في الشامِ والشَّفقةُ في الرّوم. وكنا متى نَزَلنا بهذه البلادِ زاويةً أو داراً يتفقّدُ أحوالَنا جيرانُنا من الرجالِ والنساءِ، وهن لا يَحتجبن، فإذا سافرنا عنهم وَدَّعونا، كأنّهم أقاربُنا وأهلُنا، وتَرَى النساءَ باكياتٍ لفراقِنَا مُتأسّفات».

ويَلفِتُ نظرَ ابنِ بطوطة في هذه البلاد نظامُ «الأخية»، ومفردُها «أخيّ». كان نظامُ هذه الجماعاتِ يقتضي أن يختارَ أهلُ كلِّ صناعةٍ نقيباً لهم، فيبني هذا النقيبُ زاويةً للتعبدِ وداراً للضيافة،

يشتركُ الجميعُ في نفقاتِها وخدمَتِهَا ونفقاتِ ضيوفِهَا. يخرجُ الجميع إلى صناعتِهِم وعملِهِم، ثم يُقْبلون ساعةَ العصرِ بما يَكْسِبون، فيشترون الطعامَ والفاكهَةَ ويَضَعون ذلك بين يدي «الأُخَيّ» أو النّقيب، فإذا سَمعوا بوجودِ ضيفٍ أو غريبٍ في المدينةِ استضافُوه وأنزلوه بزاويتِهم. ويقول أنَّ بعضَ الفِتيان الإخوةِ هؤلاء كان يتولّى منصبَ القضاء، وبعضَهم كان شريفاً يتولّى النيابةَ عن مَلِكِ العراق، وكان بعضُهم من الأمراءِ والحكام، كما كان بعضهُم من الزّهاد والصالحين. وفي جميعِ البلادِ والقُرَى كان هؤلاء الأخوةُ الفتيانُ يتلقّفون ابنَ بطْوطة ومن معه، فيُكْرمون وفادَتَهم، ويُوقّرون له المبيتَ والمأكلَ وَرَاحَةِ النفس.

يبدأُ ابنُ بطّوطةَ رحلتَه في بلادِ الرومِ عند مدينةِ (عَلاَيا)، ومنها إلى (أنْطاكِيَة)، فمدينةٍ تُدعى (قل حصار)، ثم إلى (لاذق) و(ميلاس)، حتى يصلَ إلى (قُونية)، ويطوفُ بعدَ ذَلِكَ بمدنِ (اللارندة)، و(أقصرا)، و(قيسريّة)، و(سيواس)، و(أماسية) وهي في جنوبيِّ البحرِ الأسود. ويدورُ دورتَه داخِلَ البلادِ حتى يصلَ إلى (أزمير). ويواصلُ رِحلتَه بعد ذلك حتى يصلَ إلى (صنوب) على شاطىءِ البحرِ الأسود، ومنها يُبحرُ فيه ساعياً إلى بلادِ القِرْم.

بعد مغامراتٍ بحريةٍ طويلة، تتعرضُ فيها سفينَتُهُ للغَرق، يصلُ إلى ميناءِ (كرش) على الشاطىءِ الشماليّ للبحرِ الأسود، ومنها يصلُ إلى القِرْم. في هذه الرحلةِ عبرَ أراضي الروم يواجهُ ابنُ بطوطةَ مصاعبَ جديدةً تتصلُ باللغة، فالذين يتكلّمون العربيةَ قِلة، يبحثُ عنهم حتى يتوسّطوا في الحديثِ بينه وبين أهلِ البلد. وهو

يَحكي قصةً طريفةً جرت له عندما نَزَلَ بمدينةِ (كاويه)، عندما التقى بأحدِ «الأخية» بزاويتِه، فكلّمَه بالعربية، إلاَّ أن «الأخي» لم يفهم، وأجابَ بالتركية، وأخيراً عَمَدَ «الأخي» إلى استدعاءِ الفقيهِ الذي يتكلمُ العربيةَ ليترجمَ له. وعندما حضرَ ذلك الفقيه، تبيّنَ ابنُ بطوطة أنه لا يعرفُ من اللغةِ العربية ما يزيدُ عن كلمةِ «نعم».

أثناءَ سفرِه بهذه البلاد، واجهَ ابنُ بطوطةَ الثلوجَ الكثيفةَ لأولِ مرةٍ في رِحلاتِه، فالثلوجُ تُغطّي كلَّ شيء، المساكنَ والبيوت، وحتى معالمَ الطّريق. وفي هذا يقول: «كنّا نتلمَّحُ أثرَ الطريقِ تحتَ الثلجِ ونَسلُكُه»، وعندما يتزايدُ سقوطُ الجليد، يقعُ ابنُ بطوطةَ في حَيْرة، «فإنْ نَزَلنا عن الدوَابِّ هَلَكنا، وإن سِرنا ليلتَنا لا نعرفُ إلى أين نتوجَّه».

والظاهرةُ التي تلفِتُ نظرَ ابنِ بطوطة في تلك البلاد، هي كثرةُ المُعمَّرين. وهو يَحكي قصةَ شيخٍ معمِّرٍ يُدعى دادا أمير عليّ، «دخلت عليه بزاويتِه بمقرُبةٍ من سوقِ الخيل، فوجدته ملقىً على ظهرِه، فأجلسَه بعضُ خُدّامِه، ورفعَ بعضُهم حاجبيه عن عينيه ففَتحهُمَا، وكلَّمني بالعربيِّ الفصيح، وقال: قدِمت خيرَ مَقْدَم. وسألته عن عمرِه، فقال: كنت من أصحابِ الخليفةِ المستنصرِ بالله، وتوفي وأنا ابنُ ثلاثين، وعُمري الآن مائةٌ وثلاثٌ وستون سنة»

كما تَلْفِت انتباهَ ابنِ بطوطة في بلادِ الروم «العَربات»، التي لم يكن قد رأى لها مثيلاً من قبل، وهو يقول: «هم يُسمُّون العَجَلة عَرَبة، وهي عَجَلات تَكُونُ للواحدة منهنَّ أربعُ بكراتٍ

كِبار، ومنها ما يَجُرُّه فَرَسان، ومنها ما يجرُّه أكثرُ من ذلك. وتجرُّها أيضاً البقرُ والجِمال، وَفْقَ حالِ العَربة، في ثقلها أو خفتها. والذي يَخدِمُ العربةَ يركبُ أحدَ الأفراس التي تَجُرُّها»، ثم يصفُ العَرَبَةَ من الداخلِ فيقول: «ويكونُ فيها طِيقانٌ مُشَبَّكة، وَيَرى الذي بداخِلها الناسَ ولا يَرونه، ويتقلبُ فيها كما يُحِب، وينامُ ويأكلُ ويقرأُ ويكتبُ وهو في حالِ سَيْرِه».

ويتعجَّبُ ابنُ بطوطة لكَرَاهِيَةِ أهلِ القومِ أكلَ الحَلوى. وفي هذا يحكِي قصةَ استضافةِ السلطانِ أُوزْبك له في رَمضان، وكيف اعتمدت المائدةُ أساساً على لحم الخيل الذي كانوا يُكثِرون من أكلِه. ورغبةً في مجاملةِ السلطان، أقبل ابنُ بطوطةَ يحملُ طَبقاً من الحَلوى أعدَّه بنفسِه. فوضعَ السلطانُ اصبعَه في الطبقِ وذاقَه. فلم يُعْجبه بتاتاً. ويومَها سمعَ ابنُ بطوطة حكاية أحدِ مماليك هذا السلطان. كان ذلك المملوكُ وله العديدُ من الأولادِ وأولادِ الأولادِ من بين عبيدِ السلطان. وذاتَ يوم قال له السلطان: كلِ الحَلْوى أعتقْكُم جميعاً. فرفضَ الرجلُ قائلاً: لو قَتلتني لا أذوقُها!.

من أرضِ الظُّلمةِ إلى القِسْطَنْطِينيّة

يواصلُ ابنُ بطوطةَ رحلتَه من مدينةِ القِرم، وقد قَرَّ عزمُهُ على زيارةِ (بلادِ الظُّلمة) التي سمعَ عنها من الناس، وهي الآن مناطقُ سيبيريا التابعةُ للاتّحادِ السوفييتي. فيصلُ إلى مدينةٍ تدعى (بلغار) على نهرِ (اتل) الذي يَصُبُّ في بحرِ قزوين. يصلُ ابنُ بطوطة إلى هذه المدينةِ خلالَ شهرِ رمضان. ويَلفِتُ نظرَه هناك قِصَرُ الليلِ في ذلك الفصلِ من فصولِ السنة فيقول: «لمّا صَلّينا المغربَ أَفطرنا، وأُذِّنَ للعِشَاءِ في أثناءِ إفطارِنا، فصلينا، وصلينا التراويحَ والشفعَ والوِتْر، وطلعَ الفجرُ في أثرِ ذلك».

في بلغار يَدْرسُ ابنُ بطوطَةَ مشروعَ سفرِه إلى (أرض الظّلمة)، ولكنه يُحْجِمُ عن ذلك، لما تقتضيه هذه الرحلةُ من استعداداتٍ لا يقدرُ عليها، وهو يقول: «السفرُ إليها لا يكونُ إلاّ في عَجَلاتٍ صِغار، تَجُرُّها كلابٌ كبار، فإن تلك المفازةَ فيها الجليد، فلا تَثبُتُ قَدمُ الآدميّ، ولا حافرُ الدابةِ فيها. والكلابُ لها أظفار، فتَثْبتُ أقدامَها في الجليد، لهذا كان لا يَدخُلُ تلك المناطقَ إلاّ الأقوياءُ من التجارِ الذين يملكُ الواحدُ منهم ما يزيدُ على مائةِ

عربة، مزدوةٍ بالطعام والشرابِ والحَطَب، فلم يكن بتلك الأراضي شجرٌ أو زرع.

يعودُ ابنُ بطوطةَ من مدينةِ بلغار، ليجدَ السُلطان محمد أوزبك خان في موضعٍ يُعرفُ باسم (بيش دغ)، فيحضرُ معه صَلاةَ العِيد، ثم يركبُ معه صباحَ العيدِ في موكِبِ الاحتفالِ بعيدِ الفِطر. يقول: «ولما كان صباحُ يومِ العيدِ ركبَ السلطانُ في عساكرِه العظيمة، وركبت كلُّ خاتونٍ عربتَها ومعَهَا عساكرُها (الخاتون هي زوجةُ السلطان). وركبتْ بنتُ السلطانِ والتاجُ على رأسِها، إذ هي الملكةُ الحقيقية، ورِثَت الملكَ عن أُمِّها. وركبَ أولادُ السلطان كلُّ واحدٍ في عسكرِه».

برفقةِ السلطان، يسافرُ ابنُ بطوطةَ إلى (استرخان) التي يسمّيها (ترخان). وهناك رَغِبت الخاتون بيلون زوجةُ السلطانِ وابنةُ ملكِ الرومِ في زيارةِ ابيها، لتضعَ مولودَها عندَه، فيأذنُ لها، ويوافقُ على سفرِ ابنِ بطوطةَ معها إلى (القسطنطينية). فيمضِي ضمنَ الموكبِ الكبير، الذي يَضُمُّ مئاتِ الفرسانِ والجوارِي والعَرَبات، ويمرُّ على مدينةِ (الكك)، ثم يصلُ إلى (جبال الروس)، وهم على حدِّ تعبيرِه «نَصَارى شُقرُ الشعور، زُرقُ العُيون، قِباحُ الصُور». وأخيراً يصلُ موكبُ الأميرةِ إلى القِسطنطِينِيّة فيلقاها خارجَ المدينةِ أخوهَا وليُّ العهد «في ترتيبٍ عظيمٍ وعسكرٍ ضخمٍ من عَشَرَةِ آلافِ مدرّع، وعلى رأسه تاج، وعن يمينِه عشرون من أبناءِ الملوك، وعن يسارِه مثلُهم» وسار الجميعُ حتى دَخلوا القسطنطينية على هذه الروعةِ والفَخامة.

يصفُ ابنُ بطوطة بعد ذلكَ، لقاءَ الخاتونِ بوالِدِها، ثم استقبالَ السلطانِ له، وكيف أخذَ يستفسرُ منه عن أخبارِ بيتِ المقدسِ والعِرَاقِ وبلادِ الرومِ، بينما كان رجلٌ يَهودي يترجمُ إجاباتِ ابنِ بطوطة. أُعجِبَ السلطانُ بإجاباتِه، فطلبَ إكرامَه، وقدَّمَ إليه العديدَ من الهدايا الثمينة، كما عيَّنَ له مرافقاً، يُسهِّلُ له رؤيةَ كلِّ نواحي المدينةِ العجيبة.

طالت إقامةُ ابنِ بطوطةَ في القسطنطينية، وتبيّن أن الخاتون لا تعتزمُ العودةَ إلى زوجها السلطان، فعادَ إلى بلادِ الرومِ في رحلةٍ شاقةٍ وسطَ بردٍ شديد، فكان لا يستطيعُ أن يمتطِيَ حصانَه دونَ عَونٍ من رفاقِه، لمَا تكدَّسَ عليه من ثِياب، وفي هذا يقول: «كنت أتوضأُ بالماءِ الحار، بمقرُبةٍ من النار، فما تَقْطُرُ من الماءِ قَطْرة، إلا جَمَدَت لحينِها، وإذا غَسَلت وجهي، يصلُ الماءُ إلى لحيتي فيجمدَ، فأحرّكُها، فيسقطُ منها شِبهُ الثّلج». وفي نهايةِ هَذِه الرحلةِ، يصلُ إلى مدينة (السّرا) عاصمةِ السلطان أوزبك، فيلقاه، ويُعْلمُه بأخبارِ الرحلة، ثم ينصرفُ عازماً الاتّجاهَ إلى الشرق، مستهدفاً (خُوارِزم) شماليّ بلادِ فَارس.

يَمضِي ابنُ بطوطة مكتشفاً المِنْطَقة، مسافراً من (خوارِزم) إلى (الكات) إلى (بُخارَى) و(سَمَرْقَند) و(ترمذ). ثم يجتازُ نهرَ (جَيْحُون) ليدخلَ مدينةَ (بَلْخ)، التي كانت خاوية «من رآها ظنَّها عامرةً لإتقانِ بنائِها، وكانت ضخمةً فسيحة، ومساجدُها ومدارسُها باقيةُ الرسوم»، وقد خرَّبتْها جيوشُ التّتر، وقضَت عليها، وعلى حضارةِ البلادِ كلّها، كما قضَت بعد ذلك على الحضارة الإسلاميةِ في بغداد.

يواصلُ ابنُ بطّوطة رحلتَه حتى (نيسابور) ومنها إلى (كابل) وهو الإسمُ الذي يطلقُه على كابول عاصمة أفغانستان. ومن هناك يرسلُ ابنُ بطوطةَ الرسائلَ إلى أصحابِهِ ببلادِ الهند. وفي أيلول (سبتمبر) ١٣٣٣ م (محرّم ٧٣٤ هـ)، يصلُ إلى وادِي السِّند، وقد مَضَت على رِحلتِهِ عِشرون سنة منذ أن خَرَج من وطنِه طَنْجة.

على أبواب الهند

في حديثِ ابنِ بطوطةَ عَن الهندِ نجدُ أعجبَ ما رُوي من أنباءِ هذه الرحلةِ الطويلةِ المليئةِ بالغرائبِ والعجائب.

يُبحِرُ في نهرِ السندِ حتى يصلَ إلى (ملتان) عاصمةِ السنّد، ويقولُ إن نهرَ السند يشبهُ نهرَ النيلِ لفيضانِهِ في فصل الصيف. ويحكِي كيف انتقَلَ خبرُ وصولِه إلى ملتان إلى ملكِ الهندِ في خمسةِ أيامٍ رغمَ بُعد المسافة، ومرجعُ ذلك إلى سرعة البريدِ ودقة نظامِهِ في تلك النّواحي: وهو هنا، بعد أن عانَى من جليدِ بلادِ الرومِ وبرْدِها الشّديد، يعانِي من حرِّ شهرِ الصيفِ في بلادِ السند، ويحكِي عن أصحابِه أنهم كانوا يَقْعُدُون عُراةً يضعُ الواحدُ منهم منديلاً مبلولاً بالماءِ على كتفيه وآخرَ على وسطِه، فما يمضِي بَعضُ الوقتِ حتى يَجفَّا ويتيبَّسا، فيعمدُ إلى وضعِهما في الماءِ مرةً أخرى.

لم يكن الحرُّ اللافحُ هو فقط ما عانَى منه ابنُ بطّوطةَ في بلادِ السند، فقد دخلَها في أعقابِ حربٍ جَرَت بين أميرين من أمرائِها. غير أنه واصلَ رحلتَه برفقةِ الفقيهِ علاءِ المُلْك، حتى أدركَ مدينةَ

(لاهري) عند مصبِّ نهرِ السند، ثم استأنفَ سيرَه ليمرَّ على صحراءَ تقعُ عندَ أطرافِها جبالٌ منيعةٌ يسكُنُها من يسمّيهم (كُفَّار الهنود) الذين يَقطَعون الطّريق، ويَنهبون القوافلَ المسافرة، وقد عانَى ابنُ بطوطةَ من هؤلاء طوالَ رحلاتِهِ عبرَ البلادِ العربية.

في الطريقِ إلى دلهي، ويُسمّيها ابن بطوطة (دهلي)، يمرُّ بتجربةٍ غريبةٍ يحكِي عنها قائلاً: «لمّا انصرفت عن هذا الشيخ، رأيت الناسَ يُهْرَعون من عسكرِنا ومعهم بعضُ أصحابِنا. فسألتهم ما الخبَر؟ فأخبروني أنّ كافراً من الهنود مات، وأُجِّجت النارُ لإحراقِه، وامرأتُهُ تحرقُ نفسَها معه. ولما احترقا، جاء أصحابي وأخبروا أنها عانقت الميْتَ حتى احترقت معه». ويحكِي بعد ذلك، أن إحراقَ المرأةِ بعد زوجها عند الهنود أمرٌ تطوّعي غير واجب. غير أنَ التي تحرقُ نفسها مع زوجِها الميت، ينالُ أهلُها الشرفَ الكبيرَ بذلك. أما التي لا تحرقُ نفسَها، فتُجْبَرُ على ارتداء الخَشِنَ من الثّياب، وأن تُقِيمَ فِي بيتِ أهلِها، بائسةً مُمتهَنةً لعدمِ وفائِها.

في الهندِ ينالُ ابنُ بطوطة منزلةً عظيمةً عندَ سلطانِهَا محمد شاه غِياثِ الدِّين، لذا تجتمعُ له ثروةٌ طائلةٌ من الذهبِ والعبيدِ والجوارِي والثيابِ والخُيُول. وهو يصفُ هذا السلطانَ فيقول: «هذا السلطانُ أحبُّ الناسِ لإسداءِ العطايا وإراقةِ الدّماء. فلا يَخلو بابُه عن فقيرٍ يُغْنَى، أو حيٍّ يُقتل.. وهو أشدُّ الناسِ مع ذلك تواضعاً، وأكثرُهم إظهاراً للعدْلِ والحق، وشعائرُ الدّينِ عنده مَحفوظة». وينصرفُ ابنُ بطوطةَ بعد ذلك إلى ذكرِ نَسَبِ السلطان، ووصفِ قصرِه، وعاداتِهِ في المناسبات، وحوادِثِه العديدةِ التي

يختلطُ فيها الكرَمُ والإحسان، بالعُنْفِ والقتلِ وسفكِ الدماء.

يَحكي ابنُ بطوطة قصةَ دخولِه على السلطان، والمراسمَ العديدةَ التي قامَ بها، قبلَ أن يتِمَّ ذلك اللقاء، وإعجابَ السلطانِ به، ومنحَه ولايةَ عِدةِ قُرى يصلُ ريعُها إلى خمسةِ آلافِ دينار في السنة. ويقول عن علاقتِه بالسّلطان: «كان السلطانُ يَستدعينا للطعامِ بين يديه، ويسألُ عن أحوالِنا، ويخاطبُنا بأجملِ الكلام. ولقد قالَ لنا في بعضِ الأيام: أنتم شَرّفتمونا بقدومِكم، فما نَقدرُ على مكافأتِكم؛ فالكبيرُ منكم في مقامِ والدي، والكهلُ في مقامِ أخي، والصغيرُ في مقامِ وَلدي. وما في مُلكي أعظمُ من مدينتي هذه أُعطيكم إياها. فشكرناه ودعونا له. ثم بعدَ ذلك أمرَ لنا بالمرتَّبات، فعيَّنَ لي اثني عشرَ ديناراً في السنة، وزادَني قَريتين على الثلاثِ التي أمرَ لي بها قَبْل».

يتصاعدُ إعجابُ السلطان بابنِ بطوطة، فيعيّنُه قاضياً لدارِ المُلك، يكونُ مسؤولاً عن القضاءِ في العاصمة. وابنُ بطوطةَ يتفنَّنُ في إرضاءِ السلطان، بالقول تارة، وبالهدايا الغريبةِ تارةً أخرى، فمرةً يقدمُ إليه جَمَلاً مُزيّناً ابدعَ واثمنَ زينة، ومرّة يقدِّمُ إليه أصنافاً نادرةً من الحَلوى. ويُسْرفُ ابن بطوطةَ في الإنفاق. فتتراكم عليه الدّيون. وما أن يسمعَ السلطانُ بذلك، حتى يدفعَ عنه ديونَه كلَّها ويمنحَه من المالِ ما يكفيه لبناءِ دارٍ أُنفِقَ عليها أربعةُ آلافِ دينار، ثم يبني أمامها مَسجداً خاصّاً.

وذاتَ يوم، يغضبُ السلطانُ على أحدِ الشيوخ، ويعلمُ أن ابنَ بطوطة كان ممن يَتردّدون عليه، فيغضب، ويأمرُ باحتجازِ ابنِ

بطوطة في حراسةِ أربعةٍ من العبيد، وفي هذا يقول: «وعادتُه أنه متى فعلَ ذلك مع أحد، فقلما يتخلّص». غير أن ابن بطوطة يأخذُ في الصّلاةِ والدعاءِ وتلاوةِ القرآن، فيتمُّ الإفراجُ عنه بعد الانتهاءِ من قتلِ ذلكَ الشيخ. تصدِمُ هذه الواقعةُ ابنَ بطوطة. فيزهَدُ في الدنيا بما فيها، ويتبرعُ بجميعِ مالِه، حتى الملابسَ التي يضعُها على جسده، ويبقى في صحبةِ شيخٍ من الزهادِ مدة خمسةِ أشهر. كان السلطانُ فيها غائباً ببلادِ السند.

ما ان يعودُ السلطانُ من رحلتِه، حتى يسعَى إلى استرضاءِ ابن بطّوطة، وإعادتِهِ إلى سابِقِ مناصبه. لكنّ ابن بطوطة يطلبُ السماحَ له بمواصلةِ حياة الزهد، كما يُظْهِرُ رغبته في زيارةِ بيتِ الله، فيستجيبُ السلطانُ إلى مطالبه. إلا أنه ما ان تَمضي فترةٌ قصيرةٌ من الزمن، حتى يبعثُ إليه السلطان ليوفدَه في مُهمّة يَعلمُ مدى ضُعْفِ ابنِ بطوطة إزاءَها. يطلبُ منه أن يمارسَ هوايةَ عمره، الارتحالَ إلى ملكِ الصينِ سَفِيراً عن سلطانِ الهند. فملكُ الصينِ كان قد أرسلَ رُسلَه الى سلطانِ الهندِ يحمِلون أثمنَ الهدايا وأغلاها. طالباً السماحَ ببناءِ معبدٍ بناحيةٍ يقال لها (جبل قراجيل) يَحِجُّ إليها أهلُ الصين. فكتبَ السلطانُ إلى ملكِ الصينِ يخبرُه بعدمِ جوازِ بناءِ معبدٍ غير إسلاميٍّ بأرضِ المسلمِين، إلا لمن يَدفعُ الجِزية، وأرادَ أن يقومَ ابنُ بطوطة بالسِّفارةِ في هذا الشأن.

جهَّزَ السلطانُ موكباً من الهدايا، يفوقُ في قيمتِه ما أرسَله ملكُ الصين من قبل، وتحركَ الموكبُ في طريقِه إلى الصين، غيرَ أنّه صادفَ الكثيرَ من المتاعبِ والمصاعبِ والهَجَمات. نتيجةَ

لغزواتِ كفّارِ الهنود، وقد أوردنا بعضًا منها في بدايةِ الحديث.

عندما يلتئمُ شملُ الركبِ بعدَ عديدٍ من المغامرات، تبدأُ الرحلةُ جنوباً وغرباً، فيمرُّ على (ظهار) وميناءِ (كنباية) على بحرِ الهند. ومنها يركبُ ابنُ بطوطةَ مع رجالِه وما بقي من الهدايا سفينةً تتجهُ بهم جنوباً إلى ميناءِ (قاليقوط) وهي المدينةُ التي نعرفُها باسم كلكتا. ويقولُ ابنُ بطوطةَ في وصفِها: «هي أحدَى البنادِرِ العظامِ ببلادِ المليبار، يقصِدُها أهلُ الصينِ وجاوةَ وسِيلانَ والمهل، وأهل اليمن وفارس، ويجتمعُ بها تُجّارُ الآفاق، ومَرْساها من أعظمِ مراسِي الدّنيا». وفي (قاليقوط) يبقى ابنُ بطوطةَ ثَلاثَة أشهرٍ في انتظارِ سفينةٍ صينية، ذلك أن بحرَ الصينِ لم تكن تسافرُ فيه سوى السفنِ الصينية.

إلى الصين

تصلُ السفينةُ المنتظَرَة، وتبدأُ الرحلةُ إلى الصين. ويكونُ أولُ مرورِها على جُزُرِ (مالديف) التي كانت تسمَّى (ذئبةَ المُهْل)، والتي يحكِي عنها ابنُ بطوطة قائلاً: «وهذه الجزائرُ إحدَى عجائبِ الدنيا، وهي نحوُ ألفي جزيرة. وإذا وصلَ المركَبُ إلى إحداها فلا بدَّ له من دليلٍ من أهلِها يَسيرُ به إلى سائرِ الجزائر». ويتعجبُ ابنُ بطوطة من كونِ المرأةِ تحكُمُ هذه الجزائر، وقد كانت خديجةَ بنتَ السلطانِ جَلالِ الدِّين البَنْجاليّ.

في هذه الجزر، تغرقُ السفينةُ التي يسافرُ عليها ركبُ الصين، وتضيعُ هدايا السلطانِ إلى ملكِ الصينِ، فيجزعُ ابنُ بطوطةَ ويحزنُ حُزناً شديداً، ويخشى العودةَ إلى الهندِ حتى لا يلقَى عِقَابَ سلطانِهَا، فيواصلُ رحلتَه مُنْفَرِداً، آملاً أن يعثرَ على بعضٍ من كانوا في السفينة. وبعد مُغَامَراتٍ طويلة يبدأُ ابنُ بطوطة رحلتَه منفرداً إلى الصين، وكان ذلك في عام ١٣٤٤ م (٧٤٥ هـ).

بعدَ المرورِ على جزيرةِ (سِيلان)، يَتجِهُ المركَبُ شمالاً إلى (البنغال) فيقطعُ الرِحلَة في ثَلاثٍ وأربعين ليلة. وفي البنغال يطوفُ

ابنُ بطوطة ببعضِ بلادِها حتى يصلَ جبالَ (كامرو) التي تتصلُ حدودُها بالصينِ وبلادِ التِّبيت، ويمضي في رحلتِه حتى يصلَ إلى مدينةٍ تسمّى (حبنق)، فيجدُ سفينةً راحلةً إلى بلادِ (جاوة) فينضمُّ إليها.

يصفُ ابنُ بطوطةَ وصولَه إلى جاوة فيقول: «ولما وصلنا المرسى، خرجَ إلينا أهلُها في مراكبَ صِغَار، ومعهم جَوزُ النَّارجِيلِ والموزُ والسَّمك. وعادتُهم أن يُهْدُوا ذلك إلى التجار، فيكافِئُهم كلَّ إنسانٍ على قدرِه». ويسمعُ السلطانُ بمَقدِمِ ابن بطوطة وصحبِه، فيأمرُ باكرامِهم، ويرسلُ فرساً لابنِ بطوطة يركُبه ويدخلُ به عاصمةَ السّلطانِ (سومطرة). وفيها يقيمُ خمسةَ عشَر يوماً في رعايةِ سلطانِهَا، ثم يستأذنُه في السفرِ إلى الصين، حيث جاء أوانُ السفرِ الذي لا يتيسّرُ في كلِّ وقت. فأعدَّ له السلطانُ سفينة، ومدَّه بحاجتِهِ وزادَ في إكرامِه. وسارت السفينةُ بين جزرِ جاوة، فنزلَ ابنُ بطوطة في بعضِ مدنِهَا في زياراتٍ قصيرة، ثم واصلَ رحلتَه حتى حلَّ بالصين.

يقول ابنُ بطوطةَ عن الصين: «اقليمُ الصينِ مُتَّسِعُ الخيراتِ والفواكِهِ والزرعِ والذَهبِ والفضّة، لا يُضاهِيه في ذلك إقليمٌ من أقاليمِ الأرض. . . وأهلُ الصين كفّارٌ يَعبدون الأصنام، ويَحْرُقون موتاهم كما تفعلُ الهنود، وملكُ الصينِ تَتريٌّ من ذُريةِ جنكيزخان. وفي كلِّ مدينةٍ من مدنِ الصين، مدينةٌ للمسلمين يَنفردون فيها بِسُكْناهم. ولهم فيها المساجدُ لإقامةِ الجُمُعاتِ وسواها وهم مُعَظَّمون مُحْترمون».

ويثيرُ عجبَ ابنِ بطوطة في الصينِ استخدامُهم لأوراقِ النقد، التي لم تكن شائعةً في ذلك الحين، إذ كان التعاملُ يقتصرُ على العُمُلاتِ المعدنيَّة. وهو يصفُ أوراقَ النقدِ فيقول: «كلُّ قطعةٍ منها بقدْرِ الكف، مطبوعةٌ بطابَعِ السلطان. إذا تمزَّقت في يدِ إنسان، حملَها إلى دارٍ كدَارِ السِّكة، فأخذ عِوَضَها جُدداً، ودفعَ تلك». وهذا يفيدُ أن الصينَ هي أولُ من استخدَمَ العُمُلاتِ الوَرَقيَّة.

وهو يُبدِي أشدَّ الإعجابِ بنظامِهم للمحافظةِ على المسافرين في طريقِهم وفي إقامتِهم بالفنادقِ فيقول: «وبلادُ الصينِ آمَنُ البلادِ وأحسنُها حالاً للمسافرين، فإنَّ الإنسانَ يسافرُ منفرداً مسيرةَ تسعةِ أشهر، وتكونُ معه الأموالُ الطائلةِ فَلا يخافُ عليها، وترتيبُ ذلك أنَّ لهم في كلِّ منزلٍ ببلادِهم فُندقاً، عليه حاكمٌ يسكنُ به في جماعةٍ من الفُرسان. فإذا كان بعدَ الغروب، جاء الحاكمُ إلى الفندق ومعه كاتب، فكتبَ أسماءَ جميعِ من يبيتُ به من المسافرين، وخَتَمَ عَلَيها، وأقفلَ بابَ الفندقِ عليهم، فإذا كان الصبحُ جاء ومعه كتابُه، فدَعَا كلَّ إنسانٍ باسمِه، وبعثَ معهم مَن يوصلُهم إلى المكانِ التالي، ويأتي من حاكمِ المكانِ الجديدِ بما يفيدُ أنَّ الجميعَ وَصلوا إليه».

يقولُ ابنُ بطوطة إن أولَ مدينةٍ وصلَ إليها بالصّين هي (الزّيتون)، وهو يشير إلى مدينةٍ على الساحِلِ الصينيّ في مواجهةِ جزيرةِ فَرْمُوزا، وفي هذه المدينةِ يلتقِي بالأميرِ الصينيِّ الذي كان قد توجَّه بالهديةِ إلى سلطانِ الهند. فيعرفُ ابنُ بطوطة حكامَ المدينة، الذين أرسلوا إلى (القان) ملكِهم الأعظم، يُخبرونه بوصولِ ابن

بطوطة من طرفِ سلطان الهند. فطلبَ (القان) أن يُوفدوه إليه، غيرَ أن ابن بطوطةَ استأذن في أن يُخصّصوا له من يسافرُ معه إلى بلادِ الصينِ المختلفةِ في طريقهِ إلى القان، فأجيبَ إلى طلبه.

سافر ابن بطّوطة على مركَبٍ بالنهرِ سبعةً وعشرين يوماً «وفي كلِّ يومٍ نَرسو عندَ الزوالِ بقريةٍ نشتري بها ما نحتاجُ إليه ونصلّي الظّهر، ثم ننزلُ بالعَشّي إلى أخرى، إلى أن وصلنا مدينةَ (صين الصين) التي تسمّى (صين كلان)... وهي أكبرُ المدنِ وأحسنُها أسواقاً. وفي وسطِ هذه المدينةِ كنيسةٌ عظيمةٌ لها تسعةُ أبواب، وفي داخِلِهَا المارستان (المستشفى) للمرضى، ومكانُ طهي الأغذية».

في صين كلان ينزلُ ابنُ بطوطةَ في ضيافةَ أحدِ كبارِ المسلمين، وهو أوحدُ الدين السّنجاري. فتتوالى عليه الدعَواتُ والهدايا من سائرِ المسلمين المقيمين بالمدينة. وعندما يعودُ إلى مدينةِ الزيتون يجدُ أمراً من القان بالتوجّهِ للقائِه. وفي طريقِه يمرُّ على مدينةِ (قنجنفو) في موقعِ مدينةِ نانكنج حاليّاً، ويخرجُ المسلمون لاستقبالِه ومعهم الأعلامُ والطبولُ وأهلُ الطّرب، فينزلُ في ضيافةِ الشيخِ ظَهيرِ الدين القُرْلاني، حيث يُمضِي في زيارةِ للمدينةِ خمسةَ عَشَر يَوماً. ثم يواصلُ رحلتَه ليصلَ إلى مدينةِ (الخنسا) في موقعِ مدينةِ هانتشو حالياً، ويقولُ في وصفِها: «هذه المدينةُ أكبرُ مدينةٍ رأيتُها على وجهِ الأرض. طولُها مَسيرَةُ ثلاثة أيام». ويقول إن المدينةَ مكونةٌ من ستّ مدن، على كلِّ مدينةٍ سُور، ثم يَضُمُّ المدنَ كُلَّها سورٌ واحدٌ.

من مدينةِ الخنسا، يسافرُ ابنُ بطّوطة شمالاً، عابراً بلادَ (الخطا) المتاخمةَ للصين، حتى يصلَ إلى مدينةِ (خان بالق) في موقعِ مدينةِ بيكين الحالية. ويقول إنها كانت عاصمةَ القان، السلطانِ الأعظم، الذي تضمُّ مملكتُه بلادَ الصينِ والخطا. عندما يصلُ ابنُ بطوطة إلى العاصمة، يجد القان متغيباً في حربٍ بعيدة، وتقومُ فِتنةٌ بالبلادِ تُؤدِّي إلى قتلِ القان، وتولِّي ابن عمِّه فيروز للملك، وتقعُ الخلافاتُ بينه وبين باقي الأمراءِ، فيشعرُ ابنُ بطوطة باضطراب الأحوال، ويستجيبُ لنصيحةِ الأصدقاءِ بالتأهُّب لرحلةِ العودة.

بعدَ مغامراتٍ طويلةٍ يصلُ إلى جزيرةِ سومطرة، ومنها يركبُ سفينةً إلى ظِفَارَ جنوبيّ شبه الجزيرةِ العربية، ثم يتجهُ إلى شيراز، فأصفهان، فالبصرةِ فبغداد. ومنها إلى دِمشق، فالقدس، فغزّة، حتى يصلَ إلى دُمْياط. ويصلُ إلى القاهرةِ في عهدِ الملكِ الصّالح، ومن القاهرةِ يسافرُ إلى مكّة، ليؤدِّيَ فريضةَ الحجِّ قَبلَ أن يعودَ إلى وطنِهِ. ويختتمُ بهذا رحلتَه الطويلةَ التي استمرّت أكثرَ من عِشرين عاماً، زَارَ فيها معظمَ بُلدَانِ العالمِ القديم.

إلى الأندلس والسودان

عندما يصلُ ابنُ بطوطةَ إلى وطنِه، يعلمُ بوفاةِ والدتِهِ بسببِ الوباءِ الذي انتشرَ وتفشَّى في ذلك الحين. ثم يصلُ إلى فاس، فيلتقي بالسلطانِ أبي عَنَان، وينقلُ إليه أخبارَ رِحلتِهِ الطويلة، والبلدانِ التي مرَّ بها، فيغمرُه بإحسانِه. غيرَ أن ابنَ بطوطةَ ما يكادُ يَشْفَى من المرضِ الذي أصابَه، وألزَمَه الفراشَ ثلاثةَ أشهر، حتى يبدأ رحلةً جديدةً إلى الأندلس.

كانت بلادُ الأندلسِ حين دخلَها ابنُ بطوطة في أيامِها الأخيرة، وقد اغتصبَ الأسبانُ أكثرَ مدنها، وأوشكوا أن يَقْضُوا على سلطانِ العربِ بها، ويُخرجوهم منها. خرجَ ابنُ بطوطةَ من جبلِ طارق، فكانت (رندة) أولَ مدينة زارَها بالأندلس، وكانت أمنعَ معاقلِ المسلمين وأجملَها موقعاً. وكان قاضِيها الفقيهُ أبو القاسم محمدُ بنُ يَحيى بنِ بَطّوطة، ابن عمٍّ له. ثم سارَ في طريقٍ وعرٍ إلى (مربلة) ومنها إلى (مَالَقه) التي يقولُ فيها: «إحدَى قواعِدِ الأندلسِ وبلادِها الحسان، جامعةٌ بين مرافقِ البرِّ والبحر». ومنها يسافرُ إلى (غرناطة).

عن غرناطة يقولُ ابنُ بطوطة: «قاعدةُ بلادِ الأندلس، وعروسُ مدنِها، وخارجُها لا نظيرَ له في العالَم. والبساتينُ والجِنَانُ والقصورُ والكرومُ مُحيطةٌ بها من كلِّ جهة».

ومن غرناطَة يرحلُ ابنُ بطوطةَ إلى (الحمة) ثم إلى (بلش) ثم إلى (مالقة) حتى يصلَ إلى مَرَّاكش مختتماً رحلتَه الثانيةَ القصيرة. وهو إذ يعودُ إلى وطنِه لا يقيمُ مستقراً في فاس، بل يَجُوب المدنَ المُرَّاكِشيّة (مُرَّاكش) و(سلا) و(مِكْناس) حتى يصلَ إلى فاس.

ما إن يستقرُّ ابنُ بطوطةَ في فاسَ بعضَ الوقتَ، حتى يشرعَ في التجهيزِ لرحلتِهِ الثالثةِ والأخيرة، إلى بلادِ السّودان. والسودانُ الذي زارَه ابنُ بطوطة ووصفَ ناسَه وأشجارَه ومزارعَه، ليس هو السودانُ الحاليُّ الذي نعرفُه اليومَ بحدودِه الجغرافية الراهنة، فهو يصلُ في رحلتِهِ هذه إلى غانا والكونغو.

يبدأ ابنُ بطوطةَ رحلتَه من مدينةِ (سجلماسة)، حيث يشتري الجمالَ التي يحتاجُها في رحلتِه. وكان ذلك في شباط (فبراير) من عام ١٣٥٢ م (محرم ٧٥٣ هـ). ويمرُّ في بداية رحلتِهِ على (تغازا)، فيقول: إنها قريةٌ صغيرةٌ كثيرةُ الذّباب، فيغادِرُها إلى (إيوالاتن) التي يقولُ انها شديدةُ الحرّ، ويثيرُ عجبَ ابنِ بطوطة فيها أنَّ الفردَ من أبناءِ هذه المدينةِ لا يُنسَبُ إلى أبيه بل إلى خالِه. ولا يرثُ ثروةَ الرجلِ إلا أبناءُ اختِه، أما أولادُه فلا يَرثون شيئاً.

ويصفُ ابنُ بطوطة مدينةَ (مالي) التي وصلَها بعد ذلك، بأنَّ أشجارَها ضَخمة، تستظلُّ القافلةُ بظلِّ واحدةٍ منها. وبعضُ هذه الأشجارِ تخزنُ في جوف جذوعِها ماءَ الأمطار، فتُستخدمُ كآبار.

ويحكِي عن شجرةٍ منها وجد بداخِلها خيَّاطاً ينسجُ الثياب.

يمضي ابنُ بطوطةَ في رِحلتِهِ حتى يصلَ إلى مدينةٍ تدعى (يوفي)، وموقعُها حاليّاً داخل نيجيريا، ويقولُ في وصفِها: «وهي من أكبرِ بلادِ السودان، وسلطانُها من أعظمِ سَلاطينِهم، ولا يدخُلها الأبيضُ من الناس».

ويصلُ ابنُ بطوطة بعد ذلك إلى مدينةٍ (دنقلة) على النيل، ويصفُها بأنَّها آخرُ بلادِ السودانِ عندَ الجنادِلِ (الشلالات) التي تعترضُ النيل. وهناك يَرى تِمساحاً في النيلِ فيقول: «ورأيت التمساحَ بهذا الموضعِ من النيلِ بقربٍ من الساحل، وكأنه قارِبٌ صغير».

من دنقلة تبدأُ رحلةُ العودةِ إلى فاس. فيمرُّ بمالي مرةً ثانية. ويحكي أنه كادَ أن يموت من طعامٍ تناولَه هناك، وتسببَ في مرضِهِ لما يزيدُ عن شهرين. وفي رحلةِ العودة، يثيرُ انتباهَ ابنِ بطوطة فرسُ النهر، فيصفُه قائلاً: «وهي أغلظُ من الخيل، ولها أعرافٌ وأذنَاب، ورؤوسُها كرؤوسِ الخيل، وأرجُلها كأرجلِ الفِيلَة... وهي تعومُ في الماء، وترفعُ رأسَها وتَنفخ». ويحكي عن طريقةِ صيدِه، فيقول إنَّ الأهالي يصنعون رِماحاً مثقوبةً في ثقْبِها شرائطُ مُحْكَمة، يضربون بها الفرس، فإذا صادفت الضربةُ عنقَه أو رِجلَه، نَفَذَت فيه، فيجذبونه بالحبال إلى السّاحل، ويقتلونه ثم يأكلون لحمَه.

وكان ابنُ بطوطة يَنتوي الاستمرارَ في رحلتِهِ هذه، لولا أن جاءَه وهو بمدينةٍ تدعى (تكدا) رسولُ السلطانِ أبي عَنانَ يستدعيه

إلى فاس. فيصلُها في عام ١٣٥٤ م (٧٥٤ هـ).

عاشَ ابنُ بطوطة ما عاشَ بعدَ ذلك، في رعايةِ السلطانِ العالِم أبي عَنان، يجلسُ إلى الناسِ في مسجدِ فاس، فيحدثُهم عن أنباءِ العجائبِ التي شهدَها أو سمعَ عنها في رحلاتِهِ الطويلةِ الشاقة. حتى أمرَ السلطانُ كاتبه «ابنَ جزي»، بأن يستمعَ إلى الرحالةِ الشيخ ويكتبَ عنه ما يَقُصُّ ويَحكي. ويقولُ ابن جزي إنه فَرَغَ من تسجيلِ رحلاتِ ابنِ بطوطة في شباط (فبراير) ١٣٥٥ م (ذي الحجة ٧٥٦ هـ)، تلك الرحلةُ التي أسماها:

تحفةَ الأنظارِ في غَرائِبِ الأمصارِ وعجائبِ الأسفار.

ورغمَ التفاصيلِ الدقيقةِ التي وَصَلتنا عن رِحلات ابنِ بطوطة، فتاريخُ وفاتِه ما زالَ محلَّ خلافٍ بين المؤرخين، فمن قائلٍ إنَّه تُوفي رحمَه الله في ١٣٦٩ م (٧٧٠ هـ)... إلى مَن يقول إن الوفاةَ كانت عام ١٣٧٧ م (٧٧٩ هـ). والثابتُ أنه عند وفاتِهِ، كان يتولَّى أمرَ القضاءِ في بعضِ بِلادِ فاس.

قالوا عن إنجازات ابن بطوطة:

«أيُّ سائحٍ أوروبيّ يمكنُه أن يفتخرَ بأنَّه قَضى من الزمنِ ما قضاهُ ابنُ بطوطةَ في البحثِ لكشفِ المجهولِ من أحوالِ هذا العددِ الكثيرِ من البلدانِ السّحيقة، وتحمَّلَ من مشاقِّ الأسفارِ ما تحمّله بصبرٍ وثباتٍ وشجاعة؟. بل أي أمةٍ أوروبية كان يمكنُها منذُ خمسةِ قرون أن تجدَ من أبنائِها من يجوبُ البلادَ الأجنبية، وفيه من الاستقلالِ بالحكمِ والقدرةِ على الملاحظة، والدقةِ في الكتابةِ، ما لهذا الرحالةِ العظيم؟. إنَّ ما جاءَ به من المعلوماتِ الصحيحةِ عن جِهَاتِ أفريقيا المجهولة، لا يقلُّ فائدةً عن مَعلومات (لاون) الإفريقي. أمّا جغرافيةُ بلادِ العربِ وبخارَى وكابول وقندهار، فقد أفادت من الرحلةِ كثيراً. وفيما كَتَبَه عن الهندِ وجزيرةِ سَرَنْديب من المعلوماتِ المفيدة، ما يَهيبَ بالإنجليزِ المقيمينِ في الهندِ إلى قراءتِه، لأنَّ فيه ما يفيدُهم في تفهّمِ عقليةِ السّكان».

الرحالةُ الشهيرُ والعالِمُ الكبير «ستزن»

«لا يستغنِي عن الرجوع إليه، أيُّ باحثٍ يودُّ الخوضَ في تاريخِ الأُوردو (الهند) الذهبيّ، وآسيا الوسطى. وفضلاً عن هذا،

فإن رواياته عن الصين والهند تقف في مستوى واحدٍ مع (أسفار السندباد) و(عجائب الهند)، وهو آخرُ جغرافيٍّ عالميٌّ من الناحيةِ العلمية، وقد قطعَ في رِحلاته ١٧٥ ألف ميل، فهو بهذا يُعَدُّ منافساً خطيراً لمعاصرِه الرحالةِ الأشهرِ ماركوبولو البندقي. بل إن وصفَ ابنِ بطوطة لخطِّ سيرِ رحلتِهِ أَدْعى إلى الثقةِ من ماركوبولو، وقد كان لديه إحساسٌ ذاتيّ بظروفِ حضارةِ العالَمِ الذي يصفُه، أكثرَ مما كان لدى زميلِه ومعاصرِه».

الأستاذ «كراتشوفسكي»

«إنَّه الرحالةُ الصادقُ الأَمين».

المستشرق الإيطالي «دوزي».

الشريف الإدريسي

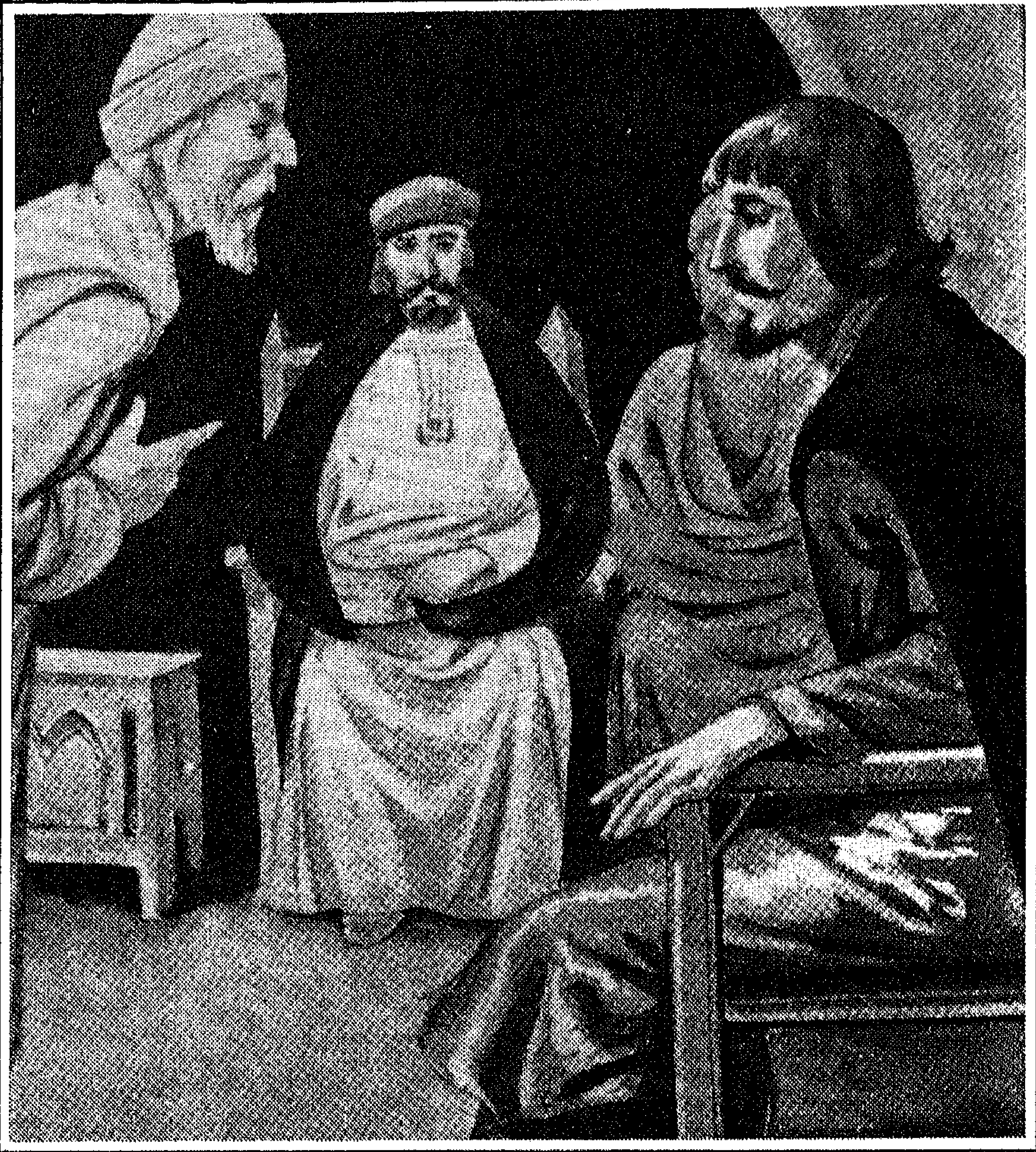
أشهر علمَاء الجغرافيا العَرب



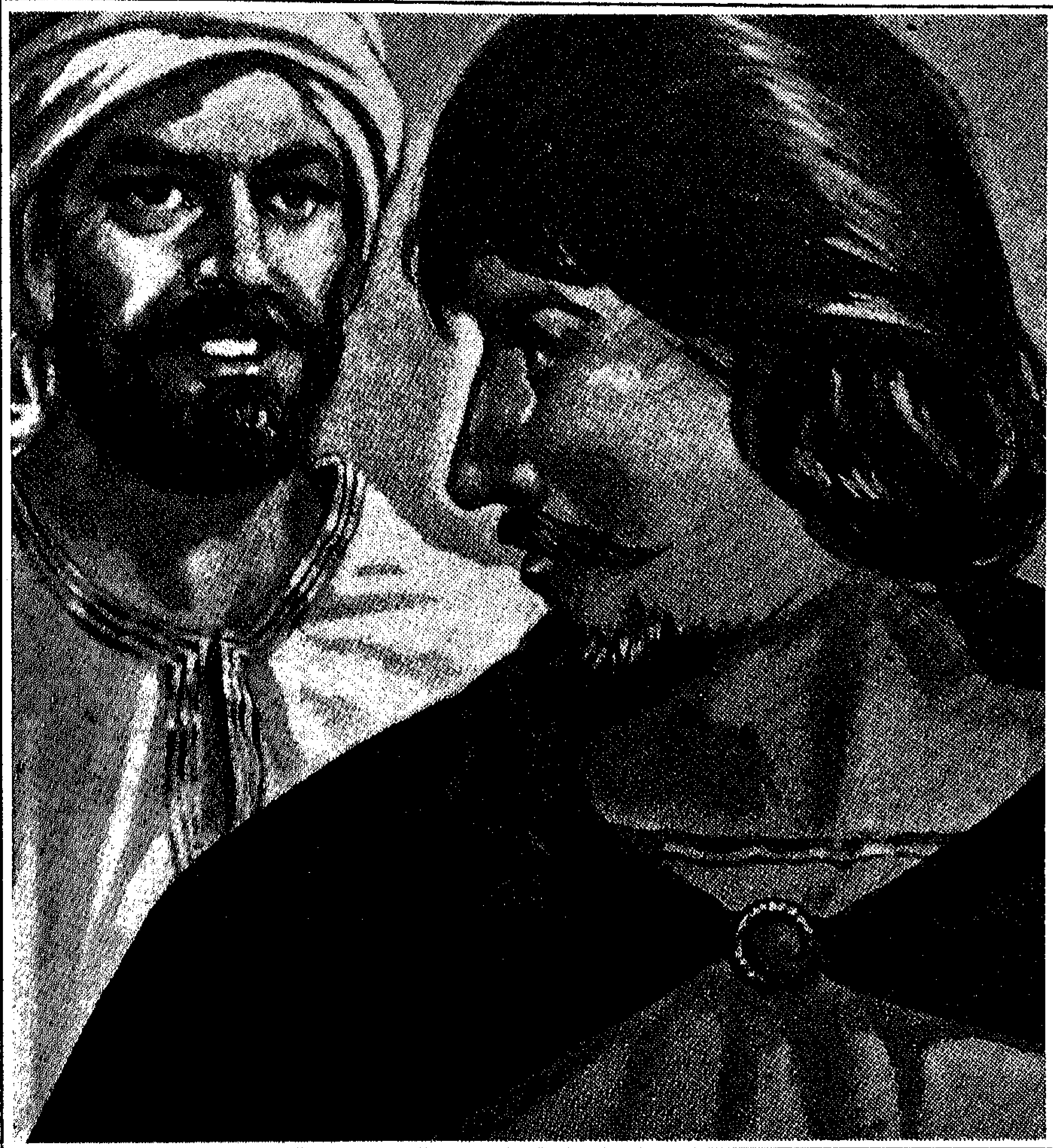
هُوَ محمد بن
محمد أبو عبدالله
الحَسَني الطالبي



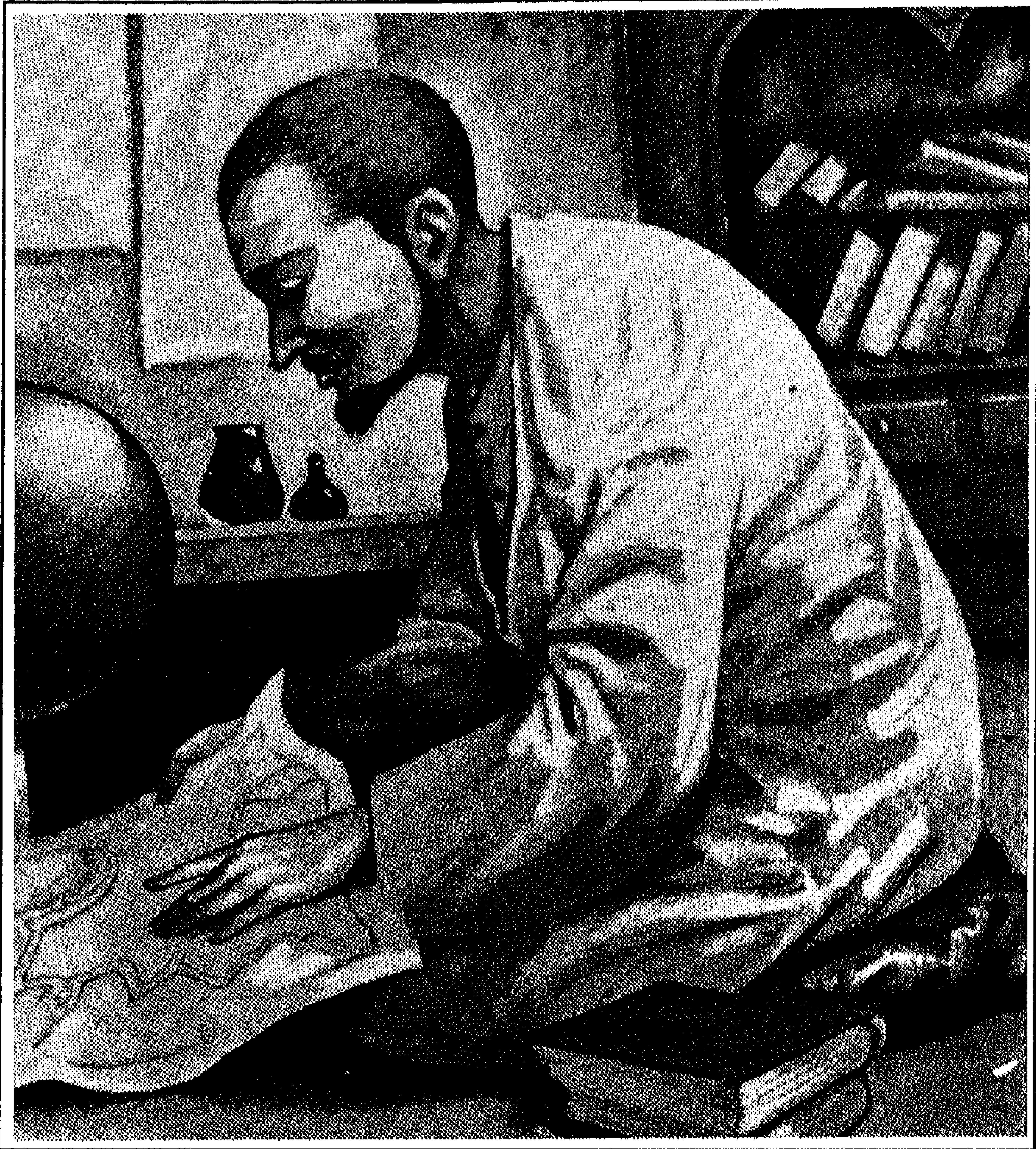
استمرَّ حكمُ العربِ لجزيرةِ صِقليّة مدةَ ٢٦٤ عاماً، فازدهرت أحوالُ الجزيرة، حتى استولى عليها الملكُ النورماندي روجر الأول. لَمَسَ الملكُ جوانبَ الحَضارةِ العربية، فأحبَّها، وأحسنَ معاملةَ المسلمين، كما قَرَّبهم إليه.



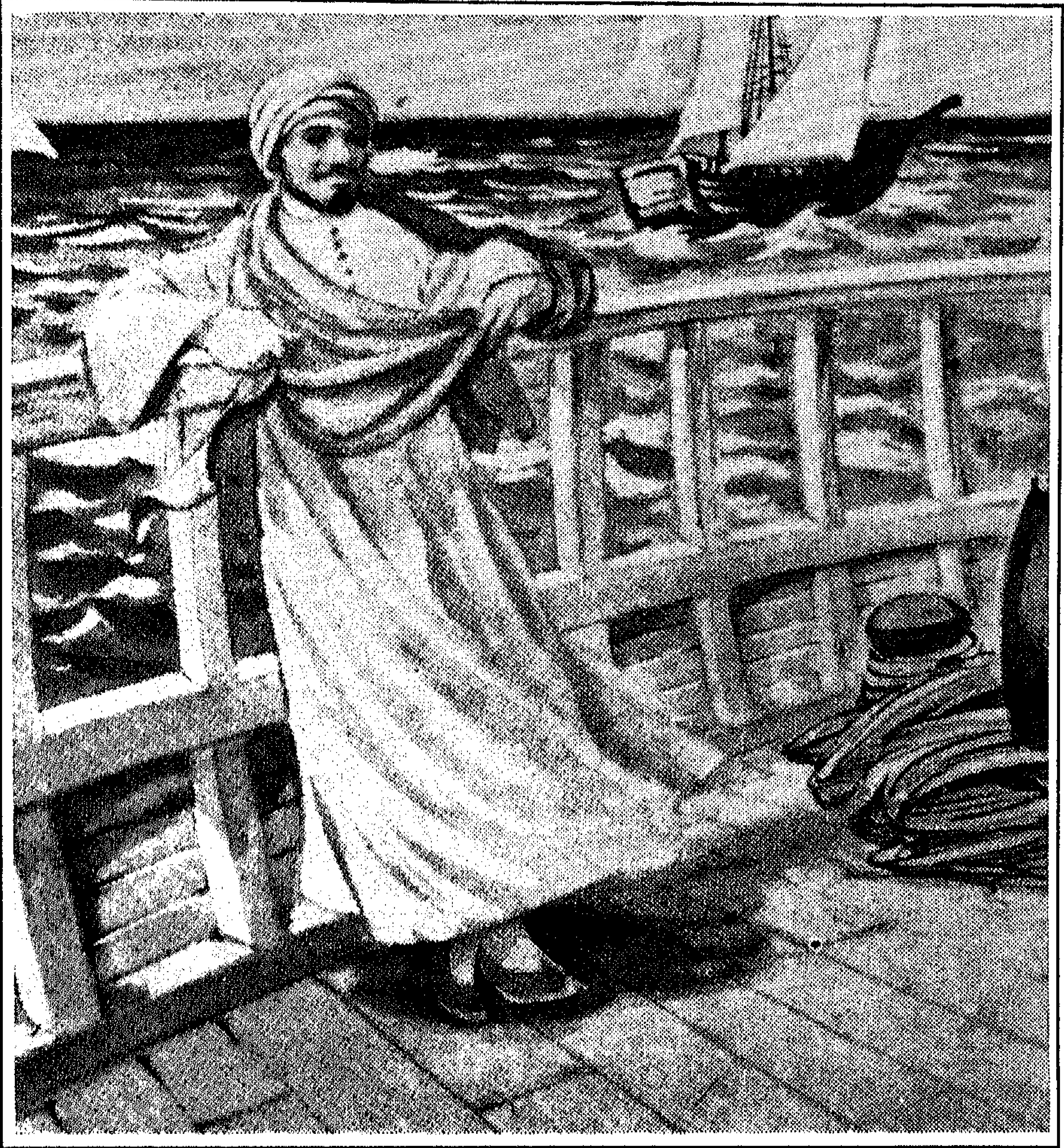
عندما مات الملك، خلفَه ابنُه روجر الثاني، الذي كان محبّاً للعلمِ والعلماء، فجمعَ حولَه حشداً من العلماءِ في مُختلِفِ التخصصات، يُنفقُ على أبحاثِهم، ويَحْرِصُ على مُجالستِهم. غير أنه كان يهوَى بصفةٍ خاصةٍ علْمَ الفلكِ والجغرافيا.



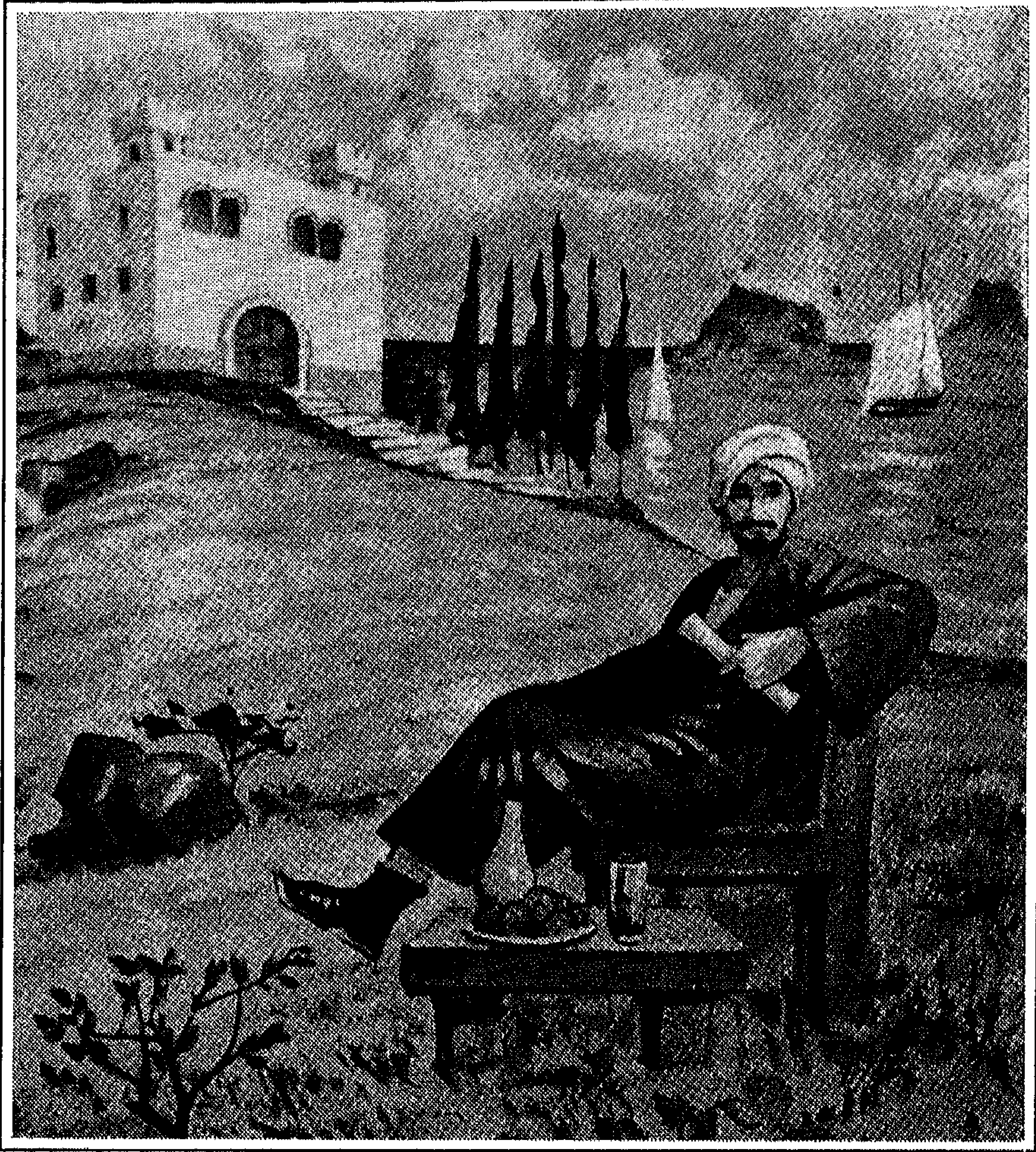
وكان من بين سكان صقليةَ في ذلك الوقت، أبو عبدِالله بنُ حمّود، واحدٌ من سُلالةِ الأدارسِة الذين حكموا شماليَّ أفريقيا والأندلس، وكان مقرّباً من الملك. تحدَّثَ أمامَه ذاتَ يومٍ عن أحدِ أقربائِه، الشريفِ الأدريسيّ عالِم الجغرافيا والطبّ. فقرَّرَ الملكُ استدعاءَه.



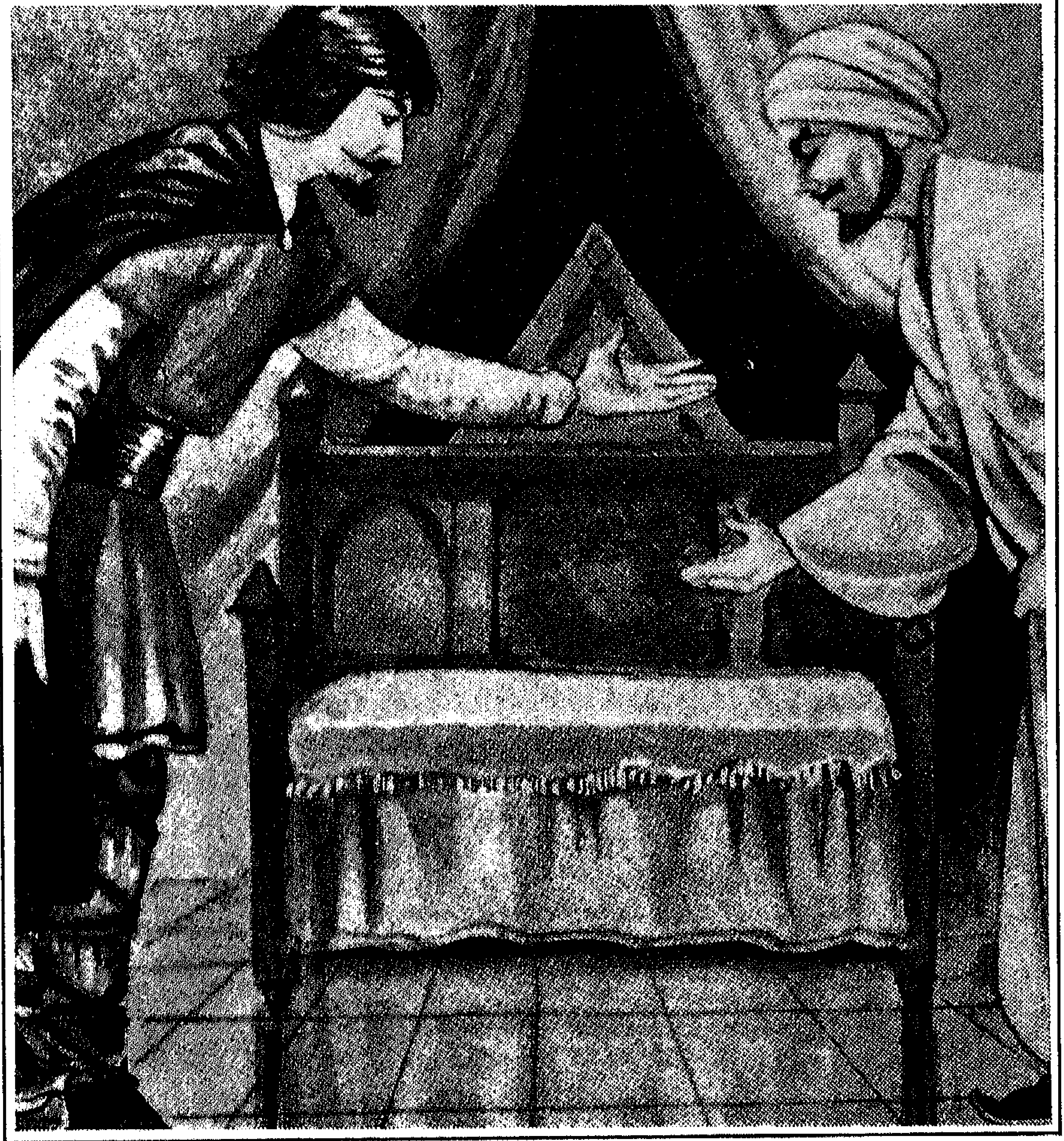
كـان الـعـالـمُ الـجـغـرافـيُّ الـشـريـفُ الإدريسيُّ في ذلك الوقت، صاحبَ شهرةٍ علميةٍ ذائعة، انتشرَ صيتُه من (سَبْتَةَ) بالمغربِ العربي، حيث كان يعيش، إلى بلادٍ مختلفةٍ بعيدة. وقد سَعِدَ الإدريسيّ بدعوةِ الملك النورماندي، لما ستتيحهُ له من فرصةِ السفرِ والدراسة.



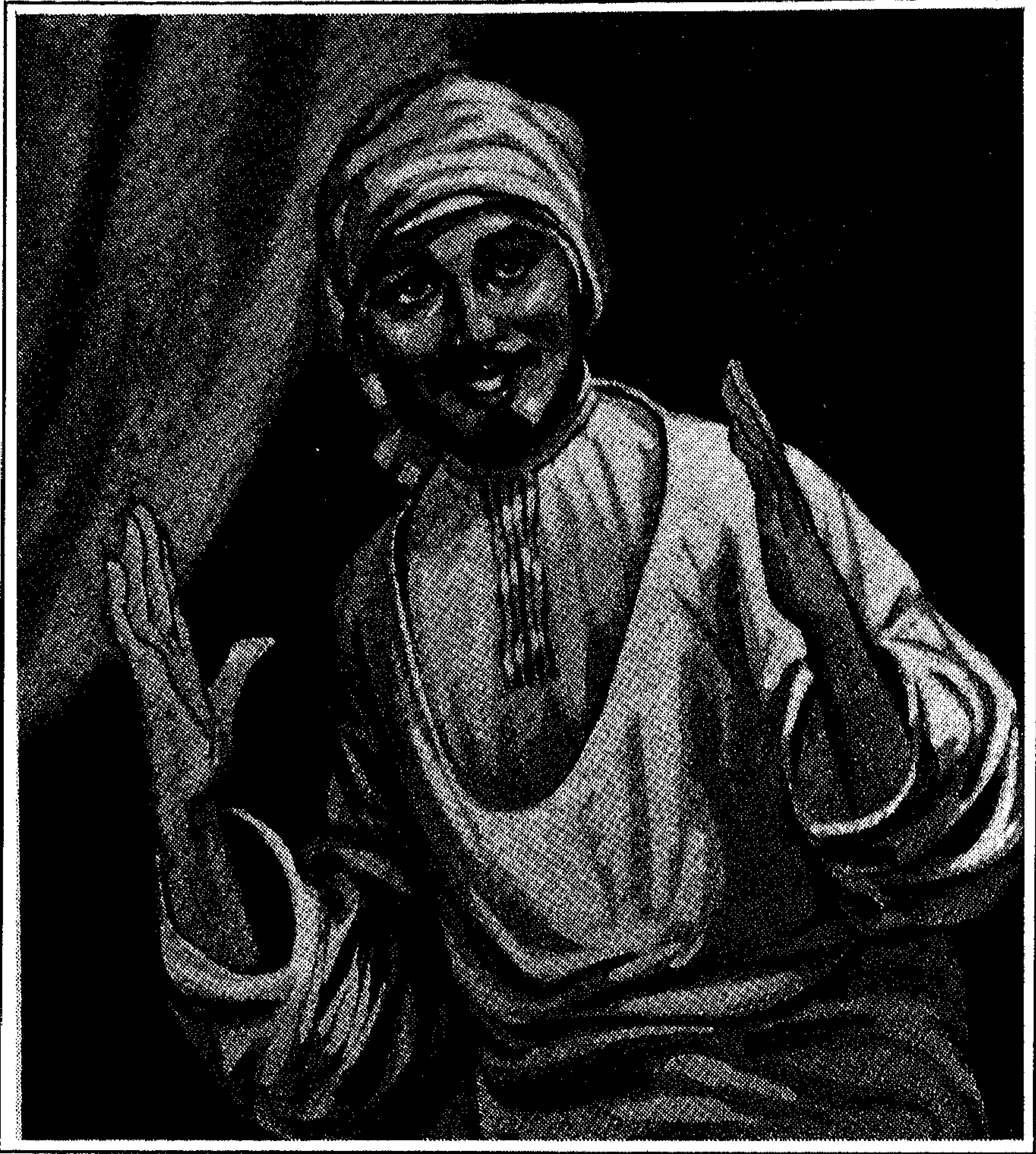
ودَّع الإدريسي أصدقاءَه، وركِبَ البحرَ مُتَّجهاً إلى صقلية، وعندما ابتعدَ مركِبُه عن الشاطئِ المغربي، أخذ يتذكرُ رحلاتِه السابقةَ التي قام بها خارجَ المغرب، والتي كتب عنها ما أكسبَه شهرتَه الواسعة. . رحلاتِه إلى الأندلسِ وفرنسا وإنجلترا.



عندما وصلَ الإدريسيّ إلى شاطئِ صقلية، لقي استقبالاً حافلاً من الملكِ روجر الثاني، فشعَرَ بالتفاؤلِ والسعادة. وقد بالغَ الملكُ في تعظيمِ العالِمِ العربيّ الإدريسي، وخصّصَ له منزلاً جميلاً يقيمُ فيه، وجعلَ له راتباً ضخماً، وعاملَه معاملةَ الأمراء.



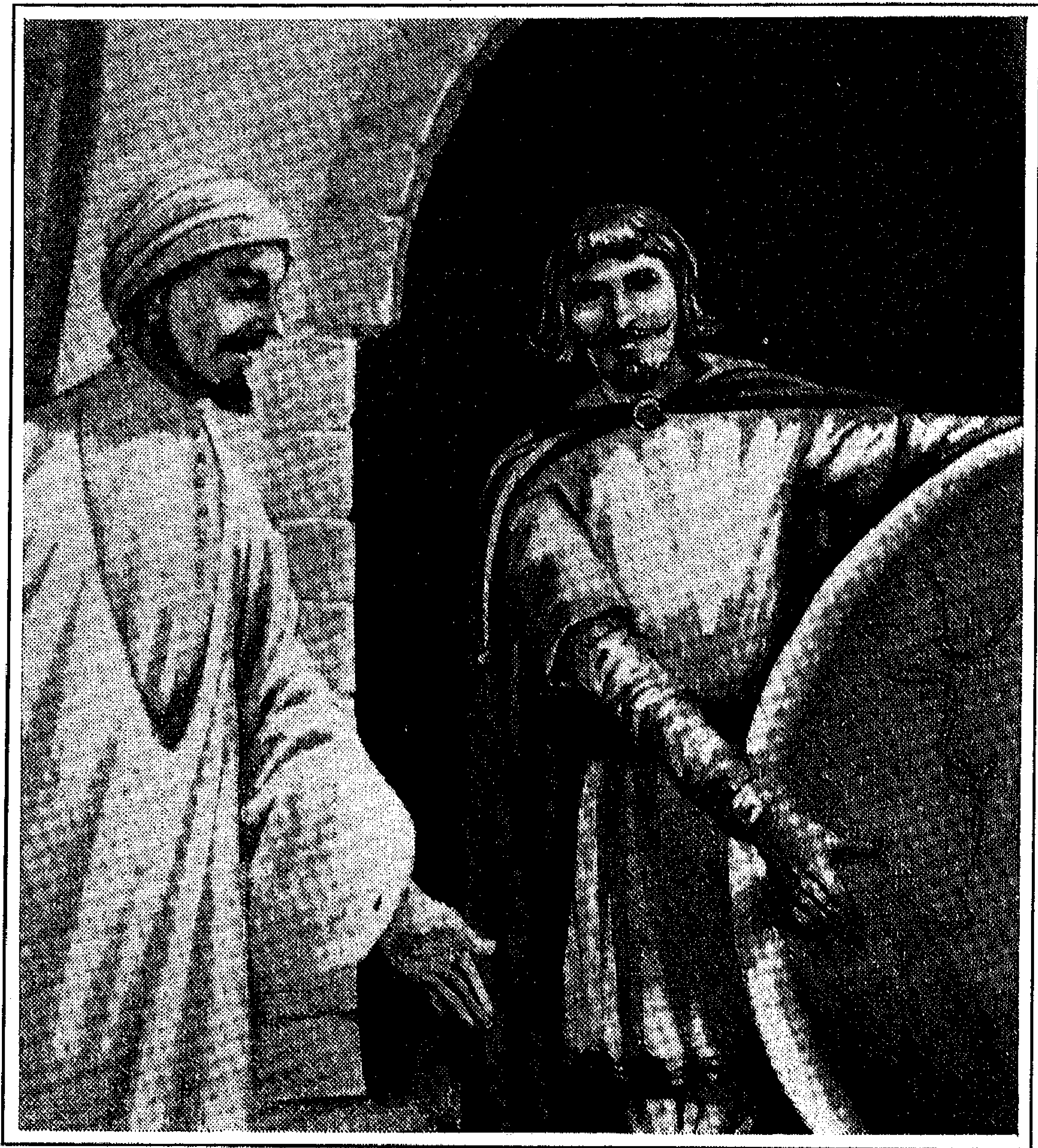
كان الإدريسيُّ يصلُ إلى مقرِّ الملكِ راكباً بغلتَه، فإذا وصلَ إلى القاعةِ تنحّى له الملكُ عن مجلسِه، فيرفضُ الإدريسي، وينتهِي الأمرُ بأن يجلسا متجاورَين. قال له الملك: أريدُ منك أن تَصنعَ لي خريطةً كبيرة، أعرفُ منها مواقعَ الممالك، والبحارِ، والجِبال.



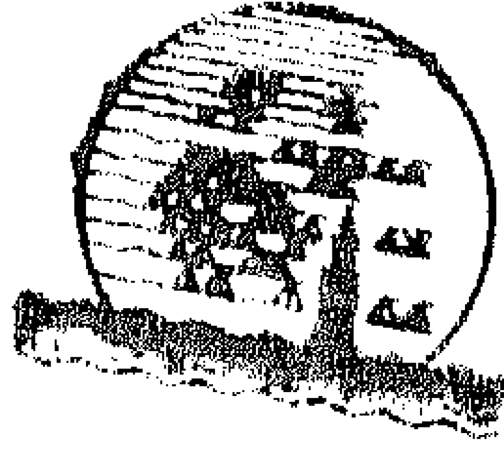
طلبَ الإدريسيُّ من الملكِ أن يأتيَه بقَدْرٍ من الفضةِ يزنُ أربعَمائةَ رطلٍ روميّ ليصنعَ منها كرةً هائلةً يَرسمُ عليها الخريطة. أسرعَ الملك روجر بتحقيقِ رغبةِ الإدريسي، وجاء له أيضاً بعددٍ من العمالِ المهرَةِ الذين سيساعدونه في صُنعِ الكرةِ ونقْشِها.



عندما انتهى العمالُ من صُنع الكرةِ الفضيَّةِ الضَّخمة، راحَ الإدريسي يشرفُ على نقشِ الخريطةِ عليها.. ويحددُ مواقعَ الممالكِ والبحارِ وأماكنِ المدنِ والجبالِ والأنهار، مما كان معروفاً في ذلك الحين، ثم طلبَ من العمالِ حمْلَ الكرةِ إلى الملك.



فرحَ الملكُ روجر الثاني بالعملِ العظيم، وراحَ يُقلّبُ الكرةَ من جانبٍ لآخر، ويستمعُ إلى شرحِ الإدريسيّ لما رَسَمَ عليها. وقال الإدريسي آخرَ الأمر: الحقيقةُ يا مولاي، إننا لم نستخدمْ سوى ثُلثِ مقدارِ الفضةِ التي طلبناها. فقال الملكُ متحمّساً: فلتقبلْ الثُّلثين مكافأةً لك على عملِك.



الرحلةُ الأولى إلى قُرْطُبة:

هو الشريفُ الإدريسي... محمدُ بنُ محمدِ بنِ عبدِ الله بنِ إدريسِ الحَسَني الطالبي، أبو عبدِ الله المعروفُ بالشريفِ. والشريفُ لأن نسبَه يمتدُّ إلى الحسنِ بنِ عليّ بنِ أبي طالب... والإدريسيُّ نسبةً إلى جدِّه الأعلى الذي أسسَ دولةَ الأدارسةِ بالمغرب. وُلد بمدينة «سبتة» بالمغربِ عام ١١٠٠ م (٤٩٣ هـ)، وهي مدينةٌ مَغربيةٌ قديمة، شهدت قروناً من العهدِ المسيحي، كما شَهدت فترةً غيرَ قصيرةٍ من عهدِ ما قبلَ المسيح.

كان يحكمُ سبتةَ أيامَ الفتحِ العربيّ للأندلس الكونت يوليان، ويقال إن هذا الحاكمَ أمدَّ القائدَ الإسلاميَّ طارقَ بنَ زياد بكل التسهيلات والمُعدّاتِ اللازمةِ لعبورِ البحرِ والاستيلاءِ على إسبانيا، غيرَ أن العربَ استولَوا بعدَ ذلك على سَبتة. وقد تعرّضت سبتةُ خلالَ تاريخِها الطويلِ لعددٍ من الحوادثِ والحروبِ والغارات. فقد غَزاها في منتصفِ القرنِ الثاني الهجريِّ أهلُ طَنجةَ من البربر، وأرغموا العربَ على الخروجِ منها، كما قاموا بتخريبِ المدينةِ تخريباً تامّاً أثناءَ غزوِها.

وقد بقيت سبتة، مسقطُ رأسِ الإدريسي، موضعاً للنزاع بين مغاربةِ الأندلس، وحكامِ المغرب. فقد كان حكامُ الدولةِ الأمويةِ بالأندلسِ يَحْرِصون على الاحتفاظِ بها، رغمَ أنها تقعُ على الشاطىءِ الافريقيِّ المقابل، لأن الموقعَ الممتازَ الذي كانت تتميزُ به سبتة، جعلَها مَنْفَذاً إلى أفريقيا.

ونتيجةً لاختلاطِ الحضاراتِ والأجناس، أصبحت سبتةُ مركزاً حضارياً، وأنجبت الكثيرَ من العلماء، واجتذبت إليها عدداً آخرَ من العلماء، جاءوا من بعيدٍ ليستقرّوا بها. وقد تأثّرت سبتةُ دائماً بما كان يَجري حولَها في المغربِ العربي، أو في الأندلس.. أو حتى في صِقِلّية. كما تأثرت بما يجري في المملكةِ الإسلاميةِ العربيةِ الواسعةِ في المشرقِ والمغرب.

وقد ازدحمَ القرنُ الذي عاشَ فيه الشريفُ الإدريسي، القرنُ السادسُ الهجري، بأعدادٍ من كبارِ الأدباءِ والشعراءِ وعلماءِ اللغةِ والتاريخِ والعلومِ الإسلاميةِ والوضْعية.

كما تميَّزَ القرنُ الذي عاشَ فيه الإدريسيُّ بأحداثٍ جسام، كان لها تأثيرُها الواضحُ في أوضاعِ العربِ والمسلمين. مثالُ ذلك، الحروبُ الصليبيةُ بحَمَلاتِها المتعاقبة، وسقوطُ صقليةَ التي حكمَها العربُ على مدى أكثرَ من قرنين ونصفِ القرنِ في يدِ النورمانديين، كذلك الأخطارُ التي أحاطت بالمسلمين في الأندلس، والتي كان من نتيجتِها أن سقطَ العديدُ من العواصمِ العربيةِ بالأندلس.

وُلدَ الشريفُ الإدريسي بمدينةِ سبتةَ المغربية، ولا يَعلمُ أحد شيئاً عن ظروفِ حياتِه الأولى بالتفصيل: أين درسَ دروسَه

الأُولى؟. . وعلى مَن تتلمذ؟. . وما هي الظروفُ الاجتماعيةُ التي ترعرعَ وسطَها؟. لكنَّ المعروفَ أن الشريفَ الإدريسيَّ سافرَ إلى مدينةِ قرطبةَ الأندلسيةِ ليتلقَّى العلمَ فيها، حيث كانت في ذلك الوقتِ من أكبرِ مراكزِ الثقافةِ العربيةِ الإسلامية.

ولعلَّ سفرَ الإدريسيِّ إلى قُرطبة، كان الاستهلالَ الطبيعيَّ لأسفارِه ورحلاتِه التي قامَ بها بعد ذلك إلى أنحاء مختلفةٍ من العالمِ المعروفِ حينذاك. لقد انتهزَ الإدريسيُّ فُرصةَ وجودِه في قرطبة، ليقومَ بجولاتٍ واسعةٍ في المدنِ الأندلسية. وكانت عودتُه إلى سبتةَ بعد ذلك، إيذاناً بجولاتٍ أخرى يقومُ بها إلى بلادِ المغربِ المختلفة. وهكذا أصبحَ الشريفُ الإدريسيُّ خبيراً جغرافياً في بلادِ المِنْطَقة.

ورحلاتُ الإدريسي إلى بلادِ العالمِ المختلفةِ تتباينُ فيها آراءُ الباحثين، فلا يُعرفُ على وجهِ التحديدِ أيُّ البلادِ هي التي كتبَ عنها وَفقاً لمشاهداتِه الشخصية، وأيُّها كتبَ عنه مستعيناً بالمراجعِ الجغرافيةِ التي وضعَها مَن سَبقوه من علماء. لكنّ حديثَه عن الأندلسِ والمغربِ ولشبونةَ وسواحلِ فرنسا وانجلترا الجنوبيةِ وآسيا الصغرى، يبدو حديثَ الممارسةِ الخاصّة، ويجيءُ نتيجةً لزياراتٍ قامَ بها إلى تلك البلاد.

غيرَ أن الرحلةَ التي لا نجدُ حولَها خلافاً، كانت رحلتَه إلى جزيرةِ صقليةَ عام ١١٣٨ م (٥٣٣ هـ).

سقوطُ صِقلّية:

قبلَ أن نأتيَ على ذكرِ الزيارةِ التي قام بها الإدريسيُّ إلى صقلية، يَجدُرُ بنا أن نعرفَ شيئاً عن أوضاعِ الجزيرةِ في ذلك الحين.

إن قصةَ دخولِ العربِ والمسلمين إلى جزيرةِ صقليةَ بالبحرِ الأبيضِ المتوسط، تعتبرُ من أروعِ قصصِ البطولةِ والشجاعةِ والإقدام. لقد فتحَ العربُ هذه الجزيرةَ عام ٨٧٨ م (٢٦٥ هـ)، وخَضَعت الجزيرةُ لهم تَماماً على مدَى ٢٦٤ سنة. وفي عامِ ١٠٩٠ م (٤٨٣ هـ) استولَى النورمانديون على الجزيرةِ بعدَ معاركَ طويلةٍ بين الجيشِ العربيِّ المدافعِ عن الجزيرة، وأسطولِ الملكِ النورماندي روجر الأول.

ولقد تحدَّثَ المستشرقون الأوروبيون عن حُكمِ العربِ في هذه الجزيرة، وأشاروا إلى عدالةِ الحكم، وازدهارِ الجزيرةِ الحضاريِّ في عهدِهم. فقد عَرفت الجزيرةُ عهداً جديداً، عندما انتقلت مقاليدُ الحكم إلى يدِ العرب. وعندما استولى الغزاةُ النورمانديون عليها، بَهَرتهم الحضارةُ الراقيةُ التي وَفَّرها الحكمُ العربيُّ الإسلاميُّ في الجزيرة. وقد انعكسَ إعجابُهم بآثارِ الحكمِ العربي، على موقِفهم من العربِ المسلمين من سكانِ الجزيرة، الذي اتَّسمَ بالتسامح. كما عَمَدَ النورمانديون إلى الإبقاءِ على الكثيرِ من مظاهرِ الحكمِ العربيّ السائدةِ في الجزيرة، رغمَ غرابتِها بالنسبةِ للأوروبيين، وعدمِ تعوّدِهم عليها.

تقول المراجعُ إن الملوكَ النورمان اتّخذوا مع رعاياهم من

المسلمين موقفاً متسامحاً من الناحيةِ الدينية، فتركوا للمسلمين حريةَ إقامةِ الشعائر، ولم يتعرّضوا لهم بسببِ تمسّكِهم بدينِهم، الأمرُ الذي لم يكن له شبيهٌ في مواقفِ الغزاةِ الأوروبيين الآخرين، في مواقعَ أخرى من العالمِ الإسلامي. بل قال البعضُ إنهم كانوا لا يأذنون للمسلمِ أن يرتدَّ عن دينِ الإسلام، ويدخلَ في دينِ الحاكمِ المسيحي الجديد.

برغم هذا التسامح، فقد أبى الكثيرُ من العربِ المسلمين أن يَبْقَوْا في الجزيرةِ بعدَ أن خرجَ حكمُها من أيديهم، فهاجرَ أغلبُهم إلى أقربِ البلادِ الإسلاميةِ إليه، منتقلاً من شاطىءِ صقليةَ إلى الشاطىءِ الأفريقيِّ المقابل. تجمعت أعدادٌ ضخمةٌ من المسلمين، فركبوا سفنَهم الكثيرةَ التي كان الشاطىءُ الصقليُّ يزدحمُ بها، واختاروا أقربَ البلادِ الإسلاميةِ إليهم، توفيراً للنفقةِ والجُهد.

أما باقي المسلمين، وكانوا كثيرين، فقد اختاروا البقاءَ في الجزيرة، لا يتركون أرضَهم وأرضَ أجدادِهم الذين سكنوها على مدى ٢٥٠ عاماً. وشجعَهم على هذا، ما لمسوه من حِرصِ النورمانديين على تقاليدِهم، وحريتِهم في ممارسةِ شعائرِهم الدينية. ومن المعروفِ أن الملكَ النورماندي روجر الأول، غازِي الجزيرة، لم يكتبِ بالتسامحِ الدينيّ بالنسبةِ للمسلمين وحسب، بل تركَ لهم حريةَ التمتعِ بثرواتِهم ومتاجرِهم ومصانعِهم، فلم يَسْتولِ على شيءٍ منها، وشجعَ المسلمين على استثمارِ رؤوسِ أموالِهم، وتحسينِ صناعاتِهم، والتوسعِ في زراعاتِهم.

بالإضافةِ إلى هذا، حَرَصَ ملوكُ النورمان على اللغةِ العربية،

قراءةً وكتابة، فكانوا يتذوَّقون الأدبَ والشعرَ العربي، وكانوا يطربون لسَماعِ الأشعارِ العربية، وتركوا للغةِ العربيةِ مكانَ الصدارةِ في المعاملاتِ الحكوميةِ واليومية. كانت وثائقُ تَولّي الواحدِ منهم للملك، تُكتبُ باللغةِ العربية، ثم اللاتينية، ثم اليونانية. أما النقودُ التي سَكّوها، فقد كانت عليها بياناتٌ عربيةٌ ضمنَ بياناتِ اللغاتِ الأخرى. بل إن عبارة «لا إله إلاَّ الله محمدٌ رسول الله» كانت تبدو واضحةً على النقودِ التي تَداولوها في عهدِهم.

ويقال إن الملكَ النورماندي روجر الثاني جعلَ بَلاَطه شبيهاً ببلاطِ الأمراءِ المسلمين، مخالفاً بذلك عاداتِ الحكام السابقين، أو المجاورين، فأكثرَ من الحُجّابِ والحرس، كما أنشأَ أنواعاً من الدواوينِ تعتبرُ امتداداً للديوانِ العربيِّ الإسلامي.

فأقيمَ في عهدِه ديوانُ المظالمِ المعروفُ في الدولةِ الإسلامية، وكان الناسُ يَرفعون شكاواهم إلى ذلك الديوان، فينالون حقَّهم ولو كان خصمُهم ابنَ الملكِ نفسِه. كما أُنشئ في عهدِ روجر الثاني ديوان «الطراز»، وهو الذي يتولّى صنعَ الأرديةِ الحريريةِ الجميلة، التي كان يجري تزويقُها بزخارفَ إسلاميةٍ وعربية. وكان الملك روجر الثاني سعيداً بأن يضعَ على كتفيه عباءةً من صُنع ذلك الديوان. وغيرُ هذا كان هناك ديوان «التحقيق المعمور»، ومَهمّتُه كانت الإشرافَ على الأرضِ الزراعيةِ وصيانتِها، ورعايةِ من يعملُ عليها من الفلاحين. كلُّ هذه الدواوين كانت لها نظائرُها في أنظمةِ الحكمِ الإسلامي السابقةِ على حكمِ النورمانديين.

الحمايةُ الكاملة:

كان أولُ الملوك النورمانديين، الملكَ روجر الأول، وهو الذي انتزعَ صقليةَ من يدِ العربِ في القرنِ الخامسِ الهجري. وقد بهرته الحضارةُ العربيةُ بما فيها من رُقيّ، وما تعكِسُه مِن قِيَم، فمالَ إليها، وعَمَدَ إلى استعارةِ عناصرِها، وتقليدِ مظاهرِها.

ثم جاء بعدَه ابنُه الملكُ روجر الثاني، الذي استدعَى الشريفَ الإدريسيَّ إلى صِقلية. وعن روجر الثاني يقولُ الإدريسيُّ في كتابِه المعروفِ (نزهة المشتاق في اختراقِ الآفاق) «. . ولما صارَ أمرُ صقليةَ إليه، واستقرَّ بها سريرُ ملكِه، نشرَ سيرةَ العدلِ في أهلِها، وأقرَّهم على أديانِهم وشرائعِهم، وأمَّنَهم في أنفسِهم وأموالِهم، وأهلِيهم وذَرَارِيهم. . ».

ومن فَرْطِ حسنِ معاملةِ الملكِ روجر الثاني للمسلمين الذين كانوا يقيمون في صقلية، ورعايتِه لهم، أن اعتقدَ أبناءُ الشعبِ النورماندي الذين فَتَحوا الجزيرةَ مع أبيه، أنه اعتنقَ الإسلامَ ديناً. ورغمَ أن هذا الاعتقادَ لم يكن صحيحاً، فقد كان لقومِ الملكِ روجر بعضُ الحقِّ في الأخذِ بمثلِ هذا الاعتقاد. فقد كان غريباً أن يقفَ ملكٌ مسيحي من العربِ المسلمين هذا الموقف، وقد استولَى أبوه على الجزيرةِ منهم. خاصةً وأن الملِكَ روجر الثاني رفضَ محاولةَ رجالِ الدين المسيحي التحكُّمَ في المسلمين من سكانِ الجزيرة، أو التسلطَ عليهم.

ولعلَّ خيرَ وصفٍ لهذا، ما جاءَ على لسانِ المؤرخِ كروثر جوردون في دائرةِ المعارفِ الإسلامية، عن أحوالِ المسلمين أثناءَ

حكمِ روجر الثاني لصقليةَ فقال «.. بل نَعِموا أيضاً بحمايةِ روجر حمايةً كاملة. ذلك أن روجر لم يكن متحزّباً في مسيحيتِه، ثم إنه شجعَ هؤلاء المسلمين على تنميةِ مواهبِهم، إن لم يكن قد شجعَهم على أن ينشُروا دينَهم، بل لقد اتُّهِمَ هو نفسُه بأنه مُسلم. ذلك لأن روجر كان رجلاً غيرَ مثقّف، وإذ رأى بعينيه اللتين لم تُظلِّلْهما غشاوةُ التعصُّب، عبقريةَ العربِ العظيمة، أبى أن يقتلَ رُوحَ هذه العظمة، فمنحَ المسلمين الحريةَ التامةَ في ممارسةِ شعائرِ دينِهم، بل حَرَّمَ على المسيحيين أن يبشِّروا بدينِهم بين المسلمين، وأخذَ بنظامِ الإدارةِ الإسلامي..».

ويؤكدُ مؤرخون آخرون، أن روجر الثاني أبقى على العمال والموظفين المسلمين في مناصبِهم، وفي مواقعِ أعمالِهم التي كانوا بها قبلَ الفتحِ النورماندي، فظلوا يعملون ويُنتجون في أمانٍ وتحتَ رعايتِه. ويقال إن معظمَ تجارِ (بالرمو) العاصمةِ الحاليةِ لصقلية، في أثناءِ حكمِ النورمانديين كانوا من المسلمين.

ولعلَّ المؤرخَ كروثر جوردون عندما قال إن الملكَ روجر الثاني كان رجلاً غيرَ مثقف، كان يقصِدُ أنه لم يكن متعصّباً أو متحيّزاً. ذلك أنه من الأمورِ التي أجمعَ عليها كان يَحشِدُ في بلاطِه العلماءَ من كلِّ تخصّص، ويُسهّلُ لهم أدواتِ البحث، وينفقُ عليهم الأموالَ بلا حساب، ويساعدُهم على تذليلِ كلِّ العقبات التي تعترضُ طريقَ عملِهم. فيقول المستشرقُ ميلر: إن الملكَ روجر الثاني كان ملتقَى الحَضَارتين، وموئلَ الحريةِ العلميةِ في القرنِ الثاني عشرَ الميلادي.

بل لقد شهدَ الشريفُ الإدريسي أنَّ الملكَ روجر الثاني نفسَه كان صاحبَ معرفةٍ بالعلومِ الرياضيةِ والعملية، وأنه كانت له في مخترعاتِ العلمِ مشاركاتٌ وابتداعاتٌ غريبة. وأنه شجّعَ الحركةَ العلميةَ في الجزيرة، فاستحضرَ إليها الكتبَ العربيةَ واليونانيةَ مهما كانت أثمانُها، فوجدَ العلماءُ في كَنَفِه حمايةً ورعايةً وتشجيعاً. «.. وكثرَ الأطباءُ والمنجّمون وعلماءُ الفلكِ في عهدِه، فأجزلَ لهم العطايا، وشجعَهم على أبحاثِهم».

سرُّ الوَسَاطة الغامضة:

ومن بين العلماءِ الذين حَرَصَ روجر الثاني على استقدامِهم، كان الشريفُ الإدريسي. استدعاه إلى صقلية، حتى يتفرغَ لوضعِ مرجعٍ جغرافي شاملٍ مع رسمِ خريطةٍ سليمةٍ للعالم.

وهنا.. نتساءل: كيف عَرَفَ الملكُ روجر الثاني الشريفَ الإدريسي؟. وكيف وصلته أخبارُ النشاطِ الجغرافيِّ لذلك العالِمِ العربي؟. ذلك التساؤلُ الذي جاء على لسانِ المستشرقِ الروسيِّ كراتشكوفسكي، عندما قال إن الإدريسيَّ عبرَ البحرَ إلى صقليةَ في ظروفٍ يشوبُها الغُموض. ومنشأُ هذا الغموض، هو أن أحداً لم يذكرْ ظروفَ هذه الرحلة، حتى ولا الإدريسيُّ نفسُه.

والمستشرقُ الروسيُّ يقول إن المعقولَ هو هجرةُ العربِ مِن صقليةَ التي احتلها النورمانديون إلى دولةٍ أو إمارة أو إقليم عربيّ يخضعُ للحكمِ الإسلامي. وقد حدثَ بالفعلِ أنْ هاجرَ الكثيرُ من العربِ المسلمين من جزيرةِ صقلية خلالَ الفتحِ النورماندي قاصدين إلى الشاطىء الإفريقيِّ على السفنِ الكثيرةِ التي كانت لهم. حدثَ هذا بتدفقٍ شديدٍ في بدايةِ الأمر، ثم هدأت حدّةُ هذه الهجرةِ شيئاً

فشيئاً. فكيف مع هذا ينتقلُ الشريفُ الإدريسي من الشاطىء الافريقيّ إلى صِقلية... ومتى؟ بعد ضَيَاعِها من يدِ العرب!

ثم سؤالٌ آخر: كيف سَمِعَ روجر الثاني، وهو في صقلية، أن هناك على الشاطىء الافريقي المواجهِ عالِماً عربياً متفوقاً اسمُه الشريفُ الإدريسي؟... وكيف عرفَ أن ذلك العالِمَ من المتبَحِّرين في علمِ الجغرافيا، يستطيعُ أن يحققَ له أحلامَه في تأليفِ مرجعٍ جغرافي شاملٍ للعالَمِ المعروفِ آنذاك، ورسْمِ خريطةٍ سليمةٍ لذلك العالَم؟...

كل ما ذكره الشريفُ الإدريسيّ عن قيامِ الصلةِ بينه وبين الملكِ روجر الثاني، هو قولُه في مقدمةِ كتابِه «نزهة المشتاق...»: «فمن بعضِ معارفِه السَّنِيّة، ونَزَعاتِه الشريفةِ العُلْوِيّة، أنه لما اتّسعت أعمالُ مملكتِه، وتزايدت هِممُ أهلِ دولتِه، وأطاعتْه البلادُ الرومية، ودخلَ أهلُها تحتَ سلطانِه وطاعتِه، أحبَّ أن يعرفَ كيفيةَ بلادِه حقيقة، ويقتلَها يَقيناً وخبرة، ويَعْلَمَ حدودَها وممالكَها براً وبحراً، وفي أيّ إقليمٍ هي، وما يخصُّها من البحار، والخُلجانِ القائمةِ بها، معَ معرفةِ غيرِها من البلادِ والأقطار...».

وكلماتُ الإدريسي لا تكشفُ عن سرِّ هذه الرحلةِ إلى صِقلية، ولا عن الطريقةِ التي تعرّف بها روجر الثاني عليه، أو استدعاه بها. وهكذا، لم يكن أمامَ المؤرّخين إلا أن يضعوا الفروضَ للإجابةِ عن مثلِ هذه الأسئلة، ثم يُحاولوا إثباتَ الفروض التي وضعوها.

يقولُ البعضُ إن جزيرة صقلية كانت ملجأً لبني حَمّودِ الأدارسة عندَما انتهت دولتُهم في الأندلس. ومن المعروف أن

إدريسَ الثاني، جدَّ الشريفِ الإدريسي، كان أحدَ ملوكِ بني حمود. ومن هنا يقولُ هؤلاء، إن الإدريسيَّ ربما كان ماراً بالجزيرة في رحلةٍ من رحلاتِه، وإن أحدَ هؤلاء الأمراءِ أبلغَ الملكَ روجر الثاني بخبرِ وصولِ الإدريسيِّ فاستدعاه. ويذهبُ البعضُ إلى أنَّ أحدَ أمراءِ بني حمود نَقَلَ خبرَ تفوّقِ الإدريسيِّ إلى الملك، فاستدعاه من سبتةَ التي كان يعيشُ فيها.

أما المستشرقُ البولندي لفيتسكي فيعرضُ رأياً غريباً له. ويعتقدُ أن اهتمامَ روجر الثاني بالإدريسيّ لم يكن بسببِ وزنِه العلمي، وإنما بسببِ شخصِه كعضوٍ في بيتِ الأدارسةِ المنذثرِ في الأندلس، وأنه قد تكونُ لديه مطامعُ في المطالبةِ بعرشِ الأندلس. وهكذا يمكنُ للملكِ روجر الثاني أن يستغلَّه كواجهةٍ في غزوِ الأندلس، ليُشيعَ بذلك أغراضَه في التوسعِ غربيَّ البحرِ الأبيض، بعدَ أن بسطَ نفوذَه على شرقيِّ البحرِ الأبيضِ. غيرَ أن الأحداثَ التاليةَ لوصولِ الإدريسيّ إلى صقلية لا ترجّحُ هذا الفَرْض. فقد ظهرَ بوضوحٍ أن همَّ الملكِ روجر الثاني كان الاستعانةَ بالإدريسي في إنجازِ المرجعِ الجغرافيّ الشامل، ورسمِ الخريطةِ المجسّمةِ للعالم.

وأخيراً، يرى البعضُ أن الوسيطَ الذي قامَ بالتعارفِ بينهما، هو أبو عبدِ الله محمدُ بنُ أبي القاسم بنِ حمّود، أحدُ أبناءِ الأدارسةِ المقيمين بصقلية. تعرّف على مكانةِ ابنِ عائلتِه، الذي تفوّقَ في عددٍ من العلوم، ومن بينها الجغرافيا، فنقلَ خبرَه إلى الملك روجر الثاني، مما دفعَ الملكَ إلى أن يرسلَ إليه طالباً مجيئَه إلى صقليةَ والإقامةَ بها.

نُزهةُ المشتاق في اختراقِ الآفاق:

أياً كان الأساسُ الذي بارحَ بموجبهِ الشريفُ الإدريسيُّ الشاطئ الافريقيَّ الشماليَّ متجهاً إلى صقلية، فالذي يهمُّنا في الأمر، أنه ما كادَ يصلُ إلى صقلية، حتى أصبحَ موضعَ الاحترامِ والرعايةِ والتقديرِ من الملك روجر الثاني، وكلِّ مَن يعملُ في بَلاطِه.

ويروي المؤرخون كيف رحَّبَ الملكُ بالإدريسي عندما وصلَ إلى بلاطِه «فلما وصلَ إليه أكرمَ نزلَه، وبالغَ في تعظيمِه». ولم يقتصرْ توقيرُ الملكِ وتبجيلُه للإدريسي على النواحي الأدبية، بل تعدّاه إلى التكريمِ المادّي والمساعدةِ الماليةِ السخية. فبعدَ اللقاءِ الأولِ بينهما، وعندما تأكدّ من قبولِ الإدريسيّ للإقامة في بلاطه، خصصَ له من المرتّبات ما لا يكونُ إلا للملوك.

وفي ما يلي بعضُ ما وصف به المؤرخون استقبالَ الملكِ روجر الثاني للإدريسيّ «بلغَ من إكرامِه له، أنه كلما دخلَ عليه هرعَ لاستقبالِه عند الباب، ثم أجلسَه إلى جانبِهِ على سريرِ المُلْك، حتى إذا ما أتمَّ المحاضرةَ معه، وأفادَ بما أرادَ ثم همَّ بالخروج، شيّعَه

الملكُ بنفسِه إلى عَتَبةِ القصر. .».

ماذا فعلَ الإدريسيّ لتحقيقِ رغبةِ الملكِ روجر الثاني في تأليفِ مرجعٍ جغرافي شامل؟. لعلّنا نجدُ الإجابةَ عن هذا السؤالِ في قولِ الباحثِ بالنثيا «. . ولما كان روجر قد رَغِبَ في أن يكونَ لديه كتابٌ في صفةِ الأرض، مؤلَّفٌ عن مشاهدةٍ مباشِرة، لا مستخرجٌ من الكتب، فقد تصدَّى الإدريسيُّ لوضعِ ذلك الكتاب، وانتخبَ نفراً من أذكياءِ الرجال، وبثَّهم في شتّى النواحِي يصاحبُهم الرسّامون، وجعلَ يتلقَّى ما يعودون به، ويسجِّلُه أولاً بأول، وفَرَغَ من كتابِه سنة ١١٥٤ م (٥٤٨ هـ)، ثم أضافَ إليه أجزاءً أخرى فيما بعد، وسمّاه «نزهة المشتاق في اختراقِ الآفاق».

ولكي نأخذَ فكرةً عن أهميةِ المرجعِ الكبير الذي قام بتأليفِه الشريفُ الإدريسيّ، نعرضُ رأيَ المستشرقِ الفرنسي دي سلان الذي يقول فيه: «إن كتابَ الإدريسي لا يمكنُ أن يوازَنَ به أيُّ كتابٍ حغرافيّ سابقٍ له، وإنَّ ثمةَ أجزاءً من المعمورة، لا يزالُ هذا الكتابُ دليلَ المؤرخِ والجغرافي في الأمورِ المتصلةِ بها».

لم تكن مهمةُ الإدريسيّ سهلة، فهو لم يكن ينوي أن ينقلَ المعلوماتِ من المراجعِ التي كتبَها من سبَقوه من الجغرافيين. كان يريدُ أن يقدّمَ مرجِعاً جغرافياً عِلمياً لم يسبِقْه إليه أحد. وقد اعتمدَ الشريفُ الإدريسيّ في كتابِه هذا على ثلاثةِ مصادر. . . مشاهداتِه هو في الرحلاتِ التي قام بها بنفسِه إلى البلاد المختلفة، ثم التقاريرِ التي وصلتْه من أولئك الذين كان قد أوفدَهم إلى البلادِ المختلفةِ لكي يحمِلوا إليه المعلوماتِ السليمةَ الدقيقة، ثم المراجعِ الجغرافيةِ

المحقَّقةِ التي يمكنُ الوثوقُ بها.

كانت المعلوماتُ تتجمعُ لدى الشريفِ الإدريسي، فيقومُ بدراستِها ومقارنتِها ومضاهاتِها، حتى يصلَ من خلال ذلك الجهدِ إلى أدقِّ الحقائق وأوثقِها، مستبعِداً كلَّ ما يتطرقُ إليه، أو لا يستندُ إلى مصدرٍ موثوق. في هذا العملِ تميّزَ الإدريسيّ بالدِقةِ والأَصالة. وعندما كان ينقلُ عن عالمِ جغرافي سابقٍ له، كان يُثْبتُ ذلك المصدرَ في كتابِه. كما كانَ يسجلُ مدى ثقتِه في المصدرِ الذي يعتمدُ عليه، فيقولُ مثلاً «ومما يَحكِي التجارُ المسافرون إلى الهندِ عن ولادةِ الفِيَلة، أن الإناثَ منها تلدُ أولادَها في المياهِ الراكدة»، أو يقولُ في مكان آخر «ومما يُحكَى في الكتبِ الصحيحةِ الأخبار..»، ومثلُ هذا التعبيرِ يعني عندَ الإدريسي، الثقةَ في قولِ المصدر.

وقد اعتمدَ الشريفُ الإدريسي على النقلِ من كتاباتِ غيرِه من علماءِ الجغرافيا، في الحالاتِ التي تعذَّرَ عليه فيها السفرُ إلى الموقعِ الذي يتحدثُ عنه، أو تعذرَ عليه إيفادُ الرسلِ لِبُعدِ المسافة. كما حدثَ عندما نَقلَ عن الجغرافيّ سليمانَ التاجر حكايةَ إحراقِ الهنودِ لجثثِ موتاهم، حيث قَال «وإذا مات الملكُ صُنِعت له عجلةٌ على قِدْرِ عريضة، ارتفاعُها عن الأرضِ مقدارُ شبرين أو نحوهما. وتوضعُ على العَجَلةِ قُبةٌ مكلّلة، ويوضعَ الملكُ بحليةِ كفنِه على تلك العجلة، ويطافُ بها على المدينةِ كلِّها، يجرُّه عبيدُه، ورأسُه مكشوفٌ لمن يراه، وشَعرُه ينجرُّ على ترابِ الأرض، وينادِي عليه منادٍ بلسانِ الهنديةِ بكلامٍ معناه بالعربية: أيّها

الناس. . . هذا ملككُم فلانٌ ابنُ فلان، عاشَ في ملكِه فارحاً قادراً كذا كذا سنة، وها هو قد مات، وفتحَ يدَه بما معه، لا يملكُ من مُلكِه شيئاً، ولا يدفعُ عن ملكِه أذى، ففكّروا فيما أنتم إليه صائرون. . . وإليه راجعون. فإذا فَرَغَ من الطوافِ به، خرجَ إلى مكانِ النارِ التي من عاداتِهم أن يُحْرِقوا بها موتى ملوكِهم، فيُلْقُونَه في النارِ حتى يحترق. . ».

رحلةُ المغرَّرين . .

وإلى الإدريسيّ يعودُ الفضلُ في الكشفِ عن الرحلةِ التي قام بها بعضُ الفتيانِ العرب، في محاولةٍ لاختراقِ المحيطِ الأطلسيّ، والذي كان يطلقُ عليه في ذلك الزمانِ اسم (بحر الظّلمات) . . جرى هذا قبلَ الرحلةِ التي قامَ بها كريستوف كولومبس لاكتشافِ القارةِ الأمريكية بسنواتٍ طويلة. ويطلقُ الإدريسيُّ على هذه الرحلةِ اسمَ «رحلة المغرّرين»، وقد جاءَ ذكر الرحلةِ في كتابِه نزهةِ المشتاق، كما يلي:

«ومن مدينةِ لشبونة كان خروجُ المغرَّرين في ركوبِ بحرِ الظلمات، ليعرِفوا ما فيه، وإلى أين انتهاؤُه، كما تقدّم ذكرُهم. ولهم بمدينةِ لشبونة بموضعٍ من قربِ الحمةِ دَرْبٌ منسوبٌ إليهم، يعرفُ بدربِ المغرَّرين إلى آخرِ الأبد. وذلك أنه اجتمعَ ثمانيةُ رجال، وكلُّهم أبناءُ عم، فأنشأوا مركباً حمّالاً، وأدخلوا فيه من الماءِ والزادِ ما يكفيهم لأشهر. ثم دَخلوا البحرَ في أولِ طاروسِ الريحِ الشرقية، فَجَرَوْا بها نحواً من ١١ يوماً، فوصلوا إلى بحرٍ غليظِ الموج، كَدِرِ الرّوائح، كثيرِ القُروش، قليلِ الضوء، فأيقنوا بالتلف . .».

فَرَدُوا قِلاعَهم في اليدِ الأخرى، وجَرَوْا في البحرِ ناحيةَ الجنوبِ ١٢ يوماً، فخرجوا إلى جزيرةِ الغَنَم، وفيها من الغنمِ ما لا يأخذُه عدٌّ ولا حَصْر، وهي سارحةٌ لا راعِي لها، ولا ناظرٌ إليها. فقصَدُوا الجزيرةَ ونَزَلوا بها، فوجدوا عين ماءٍ جارية، وعليها شجرةُ تينٍ بريّ، فأخذوا من تلك الغنمِ فذبحوها، فوجدوا لحومَها مرةً لا يقدرُ أحدٌ على أكلِها، فأخذوا من جلودِها».

«ساروا مع الجنوب ١٢ يوماً إلى أن لاحت لهم جَزيرة، فنظروا فإذا فيها عمارةٌ وحرث، فقصدوا إليها ليَرَوْا ما فيها، فما كان غيرَ بعيدٍ حتى أحيطَ بهم في زوارقَ هناك، فأُخذوا وحُمِلوا في مركبهم إلى مدينةٍ على ضِفَّةِ البحر، فأُنزلوا بها في دار، فرأَوا رجالاً شُقراً زُعْراً، شعورُهم سَبْطة، وهم طوالُ القدود، ولنسائِهم جمالٌ عجيب. فاعتُقلوا في بيتٍ ثلاثةَ أيام، ثم دخَلَ عليهم في اليومِ الرابع رجلٌ يتكلمُ باللسانِ العربي، فسألَهم عن حالِهم وفيما جاءوا، وأين بلدُهم، فأخبروه بكلِّ خبرِهم، فوعَدهم خيراً، وأعلمَهم أنه تَرجُمانُ الملك».

«فلما كان في اليومِ الثاني من ذلك اليوم، أُحضِروا بين يَدَي الملك، فسألَهم التَّرجُمان عنه، فأخبروه بما أخبروا به الترجمانَ بالأمس: من أنهم اقْتَحموا البحرَ ليرَوا ما به من الأخبارِ والعجائب، ويقفوا على نهايتِه. فلما علم الملكُ ذلك ضَحك، وقال للترجمان: خَبّر القومَ أن أبي أمرَ قوماً من عبيدِه بركوبِ هذا البحر، وأَنّهم جَرَوا في عرضِه شهراً إلى أن انقطعَ عنهم الضّوء، فانصرفوا من غيرِ حاجةٍ ولا فائدةٍ تُجْدي. ثم أمرَ الملكُ الترجمانَ

أن يَعِدَهم خيراً، وأن يَحْسُنَ ظنُّهم بالملك، فَفَعل».

«ثم صُرفوا إلى موضع حبسِهم، إلى أن بدأ جَرْيُ الريحِ الغربية، فعُمِّرَ بهم زورق، وعُصِبَت أعينُهم، وجَرَى بهم في البحرِ بُرهةً من الدهر. قال القوم: قَدَّرنا أنه جرى بنا ثلاثةَ أيامٍ بلياليها حتى جيءَ بنا إلى البر، فأُخرجنا، وكُتِّفنا إلى خلفٍ، وتُركنا بالساحلِ إلى أن تضاحَى النهار، وطَلَعت الشمسُ ونحن في ضَنْكٍ وسُوءِ حالٍ من شدةِ الأكتاف، حتى سَمِعنا ضوضاء، وأصواتَ ناس، فصحنا بأجمعِنا، فأقبلَ القومُ إلينا، فوجدونا بتلك الحالةِ السيئة، فحلّوا وَثاقَنا، وسألونا فأخبرناهم بخبرِنا، وكانوا برابرة، فقال لنا أحدُهم: أتعلمون كم بينَكم وبين بلدِكم؟. قلنا: لا. قال: إن بينكم وبين بلدِكم مسيرةَ شهرين. فقال زعيمُنا: وا أسفَى... فسُمّي المكانُ إلى اليوم (أَسَفَى)، وهو المرسى الذي في أقصى المغرِب».

ويقولُ بعضُ المؤرّخين، إن كريستوف كولومبس الذي كان أولَ من وصلَ إلى القارة الأمريكية، لم يكن يجهلُ قصةَ المغرَّرَين هذه، وأنه استنتجَ منها وجودَ شاطئٍ أو أرضٍ كبيرةٍ خلفَ بحرِ الظّلماتِ (المحيط الأطلسي).

كرة أرضية من الفضة:

رغمَ أن خرائطَ الشريفِ الإدريسي حَظِيت باهتمامٍ كبيرٍ من الباحثين في علمِ الجغرافيا، إلا أنَّه لم يكن هو أولَ من صنعَ الخرائطَ الجغرافيةَ من العربِ المسلمين، بل سبقَه في ذلك علماءُ الجغرافيا العرب، وعلى رأسِهم محمدُ بنُ موسى الخُوارُزْمي، أكبرُ

علماءِ الرّياضياتِ في عصرِ الخليفةِ المأمون.

ومع أن الإدريسيَّ في رسمِه لخرائطِه، حاكَى مَن سَبقوه في الاعتمادِ على طريقةِ بطليموس، إلا أنه زادَ عليها من حيث الدقةُ وارتفاعُ مستَوى الأَداء. ويقولُ المستشرقُ كرتشكوفسكي إن عَمَلَ الإدريسيِّ هوالأوجُ الذي بلغَه فنُّ رسم الخرائطِ الجغرافيةِ عندَ العرب. كما يقولُ إن أطلسَ الإدريسيِّ يعدُّ أهمَّ أثرٍ لعلمِ رسمِ الخرائطِ العربية، بل لعلّه أهمُّ أثرٍ لعلم الخرائطِ الجغرافيةِ في العصورِ الوسطى بأجمعِها. ويقولُ المستشرقُ الفرنسيُّ ريسلز «.. ومصوراتُ الإدريسيِّ التي تعترفُ بكُرَويّةِ الأرضِ كانت تتويجاً لعلمِ المصوَّراتِ الجغرافيةِ في العصرِ الوسيط، بوفرتِها، وصحّتِها، واتساعِها..».

وظلت خريطةُ الإدريسي قروناً غيرَ قليلةٍ مرْجعاً لعلماءِ أوروبا في علمِ الجغرافيا. وفي هذا يقولُ جوتيه «إنه لم يكن لأوروبا مصوَّرٌ جغرافيٌّ للعالمِ إلا ما رسمَه الإدريسيّ، وهو خلاصةُ علومِ العربِ في هذا الفن، ولم يقعِ الإدريسيُّ في الأغلاطِ التي وقعَ فيها بطليموس في هذا الباب...».

أما خريطةُ الإدريسيّ التي يصورُّ بها منابعَ النيل، فيقولُ عنها الكاتبُ عباس محمود العقاد «... ولا يُعرَفُ أن أحداً سَبَقَ الإدريسيَّ إلى بيانِ الحقيقةِ عن منابعِ النيلِ العليا، وكما حُفِظت في الخرائطِ التي بَقِيت في بعضِ المتاحفِ الأوروبية، ومنها خريطةٌ محفوظةٌ بمُتْحَفِ سان مرتين الفرنسي، ترسُمُ النيلَ آتياً من بُحيراتٍ إلى جنوبِ خَط الإستِواء، بعدَ أن تخبَّطَ الجَغرافيون في وصفِ

منابعِه، وتعليلِ فَيَضانِه منذ أيامِ هيرودوت الملقبِ بأبِي التاريخ».

وبالإضافة إلى الخرائطِ التي أنجزَها الشريفُ الإدريسي، والتي حَظِيت بتقديرِ الباحثين والعلماء، يتحدّثُ التاريخُ عن كرةٍ أرضيةٍ من الفضةِ رَسَمَ عليها الإدريسيُّ خريطةً مجسمةً للعالَم. وكان الملكُ روجر الثاني قد أمرَ بصُنعِها. ويقولُ الإدريسيّ نفسُه عن الخريطةِ المجسَّمة، في مقدِّمةِ كتابِه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق):

«... فأمرَ عند ذلك أن يُفرغَ له من الفضةِ الخالصةِ دائرةٌ مفصّلةٌ عظيمةُ الجِرْم، ضخمةُ الجِسم، في وزنِ أربعمائة رطلٍ بالرومي، في كلِّ رَطلٍ منها مائةُ دِرهم واثنا عشرَ درهماً. فلمّا كمُلت أمرَ الفَعَلةَ أن يَنقُشوا فيها صورَ الأقاليمِ السبعةِ ببلادِها وأقطارِها، وسِيفِها وريفِها، وخُلْجانِها وبِحارِها، ومَجارِي مياهِها، ومواقعِ أنهارِها، وعامرِها وغامرِها، وما بين كلِّ بلدٍ منها وبين غيرِها من الطرقاتِ المطروقة، والأميالِ المحدودة، والمسافاتِ المشهورة، والمراسي المعروفة، على نصّ يخرجُ إليهم ممثَّلاً في لَوْحِ الترسيم، ولا يُغادروا منه شيئاً، ويأتوا به على هيئتِه وشكلِه كما يُرسَمُ فيه».

وقد تناولَ المؤرّخون موضوعَ الكرةِ الأرضيةِ الفضيةِ التي أشرف الإدريسي على صناعتها، ومن بين هؤلاءِ الصَّفديُّ الذي قال في كتابِه (كنوزُ الأجداد)، إن الملكَ روجر الثاني حين استقدَمَ الإدريسيَّ من الشاطئِ المغربي، طَلبَ منه أن يصنعَ له شيئاً في صورةِ العالَم. فطلبَ الإدريسيُّ شيئاً من المعادنِ ليصنعَ ما يريدُه

الملك، فحُمِلَ إليه من الفضةِ والحجرِ وزنُ أربعمائة ألفِ دِرهم، فصنعَ منها دوائرَ في هيئةِ الأفلاك، وركَّبَ بعضَها على بعض، ثم شكَّلَها على الوضعِ المخصوص، فأُعجبَ بها الملكُ روجر، ويقال إن العملَ استُخدِمَ فيه حَوالي ثلثِ الفضة، وبقيَ الثلثان. وقد تركَ الملكُ روجر ما بقيَ من فضة، هديةً للإدريسيِّ وجائزةً له على العملِ العظيمِ الذي أنجزَه.

وحتى نعرفَ أهميةَ هذه الكرةِ الأرضيةِ التي أشرفَ الإدريسيّ على صنعِها، يكفي أن نقرأَ ما قاله المؤرخُ الحضاريُّ جون درابر عن تطورِ أوروبا الفكري، عندَما ذكرَ أن عربَ أسبانيا كانوا يُعلِّمون مادةَ الجغرافيا في مدارسِهم العامةِ على كراتٍ أرضيةٍ جغرافية، ولعلَّ كرةَ الإدريسيّ كانت وحيَ هذه الطريقةِ في مدارسِ الأندلس. ومنذ ذلك الحينِ أخذت الكراتُ الأرضيةُ والسماويةُ تنتشرُ ويعمُّ تداولُها في أقطارِ الأرض العربية، وصارَ الناسُ يتهادَوْنها، كما نتهادَى الكتبَ والألطاف.

الشِّعرُ والطبُّ والنبات:

بقيَ الشريفُ الإدريسيّ مقرّباً من الملكِ روجر الثاني، منذ اتصالِه به وحتى وفاةِ الملكِ عام ١١٥٤ م (٥٤٩ هـ)، نتيجةً لمرضٍ عُضالٍ كان مَيئُوساً من شِفائِه منه.

وقد جاء في أعقابِ الملكِ روجر الثاني، خليفتُه وابنُه، غليالم الأول. حزنَ الإدريسيُّ لوفاةِ الملكِ روجر، وخشيَ أن تتأثرَ مكانتُه في البَلاطِ الملكيِّ في عهدِ الملكِ الابن، وبقيَ فَترةً يعاني من القلقِ وعدمِ الاستقرار. غيرَ أن هذه الخَشْيةَ تبدَّدت بعد أن

أَهدى الإدريسيُّ إلى الملكِ غليالم الأول كتابَه (روضُ الأنسِ ونُزهةُ النفس)، وهو كتابٌ في الجغرافيا أيضاً.

ومع هذا، يَبدو أن الإدريسيَّ افتقدَ عندَ الملك الابنِ ما كان يجدُه عندَ روجر الثاني، فلم يَطُلْ مُقامُه في صقلية بعد وفاةِ راعيه. والأرجحُ أنه غادرَ صقلية عائداً الى بلدِه الأصْلِ، سَبْتة.

وبالإضافة إلى المكانةِ التي كان الإدريسيُّ يتمتعُ بها في مجالِ العلومِ الجغرافية، فقد كانت لذلك العالِمِ الجليلِ العديدُ من النواحي الأخرى التي تكشِفُ عن ثقافاتٍ وميولٍ واسعة. فقد كان له اهتمامٌ بالصيدلةِ والنباتِ والطب، وإن لم يصلْ في هذه المجالاتِ إلى ما وصَل إليه في العلومِ الجغرافية أو في رسْمِ الخرائط.

ويبدو أن شُهرةَ الشريفِ الإدريسي في علمِ الجغرافيا والخرائطِ قد طَغَت على مكانتِه في العلومِ الأخرى كالطبِّ والنباتِ والصيدلة، وفي فنِّ قولِ الشعر. لهذا يقولُ المستشرقُ الروسيُّ كرتشكوفسكي «كان إلى حدٍّ ما مؤلّفاً جامعاً (موسوعياً)، بل وعُرفت له بعضُ الأشعارِ منذ وقتٍ طويل..».

ويذكرُ المؤرخُ الصَّفدي بعضَ أشعارٍ كَتَبَها الإدريسيُّ في وصفِ آلامِ الغربةِ والشكوى من ضيَاعِه في غربتِه، وافتقادِ الإنصافِ والتقدير. كما يجيءُ في قوله:

ليت شِعري.. أين قَبري
ضاعَ في الغربةِ عُمري
لم أدَعْ للعينِ ما تَشتاقُ

فـي بـرٍّ وبـحـر
وخَـبـرتُ الـنـاسَ والأر
ضَ لـدَى خـيـرٍ وشـرّ
لـم أجـدْ جـاراً ولا دا
راً كـمـا فـي طـيِّ صـدري
فـكـأنـي لـم أسِـرْ الا
بِـمَـيْـتٍ أو بـقَـفْـر

وله أبياتٌ أخرى في الاغترابِ يقولُ فيها:

إن عـيـبـاً عـلـى الـمـشـارقِ أن أر
جـعَ عـنـهـا إلـى ذيـولِ الـمـغـارِبْ
وعـجـيـبٌ يـضـيـعُ فـيـهـا غـريـبٌ
بـعـدمـا جـاءَ فـكـرُه بـالـغَـرايـب
ويـقـاسـي الـظّـمَـا خـلالَ أُنـاس
قَـسَـمـوا بـيـنـهـم هـدايَـا الـسَّـحـايـب

النهايةُ كالبدايةِ غامضة:

وللإدريسيِّ كتابٌ شهيرٌ في علمِ النباتِ اسمُه «الجامع لصفاتِ أشتاتِ النبات»، وفيه ذَكَرَ أنواعَ المفرداتِ من الأشجارِ والثمارِ والحشائش والأزهارِ والحيواناتِ والمعادن. وقد سجَّلَ في كتابِه هذا أسماءَ أنواعِ النباتِ الواحدِ بمُختلِفِ اللغاتِ السريانيةِ واليونانيةِ والفارسيةِ واللاتينيةِ والبربرية. ومن المرجَّحِ أن الإدريسيَّ وضعَ كتابَه هذا أثناءَ إقامتِه في صقلية، حيث كان التراثُ اليونانيُّ والبيزنطي ما زالَ حياً.

كما يَنسِبُ المؤرخون إلى الإدريسيِّ كتاباً في الصيدلة، أَطلقَ عليه اسمَ «الأدويةُ المفردة»، يكشفُ عن معرفةٍ بقوةِ الأدويةِ المفردةِ ومنافعِها وأصولِها. وهذا الكتابُ قد فُقِدت أصولُه.



وختامُ حياةِ الشريفِ الإدريسي يحوطُه الغُموض، بمثلِ ما أحاطَ المرحلةَ الأولى من حياتِه.

فالخلافُ شديدٌ بين المؤرّخين حولَ تاريخِ الوفاة، والمكانِ الذي توفي فيه. أما عن تاريخِ الوفاة، فالثابتُ، رغمَ هذا الاختلاف، أنه كان عام ١١٦٥ م (٥٦٠ هـ). وعن مكانِ الوفاة، فالأرجحُ أنه تُوفي في مَسْقِطِ رأسِه، مدينةِ سبتةَ بالمغرب، وإن كان بعضُ المؤرخين يزعمُ أنه توفّي في صِقلية. وأياً كانت صحةُ تاريخِ الوفاة ومكانِها، فالذي لا شكَّ فيه أن الشريفَ الإدريسيَّ عاشَ حياةً حافِلة، أنجزَ خلالَها من الأعمال، ما استحقّ عليه تقديرَ الباحثين في الشرقِ والغرب.

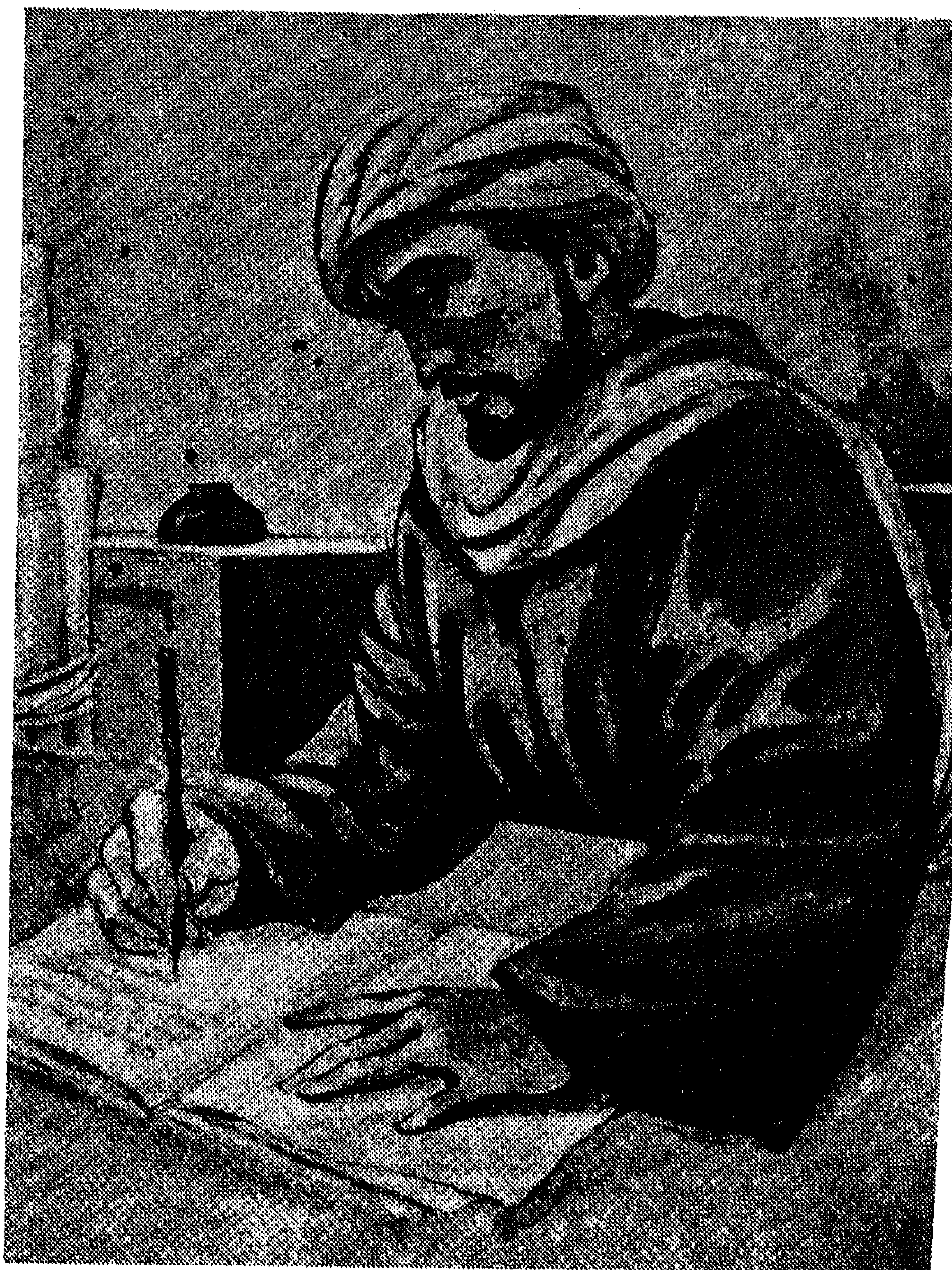
الشريفُ الإدريسيّ ومكانتُه العلمية:

لا شكَّ أن كتابَ «نُزهةُ المشتاقِ في اختراقِ الآفاق»، هو الكتابُ الذي حققَ للشريفِ الإدريسيّ شهرتَه العلميةَ الواسعةَ في الشرقِ والغرب. وأقدمُ طبعةٍ عربيةٍ لهذا الكتابِ هي تلك التي طُبعتْ في مدينةِ روما بمطبعةِ ميديتشي عام ١٥٩٢ م. وقد تُرجمَ الكتابُ كلّه أو فصولٌ منه إلى اللاتينية والإسبانيةِ والألمانيةِ والروسيةِ والفنلنديةِ والفرنسيةِ والإيطاليةِ والسويدية. كما تنافست المكتباتُ العلميةُ في أنحاءِ العالمِ في الاحتفاظِ بنُسَخِه الخطية، فنجدُ مخطوطاتِ الكتابِ في مكتباتِ باريسَ وأكسفورد واستانبول.

وحتى نأخذَ فكرةً عن القيمةِ التي تمنحُها المراجع العلميةُ للإنجازِ الذي قامَ به الإدريسي، يكفِي أن نوردَ ما جاء عنه في دائرةِ المعارفِ الفرنسية، حيث تقول «إن كتابَ الإدريسيِّ في الجغرافيا، هو أعظمُ وثيقةٍ علميةٍ جغرافيةٍ في القرونِ الوسطى».

الجَبَرْتي

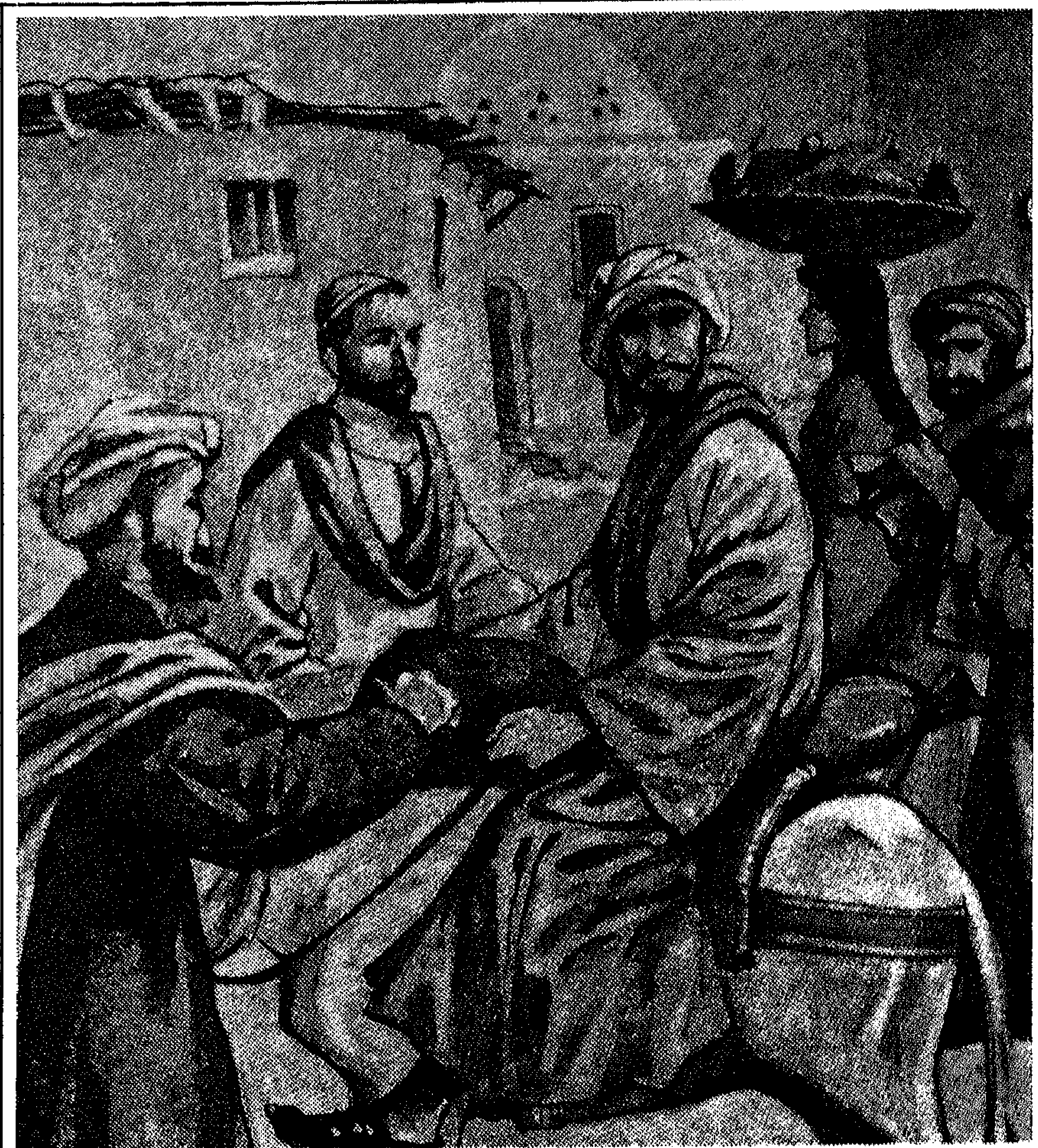
مؤرخ، لا يُستغنى عن تاريخه



هُوَ عبد الرحمن بن
حسن بن
عبد الرحمن الجبرتي



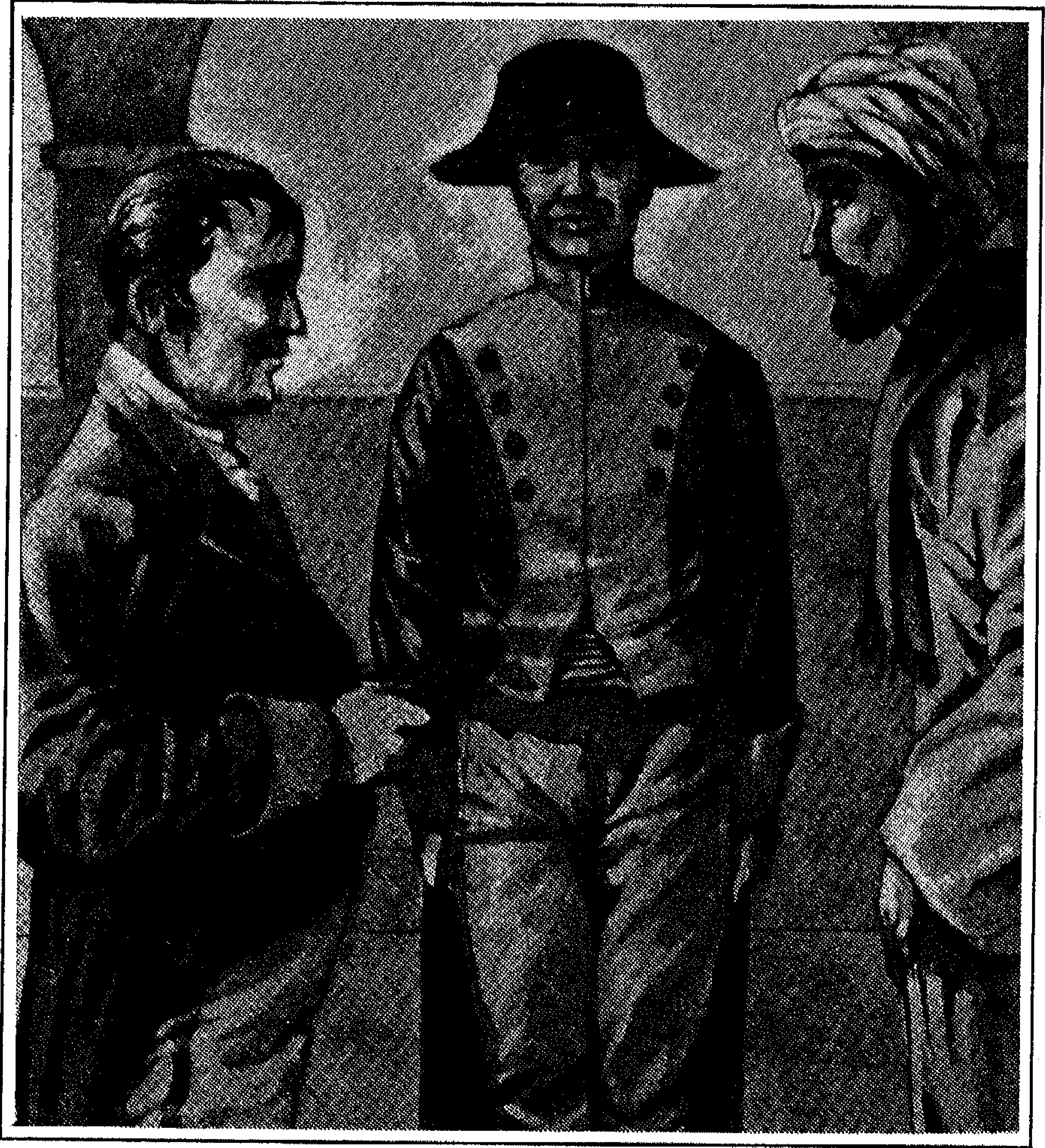
في عام ١٧٩٨ م (١٢١٣ هـ)، دخلَ نابليون بونابرت إلى القاهرةِ منتصراً، وعندما وصلت أخبارُ اقترابِه منها، كان المماليكُ من حكّامِ مصرَ قد تركوا بيوتَهم، وحَمَلوا ما استطاعوا من مالِهم ومتاعِهم، وفرُّوا من وجهِ الجيشِ الفرنسيِّ الزّاحف.



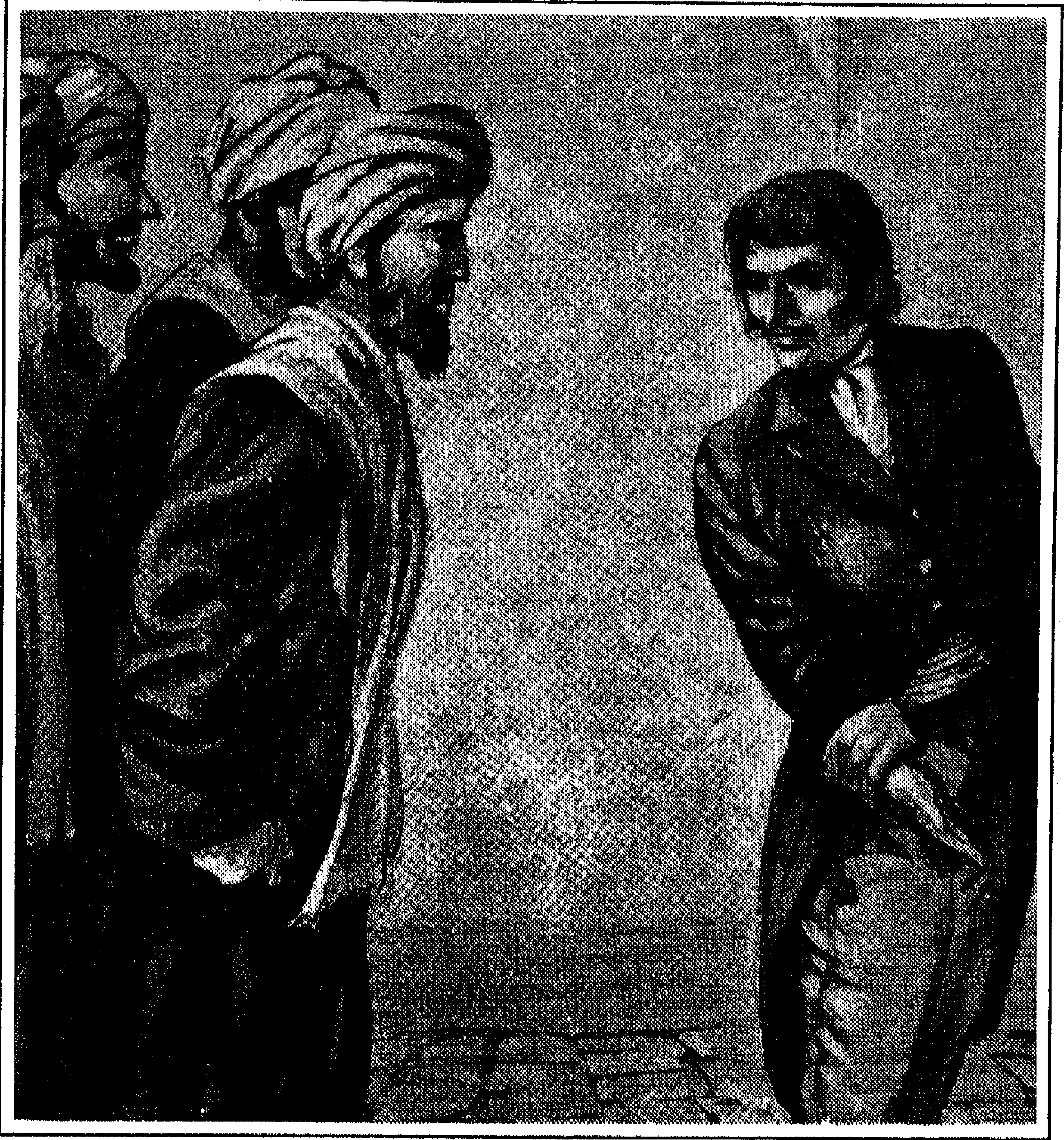
لم يكن المماليكُ هم وحدهم الذين فرّوا من وجهِ الفرنسيين، بل فرَّ معهم كبارُ علماءِ الأزهرِ ومشايخه، ومن بينهم عبدُ الرحمنِ الجَبَرتي الذي توجّه إلى مزرعتِه في مدينةِ (ابيار) قربَ مدينةِ كَفْرِ الشيخ. كما فرّ تلميذُه وصديقُه حسنُ العطّار إلى الصّعيد.



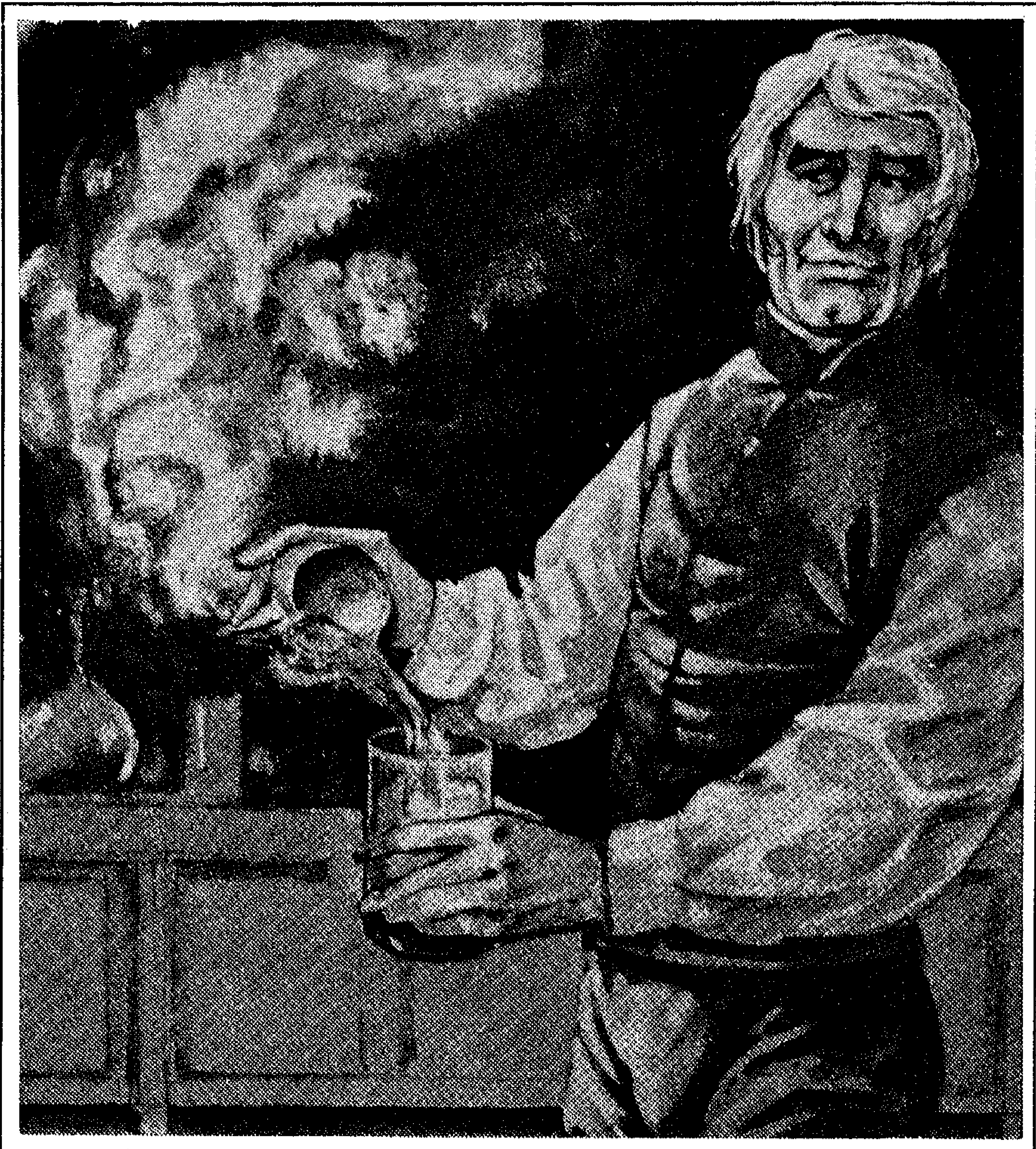
عندما هَدأَت الأحوال، ذهبَ وفدٌ من صغارِ العلماءِ إلى نابليون للتفاهمِ معه في أمرِ البلاد. ضَحك نابليون وسألَهم «هل أنتم كبارُ المشايخ؟»، أجابوا: «المشايخُ الكبارُ خافُوا وهربوا!». قال نابليون: «لأيٍّ شيءٍ يَهربُون؟ اكتُبوا إليهم كي يحضروا، وأكرمهُم..».



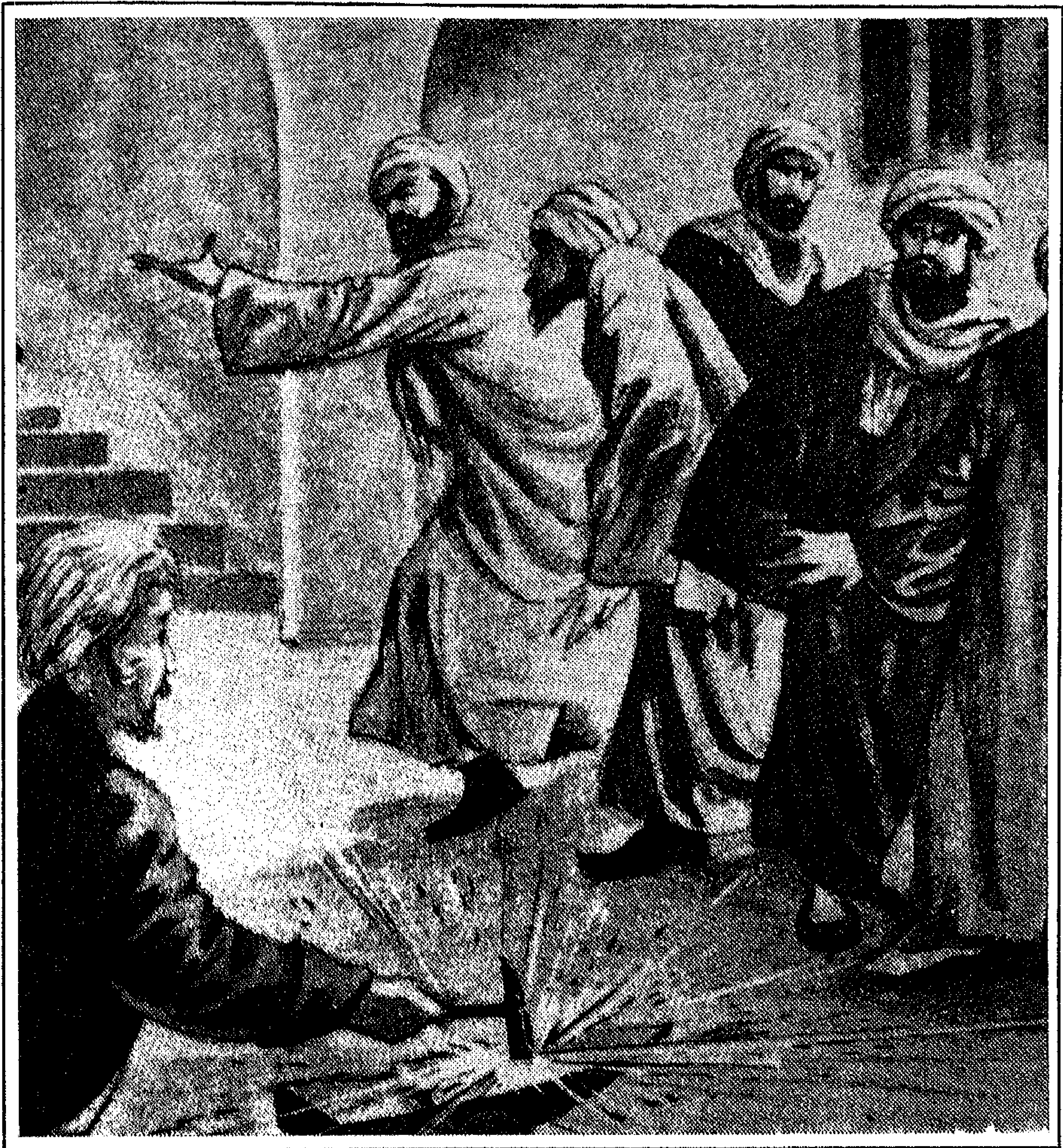
وحَرَص نابليون على استدعاءِ الجَبَرتي إلى القاهرةِ من مزرعتِه بـ «ابيار»، فقد كانت سياسةُ نابليون تعتمدُ على استمالةِ العلماءِ والمشايخ، وبعَثِ الطُّمأنينةِ في نفوسِهم، وإظهارِ الاحترامِ لهم. فهو لم يجدْ غيرَهم من أبناءِ البلد، ليحلَّ محلَّ الحكّامِ من الأتراك.



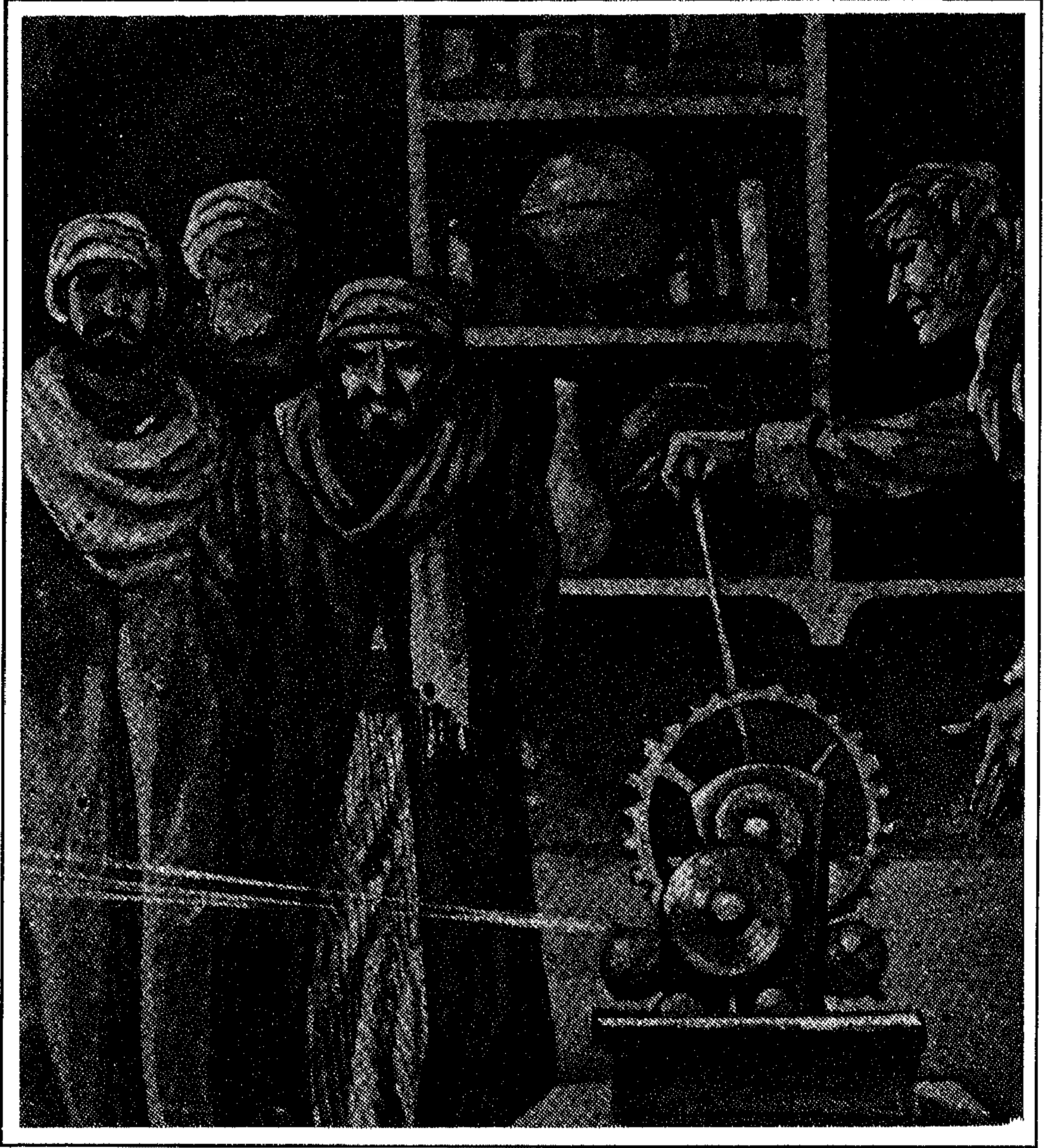
استقرَّ الجَبَرتي في القاهرة، وتلقَّى ذاتَ يومٍ دعوةً مع غيرِه من العلماءِ لزيارةِ الْمَجْمعِ العلميِّ الفرنسي في القاهرة، والذي يُطلِقُ عليه الجبرتي اسم (دار الصنايع). عندما اجتمعَ العلماءُ والمشايخُ بالمجمع، بَهَرتهم الأدواتُ والآلاتُ والأجهزةُ الغريبةُ التي كانت فيه.



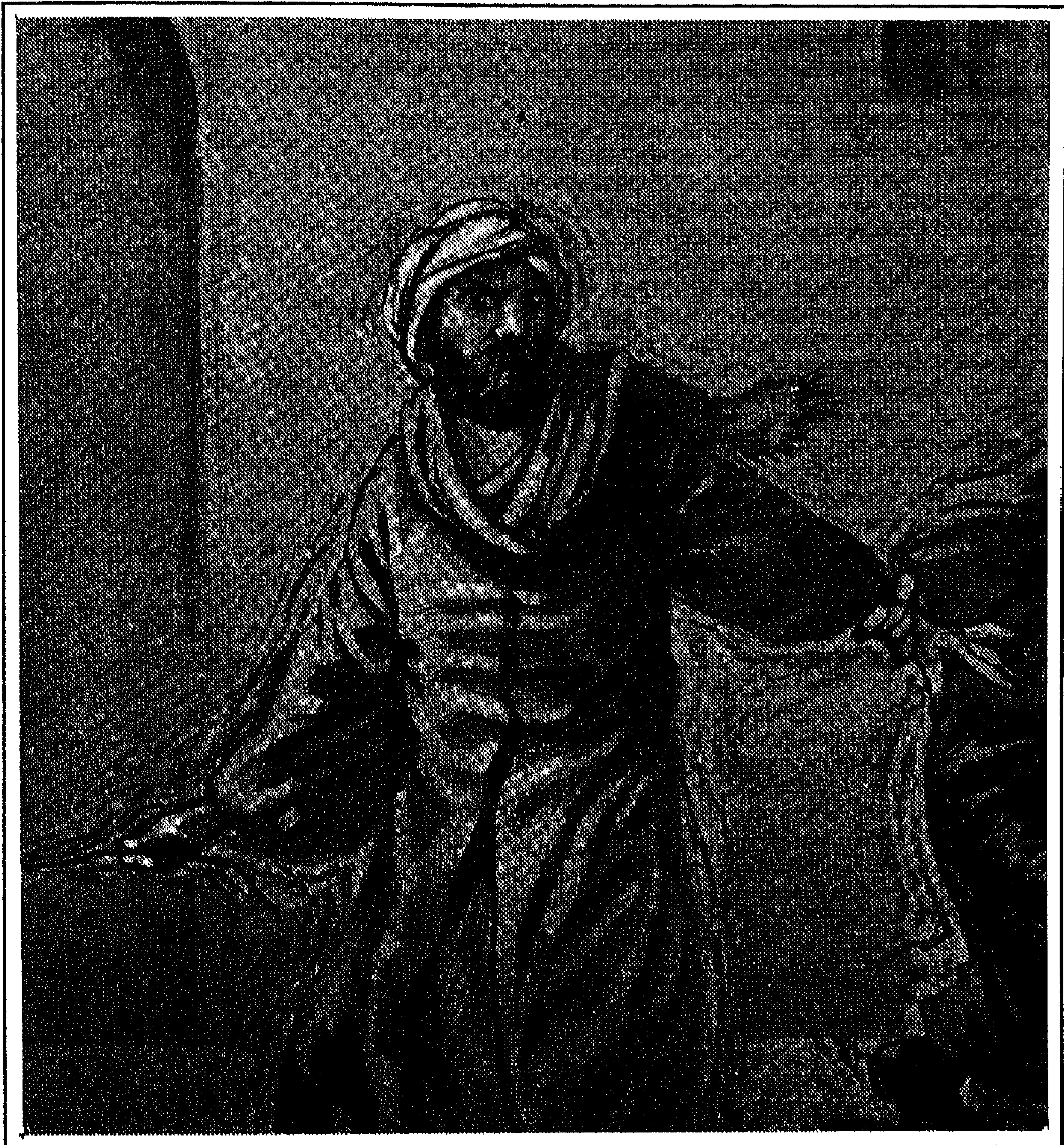
وأكثرُ ما لَفَت نظرَ الجبرتي في هذه الزيارة، معملُ علومِ الكيمياءِ والطبيعة. وثارَ عَجَبُ المشايخِ للتجربةِ التي أجراها أمامَهم أحدُ الفرنسيين، عندما أضافَ سائلاً كالماءِ إلى آخرَ مثلِه، فَغَلى الخليط، وصَعِدَ منه دُخانٌ مُلوّن، حتى جفَّ ما بالكأسِ وتحوَّل مادةً صُلبةً صَفْراء!



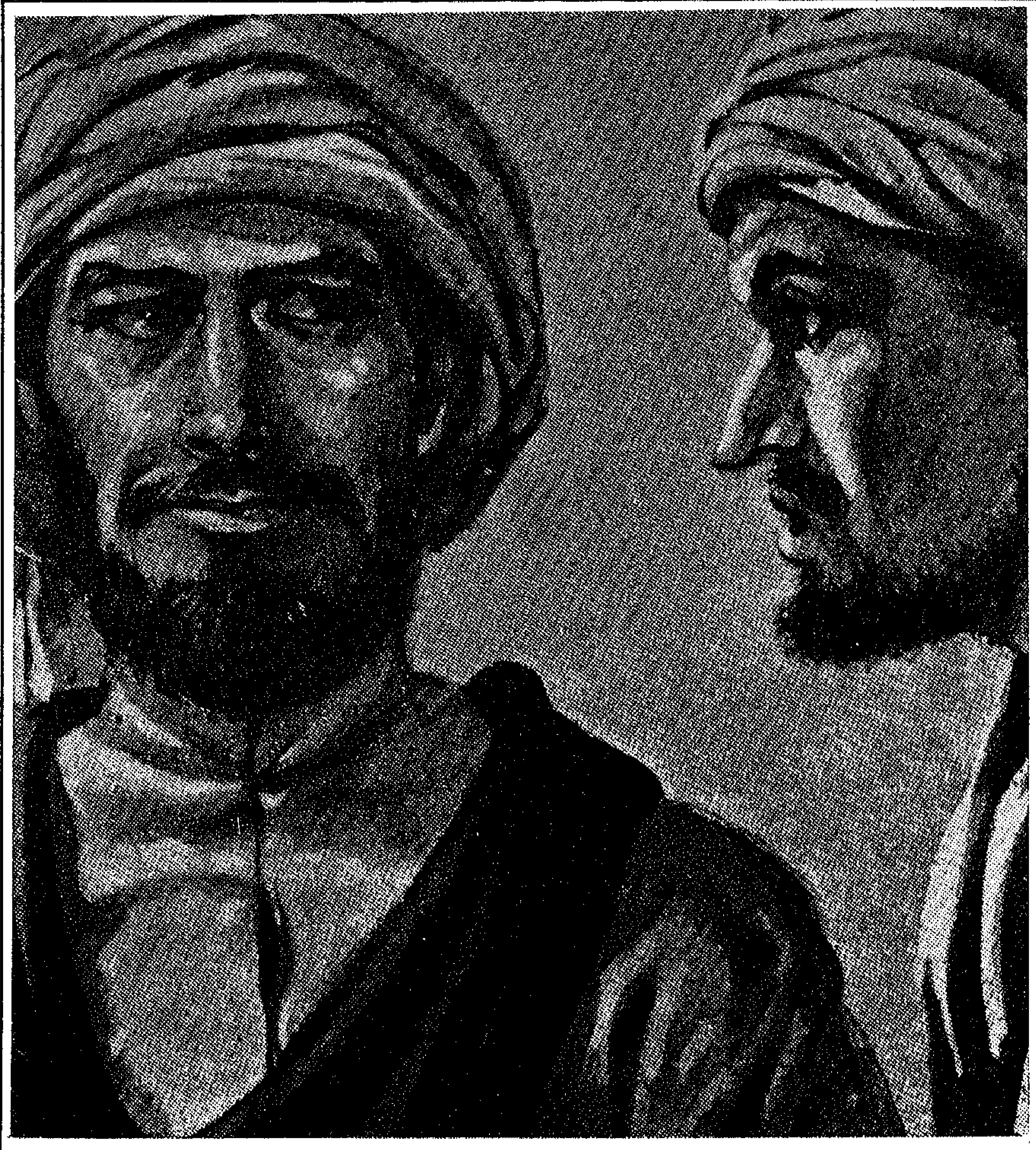
ثم تناولَ الرجلُ بعضَ المسحوقِ الأبيضِ فوضَعه على السّندان، وضربَه بالمطرقةِ بلُطف، فخرجَ له صوتٌ هائلٌ كانفجارِ القنبلة، فزعَ العلماءُ والمشايخ، وابتعدوا خَشيَةَ أن يُصيبَهم مكروه، أما الفرنسيون الموجودون في المكان فلم يُحرّكوا ساكناً إذ كانوا على علمٍ بما يجري.



توالت بعد ذلك التجاربُ الكيميائيةُ والطبيعية، ودهشةُ العلماءِ تتصاعد، وكان آخرُ ما عَرضوه عليهم جهازاً «كهربائياً» له ذِراع. أخذوا يُديرون الذراعَ فيتولّدُ من حركةِ الجهازِ شررٌ يطيرُ إلى الأجسام، فيصدرُ صوتاً كالطقطقة، يسمعُه الجميع.



عندما أمسكَ أحدُ العلماء بخيطٍ يتصلُ بهذا الجهاز، ارتجَّ بدنُه، وارتعدَ جسمُه، وطقطقت عظامُه. وحاولَ أحدُ العلماءِ أن يجذبَه بعيداً عن الجهاز، فانتقلَ إليه نفسُ الشعور ونفسُ الارتجاف.. فأوجسَ العلماء خيفة، وهنا أسرع الفرنسيُّ يوقفُ عملَ الجهازِ وهو يبتسم.



عندما انصرفَ الجبرتي مع باقي العلماء، قال زميلُه حسنُ العطار: «هذه أمورٌ عظيمة، فمتى تأخذُ مصرُ بهذه العلومِ الأوروبية؟». فقال الجبرتي غاضباً: «بل هي من لُعبِ الأطفال، تُعرَضُ للتأثيرِ فينا.. لكننا لن نُخْدعَ ببساطة!..».

عصرُ الظلامِ والاضْطراب:

هو عبدُ الرحمن بنُ حسن بنِ عبدِ الرحمن الجبرتي، المؤرخُ الذي وقَعَ عليه عبءُ كتابةِ تاريخِ فترةٍ حافلةٍ في حياةِ بلادِه، تتابعت فيها الأحداثُ الكبيرةُ المتقلّبة. وهو أولُ مؤرخٍ يظهرُ بعد أن كادت مصرُ تخلو من المؤرّخين الكبارِ طوالَ ما يقربُ من ثلاثةِ قرون.

عاشَ الجبرتي أحلكَ عهودِ مصرَ ظلاماً، وشهدَ السنواتِ الحافلةَ بالاضطراب، عندما أخفقت حركةُ علي بك الكبير في القبضِ على زمامِ الحكمِ في مصر، وانفتحَ المجالُ لعصبةٍ من المماليك، تعاقبت على السلطةِ مستغلّةً اختلالَ أمرِ الجند العثماني، ففقدَ النظامُ في مصرَ توازنَه، وشهدت البلادُ منذ انتهاءِ حكم علي بك الكبير، وحتى مجيءِ الحملةِ الفرنسية، فَترةً من أشدِّ الفَتَرات التي مرّت بمصرَ اضطراباً وفساداً واستغلالاً. وكان التغييرُ والتبديلُ سريعاً، ولم تكن هناك هيئاتٌ أو طوائفُ تتمتعُ بقدْرٍ من الاستقرار، سوى هيئةِ العلماء، الذين كانت من بينهم أسرةُ الجبرتي، والذين أصبحَ هو أحدَهم.

لقد استطاعت طائفةُ العلماءِ وسْطَ هذا الجوِّ المضطربِ أن

تحافظَ على كيانِها وتقاليدِها في العلمِ والسلوكِ الاجتماعي، مما وفَّر لأفرادِها مكانةً خاصةً في المجتمعِ المصري. فكانوا بمثابةِ الجسرِ الذي يصلُ بين الحاكمِ والمحكوم، بالتوقيرِ والثقةِ التي اكتسبوها من كلاَ الطرفين. ونهضَ العلماءُ بهذا العبءِ بأمانةٍ واقتدار، مما حَفِظَ لمصرَ مكانتَها في العالمِ الإسلاميِّ أجمع.

وقد عاصرَ الجبرتي أحداثاً قَرَعت أسماعَ المصريين، وجاءت إليهم من الشرقِ والغرب. عَلموا بأنباءِ دَعوةِ الاصلاحِ الديني التي قامت في الجزيرةِ العربية، تدعو المسلمين للعودةِ إلى أصولِ الدينِ والعقيدة، والابتعادِ عن البدعِ الدخيلةِ على الدين. وما لبثت هذه الدعوةُ التي قامت في نجدٍ بقيادةِ محمد بنِ عبدِ الوهاب، أن امتدّت فَشَمَلت الجزيرةَ العربيةَ كلَّها، ثم امتدّ أثَرُها الفكريُّ إلى مختلفِ بلادِ العالمِ الإسلامي. ومن الغربِ سمعَ المصريون بأنباءِ الاضطرابِ الذي تَفَشَّى في بعضِ الدولِ الأوروبية، وبأنباءِ الثورةِ التي شَبَّتْ في فرنسا، وما صاحبَها من حربٍ وعُنف.

تأثرت مصرُ بهذين الحدثين في أواخرَ القرنِ الثامنَ عشرَ الميلادي. وقد وقفت الدولةُ العثمانيةُ موقفَ العَداءِ من الدعوةِ الوهّابية، وبدأت تُعِدُّ العُدّةَ للقضاءِ عليها، خشيةَ أن تحولَ بين الحج وزيارةِ بيتِ الله الحرام. أمّا الثورةُ الفرنسية فقد كان تأثيرُها على المصريين أكبر، فالمبادىء التي نادت بها الثورةُ الفرنسيةُ لم تكن تتوجّهُ بها، إلى الشعبِ الفرنسي وحسب، بل إلى كلِّ شعوبِ العالم.

ويمكننا أن نتعرَّفَ على طبيعةِ صورةِ مصرَ في ذلك الوقتِ

من الوصفِ الذي جاء في منشورٍ من منشوراتِ الحملةِ الفرنسية، والذي جاء فيه أن «قطر مصرَ هو المركزُ الوحيد، وأنه أخصبُ البلاد، وكان يَجْلِبُ إليه المتاجِرَ من البلادِ البعيدة، وأن العلومَ والصنائعَ والقراءةَ والكتابةَ التي يعرفُها الناسُ في الدنيا، أُخذت عن أجدادِ أهلِ مصرَ الأُوَل، ولكونِ قطرِ مصرَ بهذه الصفاتِ طَمِعت الأُممُ في تملّكهِ، فملكَه أهلُ بابل، وملكَه اليونانيون والعرب، والتركُ الآن. إلاّ أن دولةَ التركِ شدَّدت في خرابِه لأنها إذا حصَّلت الثمرةَ قَطَعت عروقَها، فلذلك لم يُبْقُوا بأيدي الناسِ إلاّ القدرَ اليسير، وصارَ الناسُ لأجلِ ذلك متخفّين تحتَ حجابِ الفقر، وِقايةً لأنفسِهم من سوءِ ظلمِهم». (أي ظلم الأتراك).

هكذا عاصرَ الجبرتي فترةً من أخطرِ الفَتَراتِ في تاريخِ مصر، عاصرَ الصراعَ بين المماليكِ والعثمانيين على الحكم، وعاصرَ الحملةَ الفرنسيةَ وهي تقتحمُ البلاد، وتتَّخذُ صوراً مختلفةً لتخدعَ السكّان، ولِتُنسيهم دونَ جَدوى مرارةَ الاستعمار، وعاصرَ الفترةَ التي تلت خروجَ الحملةِ الفرنسية من مصر، حيث بدأَ صراعٌ جديدٌ على أرضِ البلاد، كان المماليكُ والعثمانيون والانجليز أبرزَ أطرافِه، لكنَّ الجبرتي عاصرَ شيئاً أهمَّ من ذلك كلِّه، وهو بدءُ بروزِ الشخصيةِ المصريةِ على عهدِ محمد علي.

واستطاعَ الجبرتي أن يؤرِّخَ لذلك كلِّه، بعدَ أن كادتِ البلادُ تخلو من المؤرخين ما يقربُ من ثلاثةِ قرون، ولعلَّ الفضلَ في ذلك يعودُ إلى البيئةِ التي خَرَجَ منها. (بيئةِ العلماء).

أسرةُ علمٍ وجاه:

ويمكنُنا أن نعرفَ جانباً من تاريخِ أسرةِ الجبرتي، إذا اعتمدْنا على ما كتَبه هو في هذا الصدد.

فلقبُ الجَبَرتي مشتقٌّ من اسم مدينةِ (جَبَرْت) التي كانت تابعةً لإقليم (زَيْلَع) بأرض الحبشةِ في القرنِ السادسَ عشرَ الميلادي. وجَبَرت هي الموطنُ الأصليُّ لأجدادِه القدامى، هاجرَ منها جدُّه السابعُ عبدُ الرحمن إلى مصرَ لتلقِّي العلمِ في الجامعِ الأزهر، حيث أصبحَ شَيخاً لِرواقِ الجبرتية. وقد استقرَّ أبناءُ عبدِ الرحمنِ في مصرَ وتزوّجوا من أهلِ مصر، ومضت بهم الحياةُ لتوصلَنا إلى الجدِّ الأولِ لمؤرِّخِنا، ووالدِ أبيه الشيخِ حَسَن الجبرتي.

والذي نعرفُه، أن جدَّ المؤرخِ الجبرتي كان واسعَ الثَّراءِ يمتلكُ ثروةً كبيرةً من المال، بالإضافةِ إلى الأملاكِ والعَقاراتِ والثمينِ من المتاع. وقد ضاعفَ والدُ عبدِ الرحمن، الشيخُ حسنُ الجبرتي هذه الثروةَ بالمصاهرة، عندما تزوّجَ من بنتِ رمضانَ جلبي المعروفِ بالخَشّاب، الذي تُوفي في حياةِ ابنتِه، فورِثت عنه مالاً كثيراً، عَرَفَ الشيخُ حسن زوجُها كيف يستثمرُه. فقد كان الشيخُ حسن بالإضافةِ إلى اشتغالِه بالعلم، يعملُ في التجارة.

جاء عبدُ الرحمن الجبرتي من أسرةٍ اشتُهرَ كثيرٌ من أفرادِها بالعِلم، كما نشأَ في بيئةٍ علمية، تضمُّ إلى جانبِ أبيه الذي اشتُهرَ بتمكّنِه من العلومِ الدينيةِ والتطبيقية، الكثيرَ من الشيوخِ والعلماءِ الذين كانوا يتردّدون على بيتِ أبيه. ويُحكى أن أحدَ وُلاةِ مصرَ كان شَغوفاً بالعلومِ الوضعية، مثل علومِ البيئةِ والفلكِ والطبِّ

والحساب، فسألَ عن أصحابِها من علماءِ الأزهر، فقالوا له: إن هذه العلومَ قد بَطَلَ تدريسُها بالأزهر. فقال لهم: «المسموعُ عندَنا بالديارِ الرّومية، أن مصرَ مَنْبَعُ الفضائلِ والعلوم، وكنت في غايةِ الشوقِ للمجيءِ إليها؛ فلمّا جئتُها وجدتُها كما قيل، تسمعُ بالمُعَيْدِيِّ خيرٌ من أن تراه..»، فدلُّوه على الشيخِ حسن الجبرتي، أبرزِ العلماءِ المهتمين بهذه العلومِ في ذلك الوقت، وكان يمارسُها عَمَلاً وعلماً في بيتِه، ويدرِّسُها لطائفةٍ من تلاميذِه، فوجدَ الباشا عندَه بُغيتَه.

وقد ذكرَ مؤرخُنا أن والدَه الشيخ حسن كان يهتمُّ بالعلومِ الطبيعيةِ إلى جانبِ اهتمامِه بالعلومِ الدينية، فكانت عنده «الآلاتُ الفلكيةُ من الكُرَاتِ النحاسيةِ وآلاتُ الارتفاعِ والميالاتُ والأرصادُ والأسْطِرْلاَبُ والأرباع والعُددُ الهندسية، وأدواتُ غالبِ الصُّنَّاع». وقد ذاعت شهرةُ الشيخِ حسن حتى أن طلاّباً من الأوروبيين حَضروا إليه عام ١٧٤٦ م (١١٥٩ هـ)، ليتعلّموا على يديه علمَ الهندسة، ثم سافروا إلى بلادِهم، واستفادوا من تعليمِه في إقامةِ طواحينِ الهواء، وآلاتِ الجرّ، واستخراجِ الماءِ من باطنِ الأرض.

وكانت لَدَى الشيخِ حسن الجبرتي ثروةٌ وافرة، سَمَحت له أن يقتنيَ الكتبَ النفيسةَ غيرَ المتداولة، ويشتريَ الآلاتِ الفلكية. بل لقد أنشأَ في منزلِه مكتبةً عامةً وضعَ فيها نُسخاً من الكتبِ التي يُدرِّسُ فيها طلبةَ الأزهر، فكان علماءُ الأزهرِ وطلبتُه يأتون إلى المنزل، ويقرأون في هذه الكتب، ويستعيرونها، وينقلون منها دونَ استئذان.

دراسةٌ في رِواقِ الشام:

لهذا الأبِ العالمِ صاحبِ المكانةِ في المجتمع، وُلدَ عبدُ الرحمنِ الجبرتي في عام ١٧٥٤ م (١١٦٧ هـ)، وتلقّى تعليمَه الأوّلَ في بعضِ الكتاتيبِ التي كانت منتشرةً في حيِّ الأزهر، ثم انتقلَ بعدَ ذلك إلى مدرسةِ السِّنانيةِ بالصّنادقية، ولم يكن قد تعدَّى العاشرةَ من عمرِه، ليتلقّى العلمَ على يدِ صديقِ أبيه الشيخِ عبدِ الرحمن العَرِيشي، وأتمَّ حفظَ القرآنِ الكريم، ولم يكن قد تعدَّى الحاديةَ عشرةَ من عمرِه.

ولا شكَّ أن البيئةَ العلميةَ التي نشأَ فيها الجبرتي كانت عوناً له للأخذِ عن أبيه العلومَ الرياضيةَ والفَلكية، كما أتاحت له أن يتتلمذَ على كثيرٍ من الشيوخِ الذين التقى بهم في بيتِ والدِه، وكان من أشهرِهم، الشيخُ محمد مرتضى الزَّبيدي، والشيخُ عبد ربّه العزيزِي وغيرُهما.

عندما التحقَ الجبرتي بالأزهرِ دَرسَ شتّى علومِ الفِقهِ واللغةِ والحديثِ وسائرَ علومِ الدينِ والمنطقِ ومبادىءِ الرياضيات. ولم يكتفِ الجبرتي بهذا فقد أكبّ بعدَ ذلك على مكتبةِ أبيه، يَدْرسُ أهمَّ الكتبِ والمراجعِ التي وجدَها في المكتبة، وبخاصةٍ كتبَ الهندسةِ والفلكِ والحساب.

عندما انتهَى الجبوتي من سنواتِ الدراسةِ الأولى، بدأ يعلّمُ التلاميذَ في الأزهر، ويقرأُ لهم في بيتِه من مراجعِ أبيه الشيخِ حسن، ويكتبُ الهوامشَ والتعليقاتِ على هذه الكتب. ولم يخلّفِ الشيخُ حسن الجبرتي لابنِه هذا التراثَ العلميَّ فحسب، بل خلّفَ

له أيضاً مكانةً بارزةً في المجتمعِ القاهريّ، وثروةً لا بأسَ بها، وصلاتٍ واسعةً بأصحابِ السلطانِ من الأمراءِ والضباطِ والتجَّار.

ومع هذا الثراءِ الذي كان يتمتعُ به الجبرتي، فقد مالَ في شبابِه إلى التصوف، شأنُه في هذا شأنُ أكثرِ علماءِ عصرِه. لكنه لم يُوغلْ في التصوّف، وكان يَضِيقُ بأدْعياءِ الصوفية، والذين يَخْلِطون الصوفيةَ بالخُرافات. فقد جَعلته دراستُه العلميةُ العقليةُ يميّزُ بين الفكرِ الأصيل، وما يَلْحقُ به من شوائب.

كما أنَّ الجبرتي لم تكن تعجبُه أحوالُ بعضِ علماءِ الأزهر، فيقولُ إنهم «افتُتِنوا بالدنيا وهَجَروا مذاكرةَ المسائلِ ومدارسةَ العلمِ إلا بمقدارِ حفظِ القاموسِ مع تَرْك العملِ بالكلية». أيّ أنهم لم يستزيدوا من العلم، ولم يُضِيفوا إليه، بل اكْتَفَوْا بحفظِ القواعدِ والنصوص، دونَ محاولةِ التفكير.

بداية المؤرخ:

حتى ذلك الوقتِ لم يكن الجبرتي قد بدأ نشاطَه كمؤرخ، مع أنه كان يذكرُ الأوقاتَ التي كان يجلسُ فيها إلى والدِه، يستمعُ منه إلى قصصِ العصرِ وأحداثِه وأخبارِ الولاةِ والأمراءِ والمشايخِ الذين عَرَفَهم. وقد جاءت الخطوةُ الأولى حين كلَّفه أستاذُه الشيخُ محمد مرتضى الزَّبِيدي بمعاونتِه فيما كان قد بدأه، من تاريخِ أهمِّ الشخصياتِ في المائةِ سنةِ السابقة، من مصريين وحجازيين.

وكان الشيخُ الزّبيدي يعملُ في هذا استجابةً لطلبِ مُفتي دمشقَ محمد خليل الحسيني الذي كان مشغولاً في جمعِ كتابٍ تاريخيٍّ عن أعلامِ القرنِ الثاني عشر، وطلبَ من الزبيدي أن يساعدَه في هذا العمل. وهكذا اختارَ الزَّبيدي بدورِه تلميذَه عبدَ الرحمن الجبرتي ليساعدَه في مَهمّتِه.

تحمَّسَ الجبرتي لهذه المهمة، فراحَ يجمعُ كلَّ ما يقعُ تحت يدِه من تاريخِ كبارِ الشخصيات والمسؤولين في تلك الفترةِ المحدّدة، فقد بدأ بمشايخِ الأزهر، ثم مشايخِ الأروقةِ وأصحابِ الحَلَقات، وهم الطبقةُ العُليا من العلماء. وبعدَها سَعى إلى الطبقةِ

التي تَليها ممن اشتُهِروا بالعلومِ الفقهيةِ والعقليةِ والشعرِ والأدبِ والخَطَابة. كذلك دَوّن أخبارَ وتواريخَ الأمراءِ وكبارِ الجندِ ومشايخِ البلدِ وغيرِهم من المشاركين في الحكم.

وعندما اتّسعَ نشاطُ الجبرتي في هذا المشروع، طلبَ بدورِه مساعدةَ صديقِه اسماعيل الخشّاب. ولمّا كان الخشّابُ يعملُ موظّفاً في المحكمة، فقد طلبَ منه الجبرتي أن يُدوّنَ أسماءَ الناسِ وأعمارَهم من واقعِ أوراقِ المحكمةِ ومستنداتِها الرسمية. كما كان الجبرتي يَطُوفُ بالمدافنِ لقراءةِ الكِتاباتِ على القبور، والاتصالِ بأقاربِ أصحابِ هذه القبورِ للاطلاعِ على ما لديهم من أوراقٍ حولَ حياةِ المتوفّى إن وُجدت. وفي عام ١٧٩٠ م (١٢٠٥ هـ) توفّي الشيخُ الزَّبيدي بوباءِ الطاعونِ الذي انتشرَ في مصرَ ذلك الوقت، فأخفت زوجتُه وأقاربُها خبرَ موتِه، حتى نَقلوا الأشياءَ الثمينةَ والمالَ والذخائرَ والأمتعةَ والكتبَ إلى مكانٍ أمين، ثم أَعلنوا وفاتَه. هكذا لم يجدِ الجبرتي في منزلِ الفقيدِ ورقةً واحدةً من الأوراقِ التي تَضُمُّ جُهدَه الطويلَ الشاقَّ على مَدَى السنين. لكن الجبرتي لم ييأس، وظلَّ يترقّبُ حتى وجدَ متروكاتِ الشيخِ الزبيدي تُباعُ في السوق، فاشترى كلَّ أوراقِه وكتُبِه، وكان من بينها المجلّدُ الضخمُ الذي يضمُّ جهدَ أستاذِه وجهدَه تحت اسمِ «المعجمُ المختصّ».

في نهايةِ ذلك العامِ وَصَلت الجبرتي رسالةٌ من الشيخ الحسيني مفتي دمشقَ مصحوبةً بهدية، يطلبُ فيها إرسالَ ما تمَّ إنجازُه في حياةِ المرحومِ من تسجيلٍ لتاريخِ الشخصيات، سواءٌ مِن عملِ الشيخِ الزَّبيدي أو عملِ الجبرتي، ثم يطلبُ من الجبرتي

مواصلةَ العملِ الذي كان قد بدأه، فيتحمسُ الجبرتي للعمل، ويعودُ إلى سابقِ نشاطِه. لكن ما يلبثُ أن يصلَه خبرُ وفاةِ مفتي دمشق، فيتوقفُ عن العمل، ويقولُ في هذا: «.. فَفَتَرت الهِمة، وطَرَحتُ تلك الأوراقَ في زوايا الإهمالِ مدةً طويلة».

مظالمُ المماليك:

يتوقّفُ الجبرتي عن الاهتمامِ بكتابةِ التاريخِ إلى أن يعودَ إليه مرّةً ثانيةً في شكلٍ جديد، هو شكلُ المذكّراتِ اليومية، عند نزولِ الفرنسيين إلى أرضِ مصرَ عام ١٧٩٨ م (١٢١٣ هـ).

قبلَ نزولِ الفرنسيين إلى مصر، عاشَ الجبرتي الفترةَ الأخيرةَ للنظامِ العثمانيِّ في مصر. كان البابُ العالي في استانبول يختارُ حاكماً لمصرَ كممثلٍ للسلطةِ العثمانية، ومع هذا فقد كانت السلطةُ العليا بمصرَ في يدِ المماليك. وكان هؤلاء المماليكُ من الأَرِقّاءِ الذين كانوا يُشترون من كلِّ مكان. وقد كانت كلمتُهم مجابةً عندَ البابِ العالي، إذا عَزلوا أحدَ ممثليه استجابَ لهم، واختارَ آخرَ مكانَه.

وإذا كانت كلمةُ المماليكِ تتحدُ أمام الحاكمِ العثماني، فإن هذا لم يمنعِ الخلافاتِ والصراعاتِ والحروبَ فيما بينهم، الأمرُ الذي كان يُضعفُ قواهم، ويَدْعَمُ مكانةَ طبقةِ العلماء، ويحفظُ لهذا الصَّرحِ الديني استقراراً نسبياً، وإلى هذه الطبقةِ كان ينتسب الجبرتي.

كانت بدايةُ الاضطرابِ عندما أخفقَ علي بك الكبير في

القبضِ على زمامِ السلطةِ في مصر، وانفسحَ المجالُ لتتولّى السلطةَ الحقيقية فئاتٌ متعاقبةٌ من المماليك، مستغلةً اختلالَ أمرِ الجنودِ العثمانيين وضُعفَهم. والفترةُ منذ انتهاءِ حكم علي بك الكبير حتى مجيءِ الحملةِ الفرنسية، تُعتبرُ فترةً من أشدِّ الفتراتِ التي مرّت بمصر اضطراباً وفساداً واستغلالاً. كان التغييرُ والتبديلُ لا يتوقّف، ولم يكن يستمتعُ بالاستقرارِ سوى طائفةِ العلماء، فقد استطاعوا خلالَ هذا كلِّه، أن يحافظوا على كِيانِهم وتقاليدِهم في العلم أو في الحياةِ اليوميةِ والتعامل، مما أضفى عليهم ـ كما قلنا ـ مكانةً خاصةً في المجتمعِ المصري. في هذه الفترةِ المضطربة، ولدَ الجبرتي، ودرسَ وعمِلَ حتى بلغَ الرابعةَ والأربعين من عمرِه، عندما وصلت الحملةُ الفرنسية.

كان الجبرتي يحتقرُ المماليك، ويمقُتُ تصرفاتِهم في الحكمِ والإدارة، وكثيراً ما كان يرثِي لحالِ المصريين. كان يرى ألوانَ المظالمِ التي يُنزِلُها المماليكُ بأبناءِ الشعب، ويشهدُ مساوئَهم ومفاسدَهم التي كانت تبعثُ الفوضى في حياةِ الناس. كان يرى المجاعاتِ والأوبئةَ تجتاحُ الشعبَ فتقضِي على عشراتِ الآلافِ منهم، بينما المماليكُ يَنْعمون بأطيبِ ما في البلاد، ولا يهتمّون بمصيرِ هذا الشعب، بل كانوا يَفْرِضون عليه المزيدَ من الضرائبِ المرهقة، وكانوا يستعملون كلَّ وسائلِ القسوةِ والتعذيبِ في جمعِها، ثم يُسخِّرون الفلاّحين بعدَ ذلك في زراعةِ أراضيهم.

هكذا، رأى الجبرتي في الحملةِ الفرنسية على مصر، نوعاً من النقمةِ الإلهيةِ على المماليك، وعقاباً لشعبِ مصرَ على

استسلامِه لما وقعَ عليه من المظالم، فيستشهدُ بقول الله تعالى: ﴿وما كان ربُّك مُهْلِكَ القُرى بِظُلْمٍ وأهلُها مُصْلِحون﴾.

الهربُ إلى ابيار:

في عام ١٧٩٨ م (١٢١٣ هـ) نَزلت الحملةُ الفرنسيةُ إلى مصرَ بقيادةِ نابليون بونابرت، وعن هذه السنةِ قال الجبرتي: «.. وهي أُولى سنيِّ الملاحمِ العظيمةِ والحوادثِ الجسيمة. واختلافِ الزمن، وانعكاسِ المَطبوع، وانقلابِ الموضوع».

حقاً لقد كانت الحملةُ الفرنسيةُ على مصرَ من الأحداث الجسام، فقد هبَطَ الفرنسيون إلى أرضِ مصر، يَحمِلون معهم كلَّ تقاليدِ وعاداتِ أهلِ فرنسا، وفي نفس الوقت كلَّ معالمِ التحضّرِ الأوروبي والعلومِ الفرنسية. رأى الجبرتي في هذا التحدِّي، اعتداءً صارخاً، على البلاد، وتمنّى انتهاءَ حُكمِهم. أبغضَ تحررَهم الاجتماعيَّ والأخلاقي، فقد شجّعَ الفرنسيون سفورَ النساءِ وخروجَهن بوجوهِهن مكشوفة، الأمرُ الذي كان في ذلك الوقتِ مكروهاً من المجتمع المصري. كما شجَّعوا تمرّدَ بعضِ الفئاتِ الاجتماعيةِ على الأوضاعِ الموروثة، وتحدَّوْا العرفَ الإسلاميَّ بالأكلِ والشربِ عَلَناً في رمضان، وبتناولِ الخمور.

بعد هزيمةِ المماليكِ ودخولِ الفرنسيين إلى مصر، هَرَبَ جميعُ كبارِ العلماءِ والمشايخ من القاهرة، وعندما طلبَ نابليون بونابرت مقابلةَ العلماءِ جاء لمقابلتِه وفدٌ من صغارِ العلماءِ للتفاهم معه على الأوضاع. فقابلَهم نابليون ضاحكاً وهو يقول: «هل أنتم كبارُ المشايخِ والعلماءِ؟!» فقالوا له «إن العلماءَ الكبارَ خافُوا وهَرَبوا

من القاهرة». فقال نابليون: لماذا يَهرُبون؟.. اكتُبوا إليهم الرسائلَ واطلبوا منهم الحضور. ثم وعدَهم نابليون بإنشاءِ ديوانٍ للعلماءِ (مجلس) يَرعى مصالحَهم ويسهرُ على حفظ الشريعة.

وكان الجبرتي ضمنَ العلماءِ الذين هَربوا من القاهرة، حيث استقرَّ في مزرعةٍ يملكُها بمدينةِ أبْيار في كَفْر الشيخ. وعاد عندما وصلته دعوةُ نابليون، وتأكدَ من أن الفرنسيين لم يصيبوا الناسَ في أرواحِهم أو أموالِهم، بل على العكسِ من هذا. ويسجلُ الجبرتي أعمالَ السلبِ والنهبِ التي تعرّضَ لها النازحون من القاهرة، ويصفُ كيف استغلَّ العُرْبانُ هذه الفرصةَ ليسطُوا على كلِّ ما يقعُ في أيديهم، حتى في المواقعِ القريبةِ من المدينة. وهكذا، كان الأمنُ الذي أحسَّ به المصريون في وجودِ الفرنسيين، فرصةً لتقبّلِهم والاحتكاكِ بهم.

ظلَّ العلماءُ برغمِ مودّتِهم واشتراكِهم في الديوان الجديدِ الذي أنشأه نابليون حريصين على عدمِ الأخذِ بأيِّ شيء يثيرُ الرِيبةَ في نفوسِهم، سواءٌ من حيث دينُهم أو علاقتُهم بمواطنيهم من أهلِ البلاد. وأرادَ نابليون أن يَبْهَرَ العلماءَ بالتقدمِ الحضاريِّ والعِلمي للفرنسيين، فدعَا مجموعةً من العلماءِ إلى المعاملِ التي أقامَها العلماءُ الفرنسيون في القاهرة وأَجْرَوا أمامَ العلماءِ عدداً من التجاربِ الكيميائيةِ والطبيعيةِ الباهرة. ورغم أن هذا جاءَ بالنتيجةِ المرجوّةِ بالنسبةِ لعددٍ من العلماء، فقد كان موقفُ الجبرتي مغايراً، لقد وصفَ ما عُرضَ عليهم بأنه «لَعِبُ أطفال تُعرضُ علينا للتأثيرِ فينا، لكننا لن نُخْدعَ ببساطة».

محاكمةُ سليمان الحلبي:

ومع هذا، فقد هاجمَ الجبرتي الكثيرَ من التصرفاتِ المفيدةِ التي قامَ بها الفرنسيون. فعندَ انتشارِ الأوبئةِ، عَمَدَ الفرنسيون إلى بعضِ الإجراءاتِ الوِقائية، والأساليبِ الصحية، للحدِّ من انتشارِ المرض. فنبَّهوا على الناسِ بالامتناعِ عن دفنِ الموتى بالمقابرِ القريبةِ من المساكن، كما طلبوا من الناسِ نشرَ الثيابِ والأمتعةِ والأبسطةِ في الشمسِ عدّةَ أيام. وعَمَدوا إلى تبخيرِ البيوتِ خَوفاً من انتشارِ الطاعون. وقد اعْتبرَ الجبرتي هذا كلَّه تدخّلاً من الفرنسيين في صميمِ حياةِ المصريين!..

وأولُ موقفٍ يمكنُ تسجيلُه للجبرتي من الحملةِ الفرنسية، يظهرُ في تعليقِه على المنشورِ الأولِ الذي وزَّعه نابليون على أوسعِ نطاق، محاولاً أن يُقنعَ المصريين بواسطتِه، أن الفرنسيين أتَوا لتخليصِ البلادِ من حكمِ المماليكِ الظالم، وأنَّهم أصدقاءُ للسلطانِ العثماني. وأكثرُ ما أثارَ شَكَّ الجبرتي في هذا المنشور، هو ادِّعاؤُهم بأنهم مُسلمون، أو مُحبُّون للإسلام.

ورغمَ أن الجبرتي شاركَ معاصريه من المصريين شُعورَهم

إزاءَ الحملةِ الفرنسية، فإن ذلك لم يجعلهُ ينْسَى حجمَ المنجزاتِ التي نفذوها. فهو يُشيدُ بحبِّ الفرنسيين للعلم، ويسجلُ أنهم خَصّصوا للمديرين والفَلَكيين وعلماءِ الرياضةِ والهندسةِ والفنّانين مكاناً دائماً في «حارةِ الناصرية»، كما افْتتحوا مكتبةً عامةً في بيتِ حسن كاشف جركس، وفي هذا يقولُ الجبرتي: «حتى أسافلُهم من العسكرِ إذا حَضَرَ إليهم بعض المسلمين ممن يريدُ الفُرْجة، لا يمنعونه من الدخولِ إلى أعزِّ الأماكن، ويَلْقَوْنَه بالبشاشةِ والضَّحِكِ وإظهارِ السرورِ بمجيئِه إليهم، خصوصاً إذا رَأَوْا فيه قابليةً أو معرفةً أو تطلّعاً للنظرِ في المعارفِ بَذَلوا له كلَّ مودّتِهم ومحبّتِهم، ويُحْضِرون له أنواعَ الكتبِ المطبوعِ بها أنواعُ التصاوير، وكُراتِ البلادِ والأقاليم، والحيواناتِ والطيورِ والنبات، وتواريخِ القدماءِ وسِيَر الأممِ وقصص الأنبياء».

ويَعْجَبُ الجبرتي باحترامِ الفرنسيين للقانون، وبالعِقَابِ الذي كانوا يُوقعونه على أيِّ جنديٍّ فرنسيٍّ يَعْتدِي على ممتلكاتِ الأهالي، فَيَظهرُ إعجابُه بهم واضحاً حينما لم يبادروا بقتلِ سليمان الحلبي عند اغتيالِه لكليبر، بل ناقشوه وحاكموه، وقد حَرَصَ الجبرتي على تدوينِ المحاكمةِ وأفاضَ في الحديثِ عنها. فقد كانت الطريقةُ التي اتّبعَها الفرنسيون في معاملتِهم للقاتل، امراً جديداً عليه وعلى معاصريه، الذين اعتادوا ما كانت تقومُ به جماعاتُ المماليكِ من بطشٍ بالأبرياءِ والمذنبين على السّواء.

وعندما حلَّ «مينو» في قيادةِ الحملة الفرنسية، وفتحَ البابَ على مصراعيه لاحتكاكٍ أشدَّ بين المصريين والفرنسيين، وأقام

أجهزةَ الحكمِ الوطني، سارَ الجبرتي في هذا التيّار، واختيرَ عضواً في الديوانِ الجديدِ مع صديقِه القديمِ الشيخِ اسماعيل الخشاب الذي عُيّن كاتباً أو سكرتيراً للديوان. وقد أتاحَ هذا للجبرتي فرصةَ التعرّفِ على أحوالِ الفرنسيين بصورةٍ أدق.

عودةُ المماليك:

في الفترةِ الأخيرةِ من وجودِ الفرنسيين في مصر، يصبحُ وضعُهم حَرِجاً نتيجةً للحصارِ الإنجليزي البحري. ثم ينتهي الوجودُ الفرنسي بنزولِ الإنجليز إلى الاسكندرية وحصارِهم لها. خرجَ الفرنسيون من مصر، ولكن بقيَ الإنجليز بها، يحتلّون أجزاءً من شواطئِها وقواعدَ قربَ القاهرة.

ثم ما لبثَ أن خرجَ الإنجليز، وعادَ العثمانيون والمماليك يحاولون استعادةَ مصالحِهم القديمة، ففي عام ١٨٠١ م (١٢١٦ هـ) دخلَ الوزيرُ العثماني يوسف باشا إلى مصر، وتنفّسَ الجبرتي مع أهلِ مصرَ الصُّعَداء، وتفاءلوا بعودةِ الأتراكِ إلى مصرَ حتى يُخلّصوهم من حكمِ الفرنج، وما عانوه من الكفّارِ. فيقول الجبرتي في وصفِ الاحتفالاتِ بيومِ وصولِ يوسف باشا إلى مصر: «فكان هذا اليومُ مشهوداً، وموسِماً وبهجةً وعيداً، عمّت المسلمين فيه المسرّات، ونَزَلت في قلوبِ الكافرين الحَسَرات، ودقّت البشائر، وقَرَّت النواظر. فلله الحمدُ والمِنّةُ على هذه النعمة، ونرجو من فضلِه أن يُصلحَ فسادَ القلوب، ويوفِّقَ أولي الأمرِ للخير والعدلِ المطلوب، ويلهمَهم سلوكَ سواءِ السبيلِ القويم، ويَهْدِيَهم إلى الصراطِ المستقيم».

ودعواتُ الجبرتي في هذه الفقرةِ تدلُّ على مبلغِ ما كان يَعْقِدُه من أملٍ على حكمِ الأتراك، بعدَ رحيلِ الفرنسيين. وبقدرِ هذه الآمال، كانت خيبةُ الجبرتي في حسنِ ظنِّه، فقد فشلَ يوسف باشا، وفشلَ الأتراكُ في حكمِ مصرَ حكماً عادلاً.

وكان الجبرتي قد اتّصلَ بالوزيرِ يوسف باشا الصدرِ الأعظمِ أثناءَ وجودِه في مصر، وقدَّم إليه كتابَه «مظهر التقديس بذهاب الفرنسيس». وفي هذا الكتابِ نلحظُ تحاملَه الواضحَ على الفرنسيين وتعصبَه ضدَّهم، فهو يقول في بدايةِ الكتاب: «حمداً لمن جعلَ كلمةَ الذين كَفروا السُّفلى، وكلمةَ الله العليا، وجعلَ الدولةَ العثمانيةَ والمملكةَ الخاقانية بهجةَ الدنيا والدين». وقد أكثرَ الجبرتي من عباراتِ التعظيم والتفخيمِ ليوسف باشا، ويقال إن الجبرتي كتب هذا الكتابَ بناءً على طلبِ يوسف باشا حتى يرفعَه إلى السلطان العثماني. ولعلَّ هذا هو السببُ في تلك الحظوةِ التي لَقِيَها الجبرتي لدى يوسف باشا، الذي عَهِدَ إليه بوظيفة «تحرير التقاويم والتوقيت»، وجعلَ له راتباً على ذلك. والواقعُ أن الوزيرَ يوسف باشا قد استَقْبلَ كتابَ الجبرتي استقبالاً طيباً. فبعدَ عودتِه إلى دارِ السلطنةِ العثمانيةِ عَرَضَه هناك على السلطان سليم، الذي أمرَ كبيرَ أطبائِه بنقلِه إلى التركية.

مع الأيام اتَّضحت الصورةُ للجبرتي. فبعد أن خرجَ الإنجليز، عادَ العثمانيون والمماليكُ ليَمُنُّوا على المصريين بأنهم خَلّصوهم من أيدي الكفرة، وأن عليهم ألاَّ يَشْكوا مهما حدث لهم من سلْبِ الأرزاقِ وهَتْكِ الأعراض. فشهدَ المصريون بضعَ سنواتٍ

كانت أشدَّ ما مرَّ عليهم في تاريخِهم الطّويل، من بشاعةٍ وفسادٍ واستغلالٍ وسوءِ حُكم.

أدركَ الجبرتي بعدَ قليلٍ أن الحكمَ العثمانيّ لم يكن خيراً من الحكمِ الفرنسي، بل على العكس، ربما كان الحكمُ الفرنسيُّ في بعضِ الوجوهِ خيراً من الحكمِ العثماني، وقد ظهرَ أثرُ هذا في مؤلفاتِه التالية.

.. وجاء محمّد علي:

من وسْطِ هذه الفوضى وهذا الفساد، انبرى جنديٌّ واتته القُدرة، وحالفَه الحظ، حتى وصلَ إلى مَقامِ الولاية، ذلك هو محمد علي باشا. كان محمد علي نافذَ البصيرةِ بحيث أدركَ حقيقةَ الموقف، وأهميةَ البلادِ التي ساقَه القدرَ لحكمِها، فظلّ عاماً بعد آخرَ مستمسكاً بالسلطانِ محطِّماً كلَّ العَقبات في طريقِه، قاضياً على المناوئين له من المماليكِ والجنودِ والعلماءِ وزعماءِ الطوائفِ والحِرَف، حتى خَلَصَ له الحكم، وتجمَّعت في يدِه أسبابُ السلطان.

عاشَ الجبرتي السنواتِ العشرين الأولى من حكمِ محمد علي، وهي السّنوات، التي شُغِلَ فيها محمد علي بتحطيم مقوِّماتِ البناءِ القديم، ليُقيمَ البناءَ الجديد. وسنواتُ الهدمِ دائماً يشوبُها العُنفُ والقسوةُ والمصادرة، وهذه الأمورُ سجّلها كلَّها الجبرتي ساخطاً، ولم يُدرك ما وراءَها من قَصد. وساعدَ على سُخْطِ الجبرتي، أن محمد علي بإلغائِه نظامَ الالتزامِ الذي كان فيه كلّ الظلمِ للفلاحين، قد مسَّ المصلحةَ الماديةَ للجبرتي، فقد كان

للجبرتي بعضُ الالتزامات التي يستفيدُ من دخْلِها، فخسرَ جانباً كبيراً من دخلِه.

امتلأَ الجبرتي مَرارةً حين شهدَ تعاظمَ قوّةِ محمد علي عاماً بعدَ عام، ونجاحَه في جمعِ السلطةِ في يدِه، وما حالفَه من أسبابِ الحظِّ والتوفيق. وخيرُ مثالٍ لذلك ما أجراه على لسانِ الزعيمِ المملوكيِّ الكبير محمد بك الألفي، حين اشتدَّ به المرض، وهو يقفُ على ربوةٍ قربَ مشارفِ القاهرة، ينظرُ إليها وقد امتدّت أمامَه، فقال يخاطبُها: «انظري إلى أولادِك وهم حولَك مُشتَّتين مُتباعِدين مشردين، واستوطنَك اجلافُ الأتراكِ واليهودِ وأراذلِ الأرنؤود، وصاروا يَقبضون خراجَك ويحاربون أولادَك ويقاتلون أبطالَك ويقاومون فرسانَك ويَهْدِمون دُورَك ويسكنون قصورَك، ويَطْمِسون بهجتَك ونورَك.. قُضِيَ الأمرُ وخَلُصَت لمحمد علي».

هكذا نظرَ الجبرتي إلى عهدِ محمد علي، وراحَ يتّهمُه بأنه اعتدى على «مساتيرِ الناسِ وأغلقَ البيوتَ المفتوحةَ لأنَّ في طبعِه داءَ الحِقدِ والشرهِ والطمعِ والتطلّعِ لما في يدِ الناسِ من أرزاق»، ولم يدركِ الجبرتي أن محمد علي كحاكم مستبدٌّ مستنير، كان يسعَى إلى توفيرِ المالِ اللازمِ لبناءِ الدولة الحديثة، وإقامةِ المشروعاتِ العامةِ التي كانت البلادُ في أمسّ الحاجة إليها.

ومما أثارَ الجبرتي على محمدِ علي موقفُه من الدعوةِ الوهّابيةِ التي قامت في الجزيرةِ العربيةِ في ذلك الحين. كانَ للجبرتي رأيٌ طيّبٌ في الدعوةِ الوهّابية، وكان يؤمنُ بأنَّ الدعوةَ الوهّابيةَ تقودُ معركةً ضدَّ الجمودِ الديني، وتدعو إلى إبطالِ البِدَعِ التي دَخلت

على الإسلام، مثل زيارةِ الأَضْرِحَةِ والطَّبْلِ والزّمرُ في المناسبات الدينيةِ والحج، وتُقرّرُ في الوقتِ نفسِه العودةَ إلى طُهرِ الحياةِ الإسلاميةِ الأولى وتعاليمِ الإسلامِ القويمة، وكان من نتيجةِ هذه الدعوةِ أن امتنعَ موكبُ الحجِّ المصري والشامي عن السفرِ إلى الحجاز، بدعوى أن الوهابيين مَنعوا المسلمين من الحجِّ. والجبرتي ينفِي هذا، ويؤكدُ أنهم مَنَعوا الطبلَ والزمرَ وحَمْلَ الأسلحةِ فقط، بدليلِ أن طائفةً كبيرةً من المغاربةِ حجّوا وَرَجعوا في ذلك العامِ والعامِ السابقِ له، ولم يتعرضْ لهم أحدٌ بشيء.

ويقولُ الجبرتي إن أصحابَ المنافعِ من البِدعِ والأباطيلِ التي دَخَلت على الدين، ذَهبوا إلى استانبول حيث مَقرُّ السلطانِ العثماني، واشتَكَوْا إليه مما قامَ به الوهابيون من مفاسدَ وأَضرارٍ ضدَّ المحملِ السلطاني العثماني. وهكذا، ثارَ السلطانُ عليهم، وأوكلَ إلى محمد علي مهمةَ تأديبِهم والقضاءِ عليهم. وكان في هذا مدعاةٌ لهجومِ الجبرتي على محمد علي.

أمانةُ المؤرّخ:

ومع هذا فلم يكن كلُّ ما كَتَبه الجبرتي يتضمَّنُ هجوماً على محمد علي. فهو مثلاً برغمِ تسجيلِه للظلمِ الذي حاقَ بالفلاحين أثناءَ حفرِ تُرعةِ المحمودية، التي ذَهبَ ضحيتَها الكثيرون ودفنوا أحياءً وأمواتاً. فإنه لا يترددُ في الإشادةِ ببعضِ الأعمالِ الجليلةِ التي قام بها محمد علي. ومن ذلك مثلاً أنه كان يشجّعُ أبناءَ مصرَ ويفتحُ أمامَهم أبوابَ التعليم، وفي ذلك يقول: «اتفقَ أن شخصاً من أبناءِ البلدِ يسمّى حسين جلبي عَجْوة، ابتكرَ بفكرِه صورةَ دائرةٍ وهي التي يَدُقُّون بها الأَرُزّ، وعمِلَ مثالاً لها من الصفيحِ تدورُ بأسهلِ طريقة، بحيث إن الآلةَ المعتادةَ إذا كانت تدورُ بأربعةِ ثيرانٍ فيديرُ هذه ثَوْران. وقدَّم ذلك المثالَ إلى الباشا، فأعجبَه، وأنعمَ عليه بدراهم، وأمرَه بالمسيرِ إلى دُمياط، ويبنِي دائرةً ويُهندسُها برأيِهِ ومعرفتِه، وأعطاه مرسوماً بما يحتاجُه من الأخشابِ والحديدِ والمال». وبعد نجاحِ التجربة، يقول الجبرتي إن محمد علي طلبَ منه أن ينجزَ نموذجاً آخرَ في رشيد.

وقد لَفَت هذا نظرَ محمد علي إلى نجابةِ أبناءِ المصريين

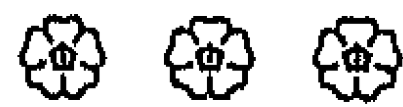
وذكائِهم، وتقبُّلِهم للمعارف، فأمرَ بإنشاءِ مدرسةٍ لهم. وفي هذا يقولُ الجبرتي: «أمرَ بانشاءِ مكتبةٍ بِحَوْشِ السَّراية، ويرتّبُ فيه جُملةً من أولادِ البلدِ ومماليكِ الباشا.. وأحضرَ لهم الآلاتِ الهندسيةَ المتنوعةَ من الإنكليز، يأخذون بها الأبعادَ والارتفاعاتِ والمِسَاحة، ورتّب لهم شَهرياتٍ وكساوَى في السنة، واستمرّوا على الاجتماعِ بهذا المكتب، وسمَّوهْ مهندسَ خانه، في كلِّ يومٍ من الصباحِ إلى الظهيرة، ثم يَنْزِلون في بعضِ الأيامِ إلى الخلاءِ لتعلُّمِ مِساحاتِ الأرضِ وقياساتِها بالأقصاب».

كما أشادَ الجبرتي بإعادة محمد علي السدَّ المُوصلَ إلى الإسكندرية، وكان قد تخرّبَ وزحفَ منه ماءُ البحرِ فأتلفَ أراضيَ كثيرة، وخَرِبَت منه قُرىً ومزارع. وكذلك امتدحَ ما قامَ به من إصلاحٍ مادي، شَمَلَ جميعَ المرافقِ وخاصةً في ميادينِ التعليم، والأخذِ بالمناهجِ الحديثة.

والملاحظُ أن الجبرتي وقفَ بتاريخِه المدوَّن «عجائب الآثار» عندَ سنة ١٨٢١ م، في الوقتِ الذي لم تكن قد اتَّضحت فيه بعدُ آثارُ سياسةِ محمد علي ومشروعاتِه الكبرى، بالرغمِ من قيامِه في ذلك الوقتِ بعددٍ من المشروعاتِ العامة، مثلِ مشروعِ رأسِ الوادي، وبناءِ سدِّ رشيد، وحفرِ تُرعةِ المحمودية، فإنه لم يكن قد أرسلَ إلا بُعوثاً قليلةً إلى أوروبا، ولم يكن قد جَنَى أيّةَ ثِمارٍ لسياستِه الزراعيةِ والاقتصادية. فحديثُ الجبرتي إذن، يتناولُ محمد علي في أيامِ المِحَن الأولى، أيامِ تثبيتِ حُكمِه، وفي بدءِ نظامِ الاحتكارِ الذي أظهرَ فيه كلَّ أنواعِ الدَّهاء، بما يتنافَى مع الأخلاقِ

التي نشأ عليها الجبرتي.

والجبرتي في نهايةِ أقوالِه عن محمد علي يصلُ إلى حُكْمٍ محدَّدٍ صريحٍ يقول فيه، إن محمد علي كانت له همّةٌ وكفاءةٌ لم تكن لغيرهِ من ملوكِ الأزمان، لكنَّه يعودُ ويتحفّظُ قائلاً: «فلو وفَّقه الله بشيءٍ من العدالة، على ما فيه من العزمِ والرياسةِ والشهامةِ والتدبيرِ والمطاولة، لكانَ أعجوبةَ زمانِه، وفريدَ أوانِه».



لا بد أن كتاباتِ الجبرتي التي ينتقدُ فيها تصرّفاتِ محمد علي باشا قد وَصَلت إلى الناسِ فتداولوها، وشاعَ أمرُها حتى وصلت إلى الباشا نفسه. وكان للجبرتي ابن يسمَّى خليلاً، وكان خليل يعملُ ميقاتياً للصلاةِ في قصرِ محمد علي. وفي عام ١٨٢٢ م (١٢٣٧ هـ)، وبينما كان الجبرتي يقومُ بتسجيلِ أخبارِ الثورةِ اليونانيةِ التي نشبت في ذلك الوقتِ حَمَلوا إليه جثةَ ابنِه خليل، وقالوا إنه قُتلَ وهو في طريقِه إلى بيتِه عائداً من قصرِ الباشا في شُبرا. فحزنَ الجبرتي حُزناً شديداً. وقيلَ إن الذي قتلَ ابنَ الجبرتي هو محمد علي الدفتردار صهرُ محمد علي باشا، للانتقامِ من الجبرتي بعدَ الذي كتبَه يهاجمُ فيه الباشا.

ما إن بلغَ الجبرتي خبرُ مقتلِ ابنِه، حتى كفَّ عن الكتابةِ وأهملَ مُراجعةَ ما كان قد كتبَه. وأمضى الجبرتي السنواتِ الأخيرةَ من حياتِه وقد اشتدَّ به الألمُ والسُّخطُ والبكاءُ على ابنِه، ورأى نفسَهُ يشيّعُ أساتذتَه وزملاءَه وأصدقاءَه واحداً بعد الآخر، فألمّ به

المرض، وفقَدَ بصرَه، حتى أدركته المنيةُ في عام ١٨٢٥ م (١٢٤١ هـ)، تاركاً للأجيالِ العربيةِ اللاحقة، الصورةَ التي رسمَها للصراعِ الفكريِّ بين الأجيال، والتي تصلحُ زاداً لكلِّ متأملٍ دارس.

الجبرتي مؤرخاً

لقد أشادَ الكثيرُ من المستشرقين بالمؤرخِ الجبرتي، ونوَّهوا بأهميةِ تاريخِ الجبرتي، باعتبارِه من أهمِّ مصادرِ تاريخِ مصرَ في القرنين الثاني عشر والثالثَ عشرَ الهجريّين، ورأوا أَن كتاباتِه تُعدُّ سجلاً حافلاً، بألوانِ الحياةِ التي كان يعيشُها المجتمعُ المصريُّ في هذين القرنين. حتى إن قارىء الجبرتي يستطيعُ أن يستنشقَ من كتاباتِه جوَّ الحياةِ الاجتماعيةِ الذي كان سائداً في مصر، وبصفةٍ خاصةِ المجتمعَ القاهريَّ بطوائفِه المختلفة، كما يستطيعُ أن يتعرّفَ على ما ألمَّ بالبلادِ من أحداثٍ وظروفٍ اقتصادية. ويرى صورةً للكوارثِ التي حاقَت بمصر، من أوبئةٍ ومجاعات. ويرى في نفسِ الوقتِ صورةً جميلةً للقاهرة، بشوارعِها ومساجدِها وقصورِها وقِلاعِها.

وكتاباتُ الشيخِ الجبرتي تكادُ تكونُ المصدرَ الوحيدَ الذي يسجلُ تاريخَ مصرَ في هذين القَرْنين بدقّةٍ وشمولٍ لا نظيرَ لهما. فنحن لا نجدُ إلى جانبِ كتاباتِه من المصادرِ التاريخيةِ المعاصرةِ له ما يرتفعُ إلى قيمةِ كتاباتِه، كما أن الجبرتي قد عاصرَ أو شاهدَ

لحظاتِ احتدام تاريخيٍّ تتغيرُ فيها الظواهرُ وتنقلبُ فيها الأوضاع، ورصَدَ حوادثَها التي كان محتملاً أن يَضيعَ كثيرٌ من تفاصيلِها، لولا أنه احتفظَ بها وسجَّلها.

يقول المؤرّخ البريطاني آرنولد توينبي: «كان الجبرتي يملكُ موهبةً سيكولوجية بعيدةَ الشَّفَافِيَة، مكّنته من استيعابِ حقيقةِ الدُّخَلاء. فالمماليكُ أرقّاءُ دخلاءُ استُجْلبوا إلى مصرَ من القُوقاز، والعثمانيون كذلك دخلاءُ بما فيهم الإنكشارية. وكذلك الحكّامُ الذين يأتون ويذهبون، ومحمدُ علي الديكتاتور ذو البأس، ما هُمْ إلاَّ أجانبُ أيضاً، وَفَدوا من جنوبيّ شرقيّ أوروبا وآسيا الصغرى»، ثم يقول: «كان الجبرتي - مثلَ توكيديدس اليوناني القديم - مؤرخاً وقعَ عليه بالمِثْلِ عبءُ كتابةِ تاريخِ حقبةٍ شاذةٍ من حياةِ الحضارةِ التي ترعرعَ في ربوعِها. وفي وُسع مِصرَ أن تفاخرَ بالجبرتي، كما تُباهِي به سائرُ انحاءِ العالَمِ الفسيحِ الذي يتحدّثُ أبناؤه باللغةِ العربية».

فما هي خصائصُ أسلوبِ الجبرتي في التاريخ.. يقول الجبرتي: «إنّي قد سوَّدتُ أوراقاً في حوادثِ أواخرِ القرنِ الثاني عشرَ وما يليه، وأوائلِ القرنِ الثالثَ عشرَ الذي نحن فيه، جَمعت فيه بعضَ الوقائعِ إجمالية، وأخرى محقَّقةً تفصيلية، وغالبُها ممن أدركناها وأمور شاهدناها، واستطردت في ضمنِ ذلك سوابقَ سَمِعْتُها، ومن أفواهِ الشيوخِ تلقّيتها، وبعضَ تراجمِ الأعيانِ المشهورين من العلماءِ والأمراءِ المعتبرين، وذكرَ لمعٍ من أخبارِهم وأحوالِهم، وبعضَ تواريخِ مواليدهم وَوَفيَّاتِهم».

هذا ما يقوله الجبرتي عن نفسِه، أمّا عن خصائصِ الجبرتي في كتابتِه للتاريخِ فتتلخّصُ في الآتي:

تتميّزُ كتاباتُ الجبرتي بالدقّةِ واستقصاءِ الأحداثِ والتحفّظِ في ذكرِها، كما أنّه يتميزُ بالموضوعية، فهو يكتب ساعياً إلى تسجيلِ الحقيقةِ الخالصةِ لوجهِ التاريخ، وفي هذا يقول: «ولم أقصدْ بجمعهِ خدمةَ ذِي جاهٍ كبيرٍ أو قاعةَ وزيرٍ أو أمير، ولم أداهن فيه دولةً بنفاقٍ، أو مدحٍ أو ذمٍّ مُباينٍ للأخلاق».

ومع هذه الموضوعية، تفيضُ كتاباتُ الجبرتي بالحرارةِ التي تعكسُ انفعالَه بالأحداثِ التي يسجّلُها. فهو محبٌّ لبلدِه، يشاركُه أفراحَه وأحزانَه، ولا ينظرُ إلى الأحداثِ من بعيد. وقارىءُ الجبرتي يُحسُّ بالحياةِ الجياشةِ التي يصوّرُها، فيعيشُ معه في الجوِّ الحقيقيِّ للعصرِ الذي يكتبُ عنه.

امتازَ الجبرتي عن الذين سبَقوه من المؤرّخين المصريين، أنّه لم يَقْصِر اهتمامَه على الحكّامِ والسادة، والأحداثِ التي تتصلُ بهم فقط، بل عُني بالأمورِ المهمةِ والصغيرةِ في نفسِ الوقت، فنراه يدوّنُ بدقةٍ مدهشةٍ كلَّ ما يصلُ إلى عِلْمِه.

ومع انسياقِ الجبرتي لعاطفتِه في كثيرٍ من كتاباتِه، نراه بعيداً عن التعصّبِ الديني الذي كان يسودُ مجتمعَه. فهو يقف موقفاً حاداً من الفرنسيين وينتقدُهم، ويهاجمُ تقاليدَهم، وعاداتِهم، لكنْ نجدهُ مع مرورِ الزمن، ينسى هذا التعصّبَ لبني دينِه وقوميتِه، عندما يلمَسُ جوانبَ التقدّمِ عِندَ الفرنسيين لدرجةِ أنه يتمنّى في أعقابِ الحملةِ الفرنسيةِ زوالَ العثمانيين الذين عاثُوا في البلادِ فساداً.

في جميع ما كتب، يتغنّى الجبرتي بالعدل، ويهاجم ظلمَ الحكّام، ويرى أن العدلَ هو إقامةُ الشريعةِ والرفقُ بالرعية، وكان الجبرتي يمثّل في كتاباتِهِ، ومواقفِه أسمى ما وصلت إليه فكرةُ العدل في الإسلام.

مؤلفات الجبرتي:

أهمُّ مؤلفات الجبرتي وأشهرُها هو كتابُه الكبيرُ «عجائب الآثار في التراجمِ والأخبار»، وقد جَمَعَ فيه الجبرتي حوادثَ آخرِ القرنِ الثاني عشرَ الهجري وما يَليه من أوائلِ القرنِ الثالثَ عشرَ الهجري. وقبلَ هذا كان قد كتبَ «مظهر التقديس بذهابِ دولةِ الفرنسيين» يتناولُ فيه الفَترةَ من عام ١٦٠٤ م (١٠١٣ هـ) حتى عام ١٨٠١ م (١٢١٦ هـ). وله كتابٌ يسمّى «مختصر تذكرةِ أولي الألباب والجامع للعجبِ العُجاب»، وهو نوعٌ من الدراسةِ للمرجعِ المعروفِ في تاريخِ الطبِّ باسمِ «تذكرةِ داود». كما أن للجبرتي كتاباً في الفلكِ والتقاويمِ تحتَ اسمِ «دستور تقويم الكواكب السبعة والجواهر والأهلّة والتواريخ الثلاثة». وفيما يلي نبذة عن أهمِّ كُتبِه.

عجائبُ الآثارِ في التراجمِ والأخبار:

يعتبرُ هذا الكتابُ من أهمِّ مؤلفاتِ الجبرتي، وهو مكوَّنٌ من أربعةِ أجزاء. الجزءُ الأولُ والثاني يتناولان مصرَ في ظلِّ الحكمِ العثماني حتى مجيءَ الفرنسيين، أمّا الجزءُ الثالثُ فيختصُّ بأحداثِ الحملةِ الفرنسية، وقد أفردَ الجزءَ الرابعَ لأحداثِ عصرِ حكمِ محمد

علي حتى عام ١٨٢٠ م (١٢٣٦ هـ).

يقولُ الأستاذ محمد شفيق غُربال عن هذا الكتاب: «أَثرٌ فنيٌّ رفيع، وروعتُه ليست في اكتمالِ الصَّنعةِ أو تمامِ الصَّقْل، بل هي في انتقالِ الكتابِ لقرّائِه على النحوِ الذي نما به بين يدي المؤلف، فهو تقييداتٌ بِنْتُ ساعتِها. ينتقلُ القارىءُ من مَتْنٍ إلى متنٍ دون أن يضطربَ انتباهُه أو يَنفِرَ من الكتاب. وقد يرجعُ هذا إلى أن الجبرتي أضفى على المادةِ من شخصيتِه ما أكسبَها هذا الانسجامَ العجيب، أو لأن الجبرتي رجلُ فنٍّ عَرَفَ كيف يُخفِي الصَّنعة، بتجنّب مظاهر الصنعة».

وتقولُ دائرةُ المعارفِ الإسلامية «إن هذا التاريخَ له أهميةٌ اجتماعيةٌ كبيرة، لأنه صورةٌ مفصّلةٌ من حياةِ الشرقيين، وقد أفادَ منه (لين) وهو يعلّقُ على الطبعةِ التي أخرجَها مِن ألفِ ليلةٍ وليلة».

مظهرُ التقديسِ بذهابِ دولةِ الفرنسيس:

يعتبرُ هذا الكتابُ وثيقةً تاريخيةً مهمةً بالنسبةِ لفترةٍ من أخطرِ فَتَراتِ مصر. ويتناولُ الكتابُ الحملةَ الفرنسيةَ على مصرَ في أوائلِ القرنِ الثالثَ عشرَ الهجري، حتى خروجِها من مصر، من عام ١٧٩٨ م (١٢١٣ هـ) حتى عام ١٨٠١ م (١٢١٦ هـ).

ومن نواحِي القوّةِ في هذا الكتابِ إحتواؤُه على مجموعةٍ كبيرةٍ من المنشوراتِ والبياناتِ والمكاتباتِ التي أصدرتها سلطةُ الاحتلالِ الفرنسيّ بمصر. كما أن تدوينَ الجبرتي لتاريخِ تلك الفترةِ على هيئةِ يوميات، أعطانا الكثيرَ من التفصيلاتِ التي لا يمكنُ الحصولُ عليها لو أنه كَتَبَ تاريخَه في شكلٍ موضوعات.

الفهرست

ابن الأثير: المؤرخ الإسلامي العالمي ٥
بيت علم وثقافة ١٨
عصر الصراعات والتمزق ٢٠
دراسة متواصلة ٢٢
مكانة عالية في الموصل والشام ٢٤
بين اليسر والعسر ٢٥
حدثان خطيران ٢٦
غزوة التتار الدموية ٣٠
أخلاق كريمة ٣٣
أعماله ٣٦
ابن بطوطة: الرحّالة الأمين ٤٣
بداية مبكرة ٥٦
من طنجة إلى مصر ٦٠
رحلة الشام ٦٤
من الحجاز إلى العراق وفارس ٦٨
رحلة اليمن ٧٣

في بلاد الروم ٧٧
من أرض الظلمة إلى القسطنطينية ٨١
على أبواب الهند ٨٥
إلى الصين ٩٠
إلى الأندلس والسودان ٩٥
قالوا عن إنجازات ابن بطوطة ٩٩
الشريف الإدريسي: أشهر علماء الجغرافيا العرب ١٠١
الرحلة الأُولى إلى قرطبة ١١٤
سقوط صقليّة ١١٧
الحماية الكاملة ١٢٠
سر الوساطة الغامضة ١٢٣
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ١٢٦
رحلة المغرّرين ١٣٠
كرة ارضية من الفضة ١٣٢
الشعر والطب والنبات ١٣٥
النهاية كالبداية غامضة ١٣٧
الشريف الإدريسي ومكانته العلمية ١٣٩
الجبرتي: مؤرخ لا يستغنى عن تاريخه ١٤١
عصر الظلام والاضطراب ١٥٤
أسرة علم وجاه ١٥٧
دراسة في رواق الشام ١٥٩
بداية المؤرخ ١٦١

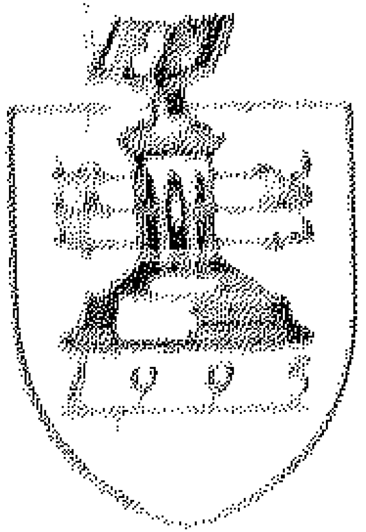
مظالم المماليك ١٦٣
الهرب إلى ابيار ١٦٥
محاكمة سليمان الحلبي ١٦٧
عودة المماليك ١٦٩
.. وجاء محمد علي ١٧١
أمانة المؤرخ ١٧٤
الجبرتي مؤرخاً ١٧٨
مؤلفات الجبرتي ١٨٢

علماء العرب

ابن الأثير
ابن بطوطة
الإدريسي
الجبرتي

تتناول هذه السلسلة، بأسلوب مشوق، وعبارة واضحة، حياة ستة عشر عالماً من مشاهير علماء العرب الذين ساهموا في تقدم الحضارة، وفتح آفاق جديدة في العلم والمعرفة أمام الإنسانية.

السلسلة، باختصار، غاية في الأهمية، لأنها تقدم للجيل العربي الجديد الوجه الأصيل من تراث العرب الذي أفاد منه العالم أجمع، وأثنى عليه الغرب قبل العرب أنفسهم.





المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون، ص.ب: ١١-٥٤٦٠
العنوان البرقي: موكيالي
تلكس: LE/DIRKAY
الغلاف: زهير أبو شايب